

القرآن الكريم... كتاب هداية لا كتاب رواية

الخارطة الكبرى للقرآن العظيم

رؤية متكاملة لفهم القرآن الكريم
موضوعاً وترتيباً وترابطاً وغاية

الهداية

الشرع

الوحي

اليوم الآخر

الرسالة

النور

الفتاحة

الكهف

اليقرة

آل عمران

الأنعام

هود

يوسف

مريم

المؤلف |

سائق تكسي

٣٢ سنة على طريق القرآن الكريم

- الْمُقَدِّمَةُ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}

ما أَعْظَمَ أَنْ يَفْتَتِحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحَدِيثَ بِحَمْدِهِ، وَأَنْ يُعَلِّمَ عِبَادَهُ كَيْفَ يُثْنُونَ عَلَيْهِ...

ثُمَّ يُعَقِّبَ ذَلِكَ بِالسَّلَامِ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ خَاتَمَ رُسُلِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي بَلَغَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ كَمَا أُنْزِلَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ كَمَا حَقَّهَا، وَنَصَحَ لِلأُمَّةِ، فَجَزَاهُ اللَّهُ جَلًّا وَعَلا عَنْ كِتَابِهِ، وَعَنْ أُمَّتِهِ، خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الدَّلِيلُ الْأَوَّلَ قَبْلَ كُلِّ دَلِيلٍ...
فَمِنْهُ عَرَفْنَا رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا...
وَمِنْهُ عَرَفْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

{يَسْ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

وَمِنْهُ عَرَفْنَا مَكَانَةَ الْأَنْبِيَاءِ...

وَعَدَالَتهُ الصَّالِحِينَ...

وَوَعْدَ اللَّهِ وَوَعِيدَهُ...

وَأَحْوَالَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ...

وَسُنَنَ الثَّارِيخِ...

وَمَصِيرَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

فَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ...

وَيَشْهَدُ لِنُورِهِ...

وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى مَنْ قَرَأَهُ وَتَدَبَّرَهُ...

فَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ...

وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثَرَةِ الرَّدِّ...

وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ.

وَمَعَ طُولِ الصُّحْبَةِ لِهَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، كَانَ سُؤَالٌ وَاحِدٌ يَعُودُ كُلَّمَا انْتَهَيْتُ مِنْ سُورَةٍ وَبَدَأْتُ أُخْرَى:

هَلْ انْتَهَى الْحَدِيثُ حَقًّا؟

أَمْ أَنَّ السُّورَةَ التَّالِيَةَ تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ انْتَهَتْ السَّابِقَةُ؟

وَهَلْ تَرْتِيبُ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَمَا يَبَيِّنُ أَيْدِينَا مُجَرَّدُ تَرْتِيبٍ لِلثَّلَاوَةِ، أَمْ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنَ الْهَدَايَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لِعِبَادِهِ؟

وَمَعَ تَكَرُّارِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّدْبِيرِ...

لَمْ تَعُدِ السُّورُ مُنْفَصِلَةً فِي مَعْنَاهَا...

بَلْ بَدَأَتْ تَتَقَارَبُ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ خَاتِمَةَ كُلِّ سُورَةٍ تَتْرُكُ سُؤَالَ فِي النَّفْسِ...

ثُمَّ تَأْتِي السُّورَةُ الَّتِي بَعْدَهَا لِتُجِيبَ عَنْهُ...

ثُمَّ تَفْتَحُ هِيَ الْأُخْرَى بَابًا جَدِيدًا...

فَيَتَوَاصَلُ الْحَدِيثُ...

وَيَتَكَمَّلُ الْبِنَاءُ...

حَتَّى يَبْدُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَأَنَّهُ حَدِيثٌ وَاحِدٌ مُتَّصِلٌ...

يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا... وَيُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا...

وَيَهْدِي بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ.

وَلَعَلَّ هَذَا مِمَّا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

{كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}.

فَإِنْ كَانَ الْإِحْكَامُ يَشْمَلُ الْآيَةَ وَالسُّورَةَ وَالْبِنَاءَ كُلَّهُ...

فَلَا عَجَبَ أَنْ يَكُونَ التَّرْتِيبُ جُزْءًا مِنْ هَذَا الْإِحْكَامِ.

ثُمَّ تَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}.

فَأَذْرَكْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حَدِيثٌ وَاحِدٌ مُتَّصِلٌ...

لَا مُجَرَّدُ سُورٍ مُتَفَرِّقَةٍ...

وَأَنَّهُ كُلَّمَا خُتِمَتْ سُورَةٌ انْفَتَحَتْ أُخْرَى...

وَكُلَّمَا انْتَهَى مَوْضِعٌ بَدَأَ الَّذِي يَلِيهِ...

حَتَّى يَعُودَ الْقَارِئُ إِلَى بَدْءِ الرِّحْلَةِ وَقَدْ اِزْدَادَ نُورًا وَبَصِيرَةً.

وَمِنْ هَذَا الْفَهْمِ جَاءَتْ تَسْمِيَةُ هَذَا الْعَمَلِ:

الْخَارِطَةُ الْكُبْرَى لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ...

لِأَنَّهُ مُحَاوَلَةٌ لِرَسْمِ مَعَالِمِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ...

وَالْكَشْفِ عَنْ وَحْدَةِ الْبِنَاءِ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا...

وَلَعَلَّ أَجْمَلَ مَا عَلَّمْتَنِيهِ هَذِهِ الرَّحْلَةُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَجْعَلْ حَمْلَ هَمِّ الْحَقِّ حِكْرًا عَلَى طَبَقَةِ
مِنَ النَّاسِ... وَلَا قَصْرَهُ عَلَى أَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ أَوْ الشُّهُرَةِ... فَالْهَذَا لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا... لَكِنَّهُ حَمَلَ
خَبَرَ التَّوْحِيدِ... وَالنَّمْلَةَ لَمْ تَكُنْ صَاحِبَةً سُلْطَانٍ... لَكِنَّهَا أَنْقَذَتْ أُمَّتَهَا بِكَلِمَةٍ... وَرَجُلٌ سُورَةٍ
يَسَّ لَمْ يَكُنْ رَسُولًا... وَلَا عَرَفَ لَنَا اسْمُهُ... وَمَعَ ذَلِكَ خَلَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْقِفُهُ فِي
كِتَابِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... لِأَنَّهُ سَعَى إِلَى قَوْمِهِ نَاصِحًا، وَقَالَ:

{يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}.

وَلَمْ يَذْكُرِ الْقُرْآنُ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ... وَإِنَّمَا ذَكَرَ مَوَاقِفَهُمْ... كَأَنَّ الرِّسَالَةَ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
أَنْ تَبْقَى لَيْسَتْ: مَنْ قَالَ؟ بَلْ مَاذَا قَالَ؟ وَلَيْسَتْ: مَنْ كَانَ؟ بَلْ مَعَ مَنْ كَانَ؟
وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى...

لَمْ يَكُنْ هَذَا الْكِتَابُ إِلَّا مُحَاوَلَةً لِلانْضِمَامِ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْكِبِ الْمُبَارَكِ... مَوْكِبِ كُلِّ مَنْ حَمَلَ
مِنْ نُورِ هَذَا الْقُرْآنِ مَا اسْتَطَاعَ... ثُمَّ مَضَى بِهِ إِلَى النَّاسِ... رَاجِيًا هِدَايَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى... غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَى شُهْرَةٍ... وَلَا إِلَى لَقَبٍ... وَلَا إِلَى مَنْزِلَةٍ بَيْنَ النَّاسِ.

وَلِذَلِكَ لَمْ أَجِدْ حَاجَةً إِلَى أَنْ أَقَدِّمَ لِلْقَارِئِ اسْمًا... أَوْ لَقَبًا... أَوْ شَهَادَةً... لِأَنَّ قِيَمَةَ هَذِهِ
الصَّفَحَاتِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَاسَ بِصَاحِبِهَا... وَإِنَّمَا بِمَا فِيهَا مِنْ صَوَابٍ... فَإِنْ وَافَقَتْ كِتَابَ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ... وَإِنْ جَانَبَتِ الصَّوَابَ... فَالرُّجُوعُ
إِلَى الْحَقِّ أَوْلَى مِنَ التَّمَايُ فِي الْخَطَا.

وَهَذَا الْعَمَلُ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ تَدَبُّرِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ... سَاقَهُ رِزْقُهُ فِي طَرِيقَاتِ النَّاسِ... وَسَاقَهُ
قَلْبُهُ إِلَى طَرِيقَاتِ الْقُرْآنِ... فَكَانَ يَجِدُ خَلْفَ مَقْوَدِ سَيَّارَةِ الْأَجْرَةِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ مَا لَا يَقِلُّ عَمَّا
يَجِدُهُ بَيْنَ رُفُوفِ الْمَكْتَبَاتِ... وَكَانَ يَرَى أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الرِّزْقِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ طَرِيقًا إِلَى
التَّدْبِيرِ... وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ يَفْتَحُ عَلَى قَلْبِ عَبْدٍ فِي سَاعَةِ عَمَلٍ...

كَمَا يَفْتَحُ عَلَى غَيْرِهِ فِي سَاعَةِ دَرَسٍ... فَإِنْ كَانَ فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ مَا يَفْتَحُ بَابًا لِتَدْبِيرِ كِتَابِ
اللَّهِ... فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَنَّهَا تَدْعُو قَارِئًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ يَفْتَحَ الْمُصْحَفَ بِعَيْنِ الْبَاحِثِ عَنْ وَحْدَةِ
الْقُرْآنِ... لَا عَنْ تَفَرُّقِ مَوَاضِيْعِهِ... فَقَدْ تَحَقَّقَ لَهَا مِنَ الْغَايَةِ مَا أَرْجُوهُ... وَأَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ... وَأَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا...
وَنُورَ صُدُورِنَا... وَجِلَاءَ أَحْزَانِنَا... وَأَنْ يَرْزُقَنَا صُحْبَتَهُ فِي الدُّنْيَا...
وَشَفَاعَتَهُ يَوْمَ نَلْقَاهُ...

{رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}.

تأليف

سائق تكسي

٢٩ / محرم / ١٤٤٨ هـ

١٤ / تموز / ٢٠٢٦ م

مِفْتَاحُ الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: لِمَاذَا أُرْسِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرَّسُلُ؟

قَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةَ جَاءَتْ أَوَّلًا لِإِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَكِنَّ الْمُتَدَبِّرَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَلْحَظُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ الرَّئِيسَةَ الَّتِي دَارَ حَوْلَهَا الصَّرَاعُ بَيْنَ الرَّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ لَمْ تَكُنْ فِي الْغَالِبِ إِثْبَاتِ وُجُودِ الْخَالِقِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ قَضِيَّةً أَعَمَّقَ:

لِمَنْ تَكُونُ الْعِبَادَةُ؟ وَلِمَنْ تَكُونُ الطَّاعَةُ الْعُلْيَا؟ وَمَنْ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ أُمُورِهِ؟ وَمَنْ يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ؟ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَا يُعَالِجُ فَقَطْ سُؤَالَ:

هَلْ يُوْجَدُ اللَّهُ؟

بَلْ يُعَالِجُ سُؤَالَ أَكْبَرَ:

إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ وَالرَّازِقُ وَالْمَالِكُ، فَهَلْ يَجْعَلُ عِلَاقَتَهُ بِهِ مُبَاشِرَةً خَالِصَةً، أَمْ يُدْخِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ مَرَاجِعَ وَوَسَائِطَ يَظُنُّ أَنَّهَا تَمْلِكُ قُرْبًا أَوْ نَفْعًا أَوْ شَفَاعَةً؟

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: الْإِنْسَانُ يَعْرِفُ رَبَّهُ بِفِطْرَتِهِ، وَلَكِنَّ الْإِنْحِرَافَ يَقَعُ فِي الْمَرْجِعِيَّةِ:

يُخْبِرُنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعْرُوسَةٌ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الرُّوم: ٣٠)

وَيَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمِيثَاقَ الْأَوَّلَ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأَعْرَاف: ١٧٢)

وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللَّهِ، بَلْ كَانُوا يَقْرُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ وَالرَّازِقُ وَالْمُدَبِّرُ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لُقْمَان: ٢٥) وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (يُونُس: ٣١)

إِذَنْ فَالسُّؤَالُ: إِذَا كَانُوا يَعْرِفُونَ اللَّهَ، فَلِمَاذَا كَذَّبُوا الرَّسُلَ؟

وَالْجَوَابُ الَّذِي يَكْشِفُهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

أَنَّ الْمَشْكِلةَ لَمْ تَكُنْ فِي مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ، بَلْ فِي تَوْحِيدِ الْمَرْجِعِيَّةِ.

المبحث الثالث: الخِيطُ الأوَّلُ في الخَارِطَةِ يَبْدَأُ مِنَ الْفَاتِحَةِ:

مِنْ أَوَّلِ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَضَعُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْأَسَاسَ:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. فَالْحَمْدُ الْمُطْلَقُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

ثُمَّ يَأْتِي مَرْكَزُ الطَّرِيقِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}. فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ الْإِعْتِرَافِ بِاللَّهِ، وَإِنَّمَا تَوْجِيهُ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ.

ثُمَّ يَأْتِي النَّدَاءُ لِلْبَشَرِيَّةِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}. (البقرة: ٢١)
ثُمَّ يُغْلِقُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَابَ الشُّرْكِ: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا}. (البقرة: ٢٢)

وَهُنَا يَبْدَأُ الْقُرْآنُ فِي كَشْفِ كُلِّ صُورَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَوَّلَ فِيهَا الطَّاعَةُ أَوْ الْعِبَادَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ.

المبحث الرابع: كَيْفَ يَكْشِفُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ صُورَةَ الْإِنْجِرَافِ؟

أَوَّلًا: تَحْوِيلُ الدِّينِ إِلَى اتِّبَاعِ الْبَشَرِ!

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}. (البقرة: ٨٥)
ثُمَّ كَشَفَ صُورَةَ اخْطَرِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}. (التوبة: ٣١)
فَالْمَشْكِلَةُ لَيْسَتْ فِي اخْتِرَامِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِمْ، وَإِنَّمَا فِي تَحْوِيلِهِمْ إِلَى مَرْجِعِيَّةٍ مُسْتَقْلَةٍ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُعَلِّمُ الْإِنْسَانَ أَنَّ كُلَّ بَشَرٍ مَهْمَا عَلَا قَدْرُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ الْمَرْجِعَ الْأَعْلَى هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَحْدَهُ.

ثَانِيًا: وَهُمْ الْوَسَائِطُ وَالشَّفَاعَةُ الْمُسْتَقْلِلَةُ!

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}. (يونس: ١٨)
فَيَرُدُّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْوَهْمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}. (البقرة: ٢٥٥)

فَالشَّفَاعَةُ لَيْسَتْ مِلْكًا مُسْتَقْلَلًا لِأَحَدٍ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، بَلْ هِيَ خَاضِعَةٌ لِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَيُعِيدُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْإِنْسَانَ دَائِمًا إِلَى الْحَقِيقَةِ الْكُبْرَى:
أَنَّ الرَّحْمَةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالْمَغْفِرَةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالتَّفَعُّعَ وَالضَّرَّ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

ثَالِثًا: الْوِلَايَةُ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ!
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. (البقرة: ٢٥٧)
وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾. (الأنعام: ٥٧)

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُعِيدُ الْإِنْسَانَ دَائِمًا إِلَى الْمَرْجِعِ الْوَاحِدِ؛ فَلَا وَلِيَّ حَقِيقِيًّا إِلَّا اللَّهُ، وَلَا حُكْمَ مُظْلَقًا إِلَّا حُكْمُهُ، وَلَا طَاعَةَ غُلِيًّا إِلَّا لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: اكْتِمَالُ بِنَاءِ الْمَرْجِعِيَّةِ فِي السُّورِ الْكُبْرَى:

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ:

يُغْلِقُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَابَ تَحْوِيلِ الرَّسُولِ إِلَى مَرْجِعِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. (آلِ عِمْرَانَ: ١٤٤)
وَيَقَرِّرُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. (آلِ عِمْرَانَ: ١٢٨)
فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلَيْسَ لَهُ أَمْرٌ مُسْتَقِلٌّ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

سُورَةُ النَّسَاءِ:

تَضَعُ السُّورَةُ مِغْيَارَ الطَّاعَةِ وَالْمَرْجِعِيَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. (النساء: ٥٩)
ثُمَّ تَجْعَلُ الْمَرْجِعَ عِنْدَ الْإِخْتِلَافِ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. (النساء: ٥٩)
وَتَكْشِفُ صُورَةَ الْإِنْجِرَافِ عَنْ مَرْجِعِيَّةِ اللَّهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾. (النساء: ٦٠)
فَالْمُؤْمِنُ لَا يَبْحَثُ عَنْ مَرْجِعٍ بَدِيلٍ عَنْ هُدَى اللَّهِ، بَلْ يَرُدُّ أَمْرَهُ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ:

تُعْلِنُ السُّورَةُ اكْتِمَالُ الْبِنَاءِ الدِّينِيِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. (المائدة: ٣)
وَتَقَرِّرُ أَنَّ الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ هُوَ الْأَصْلُ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. (المائدة: ٤٤)

فَتَكْتُمَلُ فِي هَذِهِ السُّورِ الْكُبْرَى مَعَالِمُ الْمَرْجِعِيَّةِ:
اللَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ... وَاللَّهُ هُوَ الْمَطَاعُ... وَاللَّهُ هُوَ صَاحِبُ الْحُكْمِ...
وإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ أَمْرٍ.

المبحث السادس: هدم فكرة الوسيط وبناء العلاقة المباشرة بالله جلّ جلاله:

يَمْتَدُّ هَذَا الْخَيْطُ فِي سُورٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَيُعِيدُ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ الْإِنْسَانَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ إِلَى أَصْلِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ؛ عِلَاقَةٍ قَائِمَةٍ عَلَى التَّوَجُّهِ الْمُبَاشِرِ إِلَيْهِ، وَالثِّقَةِ بِرَحْمَتِهِ، وَالتَّعَلُّقِ بِهِ وَحْدَهُ، فَفِي سُورَةِ يُوسُفَ يَظْهَرُ أَنَّ حَتَّى الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عِبَادٌ لِلَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ الْمَغْفِرَةَ اسْتِقْلَالًا، فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
{قَالَ سَوْفَ أُسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. (يُوسُف: ٩٨)
فَهُوَ يَدُلُّهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَالِكًا لِلْمَغْفِرَةِ.

وَفِي سُورَةِ فَاطِرٍ يُقَرَّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ كُلَّ رَحْمَةٍ بِإِدِّ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا} وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ. (فَاطِر: ٢)
فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفْتَحَ بَابًا أَغْلَقَهُ اللَّهُ، وَلَا أَنْ يَمْنَعَ رَحْمَةً أَرَادَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ.
وَفِي سُورَةِ الزُّمَرِ يُعْلِنُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّ الدِّينَ الْخَالِصَ لَهُ وَحْدَهُ:
{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}. (الزُّمَر: ٣)

ثُمَّ يَكْشِفُ أَصْلَ فِكْرَةِ الْوَسَائِطِ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ:
{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}. (الزُّمَر: ٣)

فَكَشَفَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ أخطرَ الانحرافاتِ لَا تَبْدَأُ بِانْكَارِ اللَّهِ، بَلْ تَبْدَأُ بِادْخَالِ مَنْ يَظُنُّ
الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَقْرُبُهُ إِلَى اللَّهِ ذُونَ دَلِيلٍ مِنَ اللَّهِ.
وَفِي سُورَةِ غَافِرٍ يَفْتَحُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَابَ الْعَلَاقَةِ الْمُبَاشِرَةِ مَعَهُ، فَيَقُولُ:
{وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}. (غَافِر: ٦٠)
فَلَمْ يَقُلْ: ادْعُوا مَنْ يَدُلُّكُمْ عَلَيَّ،
وَلَكِنْ قَالَ: {ادْعُونِي}.
لِيُعِيدَ الْإِنْسَانَ إِلَى أَصْلِ الْفِطْرَةِ:
عَبْدٌ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ مُبَاشَرَةً.

الْخَاتِمَةُ: مِفْتَاحُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كُلُّهُ:

وَهَكَذَا يَكْشِفُ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ خَيْطًا مُمْتَدًّا مِنَ الْفَاتِحَةِ إِلَى النَّاسِ:
أَنَّ الْقَضِيَّةَ الْكُبْرَى الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرِّسَالَاتُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَعْرِفَةٍ أَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ، بَلْ أَنْ يَكُونَ
اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ هُوَ الْمَرْجِعُ الْأَعْلَى فِي:

الْعِبَادَةِ... وَالطَّاعَةِ... وَالِدُّعَاءِ... وَالرَّجَاءِ... وَالْحُكْمِ... وَالتَّشْرِيعِ.

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابٌ وَاحِدٌ، لَا تَتَفَرَّقُ مَقَاصِدُهُ، بَلْ تَبْنِي سُورُهُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى يَكْتَمِلَ
بِنَاءُ الْإِنْسَانِ الْمُوَحَّدِ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَمِنْ الْفَاتِحَةِ يَبْدَأُ الطَّرِيقَ:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ثُمَّ يَصِلُ إِلَى مَحَوِّرِ الْعُبُودِيَّةِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}
ثُمَّ يَمْتَدُّ فِي سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِيَحَرِّرَ الْإِنْسَانَ مِنْ كُلِّ مَرْجِعٍ يُنَافِسُ مَرْجِعِيَّةَ اللَّهِ.
وَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ الْخَارِطَةُ الْكُبْرَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَكُلُّ سُورَةٍ تُضِيفُ لِبَنَةِ جَدِيدَةٍ فِي بِنَاءِ
الْإِنْسَانِ الَّذِي عَرَفَ رَبَّهُ، وَوَحَّدَ قَضَدَهُ، وَجَعَلَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ مَرْجِعَهُ وَوَلِيَّهُ.
وَمِنْ هُنَا نَبْدَأُ الرِّحْلَةَ مَعَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: بِدَايَةِ الطَّرِيقِ...

الخطوة الأولى في الخارطة الكبرى...

سورة الفاتحة: 

أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَفْتَحَ لَنَا فِي كِتَابِهِ، وَأَنْ يَزِدَّنَا الْإِخْلَاصَ، وَأَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِنَا، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا.

❖ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ...

مِفْتَاحُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ... لَيْسَتْ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ مُجَرَّدَ أَوَّلِ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، بَلْ هِيَ الْبَذْرَةُ الَّتِي تَفْرَعُ مِنْهَا الْقُرْآنُ كُلُّهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ تَفْصِيلٌ لِمَا أَجْمَلْتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾. [الحجر: ٨٧].

فَكَانَ الْفَاتِحَةُ تَقِفُ فِي مَنْزِلَةٍ خَاصَّةٍ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ تَفْصِيلًا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ.

أَوَّلًا: لِمَاذَا افْتَتَحَ اللَّهُ الْقُرْآنَ بِالْحَمْدِ؟

لَمْ يَبْدَأِ الْقُرْآنُ بِالْأَمْرِ، فَلَمْ يَقُلْ: «اعْبُدُوا اللَّهَ»... وَلَمْ يَبْدَأِ بِالنَّهْيِ... وَلَمْ يَبْدَأْ بِذِكْرِ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ... وَلَمْ يَبْدَأْ حَتَّى بِاسْمِ اللَّهِ مُجَرَّدًا.

بَلْ بَدَأَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الْفَاتِحَةُ].

وَفِي ذَلِكَ تَغْلِيمٌ لَنَا أَنَّ أَوَّلَ عِلَاقَةٍ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ لَيْسَتْ عِلَاقَةٌ خَوْفٍ، بَلْ عِلَاقَةٌ مَعْرِفَةٍ ثَوْرَتْ الْحَمْدَ، فَالْعَبْدُ لَا يَعْْبُدُ اللَّهَ لِأَنَّهُ يَخَافُهُ فَقَطْ، بَلْ لِأَنَّهُ عَرَفَ كَمَالَهُ، وَرُبُوبِيَّتَهُ، وَرَحْمَتَهُ، فَاسْتَحَقَّ وَحْدَهُ الْحَمْدَ.

وَسَتَتَكَرَّرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ؛ فَكَثِيرًا مَا يَرِدُ الْحَمْدُ عِنْدَ ذِكْرِ أَفْعَالِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، كَمَا فِي مَظَالِعِ سُورِ الْأَنْعَامِ، وَالْكَهْفِ، وَسَبَأٍ، وَقَاطِرٍ.

ثَانِيًا: لِمَاذَا قَالَ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

لَمْ يَقُلْ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعَالَمِينَ»... وَلَمْ يَقُلْ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ مَالِكِ الْعَالَمِينَ».

بَلْ قَالَ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾... لِأَنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ، وَيَرْبِّي، وَيَزِدُّ، وَيَهْدِي، وَيُصْلِحُ، وَيَرْغِي عِبَادَهُ حَتَّى يَبْلُغُوا الْكَمَالَ الَّذِي أَرَادَهُ لَهُمْ.

وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ هُوَ بَيَانٌ لِتَرْبِيَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ؛ فَفِيهِ تَرْبِيَةُ آدَمَ، وَنُوحَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَمُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَرْبِيَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

ثَالِثًا: لِمَاذَا جَاءَتِ الرَّحْمَةُ مَرَّتَيْنِ؟

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. [الْفَاتِحَةُ: ٣].

فَقَبِلَ أَنْ يَذْكُرَ الْحِسَابَ ذَكَرَ الرَّحْمَةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. [الْفَاتِحَةُ: ٤].

فَاجْتَمَعَ فِي مَظَلَعِ السُّورَةِ جَنَاحَا السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ:

الرَّجَاءُ... وَالْخَوْفُ.

وَهَذَا الِيمِيزَانُ سَيُزَادِفِقُنَا فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ؛ فَلَا يَطْعَى الرَّجَاءُ حَتَّى يَأْمَنَ الْإِنْسَانُ، وَلَا الْخَوْفُ حَتَّى يَقْنَطَ.

رَابِعًا: لِمَاذَا تَوَسَّطَتِ الْآيَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. [الْفَاتِحَةُ: ٥]؟

هَذِهِ هِيَ قَلْبُ الْفَاتِحَةِ، بَلْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّهَا قَلْبُ الْقُرْآنِ.

لَا حِطُّوا تَرْتِيبِ السُّورَةِ:

أَوَّلُهَا حَدِيثٌ عَنِ اللَّهِ... وَآخِرُهَا حَدِيثٌ عَنِ النَّاسِ... وَفِي الْوَسْطِ الْعَهْدُ بَيْنَهُمَا.

فَبَعْدَ أَنْ عَرَّفَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ، جَاءَ دَوْرُكَ أَنْتَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

لَكِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَعَانَكَ، فَقُلْتَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَلِذَلِكَ قُدِّمَتِ الْعِبَادَةُ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِعَانَةَ هُنَا مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى:

نَحْضُكَ بِالْعِبَادَةِ، وَنَطْلُبُ مِنْكَ الْعَوْنَ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا.

خَامِسًا: لِمَاذَا كَانَ أَوَّلُ طَلَبٍ هُوَ الْهَدَايَةُ؟

بَعْدَ كُلِّ هَذَا الثَّنَاءِ، لَمْ يَطْلُبِ الْمُؤْمِنُ:

رِزْقًا... وَلَا صِحَّةً... وَلَا نَصْرًا... وَلَا ذُرِّيَّةً.

بَلْ قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الْفَاتِحَةُ: ٦].

وَكَأَنَّ الْقُرْآنَ يُعَلِّمُنَا أَنَّ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ هِيَ الْهَدَايَةُ، وَأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ أُخْرَى، إِنْ لَمْ تُوجَّهْ بِالْهَدَايَةِ، قَدْ

تَنَقَّلَتْ عَلَى صَاحِبِهَا.

وَلِهَذَا سَتَكُونُ الْهَدَايَةُ هِيَ الْقِصَّةُ الْأُولَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، حَيْثُ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. [الْبَقَرَةِ: ٢].

فَكَأَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ جَوَابٌ مُبَاشِرٌ لِدَعَاءِ الْفَاتِحَةِ:

الْعَبْدُ يَقُولُ: {اهْدِنَا}

فَيَأْتِي الْجَوَابُ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ... هُدًى﴾.
وَهَذَا مِنْ أَوْضَحِ الرِّوَابِطِ بَيْنَ الشُّوَرَتَيْنِ.

سَادِسًا: لِمَاذَا قَالَتِ الشُّورَةُ: {الصِّرَاطُ} وَلَمْ تَقُلْ: «الطَّرِيقُ»؟
الصِّرَاطُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا اغْوِجَاجَ فِيهِ.
وَلَمْ تَقُلْ: «أَهْدِنَا طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا».
بَلْ قَالَتْ: {الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ}.

أَيُّ إِنَّ الْحَقَّ فِي التَّصَوُّرِ الْقُرْآنِيِّ وَاحِدٌ، وَإِنْ تَعَدَّدَتْ طُرُقُ الضَّلَالِ.
وَلِذَلِكَ جَاءَتْ الْخَاتِمَةُ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ لِلْحَقِّ، وَالْجَمْعِ لِلْبَاطِلِ ضَمًّا.

سَابِعًا: لِمَاذَا خُتِمَتِ الشُّورَةُ بِثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ؟
قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الْفَاتِحَةُ: ٧].
ثُمَّ قَالَ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}.
ثُمَّ قَالَ: {وَلَا الضَّالِّينَ}.
لَا حِطُّوا أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَعْرِفِ الصِّرَاطَ أَوَّلًا بِالْأَفْكَارِ، بَلْ عَرَفَهُ بِالنَّمَاذِجِ الْبَشَرِيَّةِ.
وَهَذِهِ سُنَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ سَتَتَكَرَّرُ كَثِيرًا، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ: «الصِّرَاطُ هُوَ كَذَا وَكَذَا»، قَالَ: هُوَ
طَرِيقُ أَنَاسٍ سَلَكَوْهُ.

وَلِهَذَا سَيَبْدَأُ الْقُرْآنُ بَعْدَ ذَلِكَ بِعَرْضِ النَّمَاذِجِ:
آدَمَ... وَنُوحًا... وَإِبْرَاهِيمَ... وَمُوسَى... وَبَنِي إِسْرَائِيلَ... وَالْمُؤْمِنِينَ... وَالْمُتَافِقِينَ...
لِيُرِيَكَ الصِّرَاطَ مُجَسَّدًا فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ.

ثَامِنًا: لِمَاذَا لَمْ يَذْكُرْ أَصْنَافُ الْأَصْنَافِ؟
لَمْ يَقُلْ: غَيْرَ الْيَهُودِ... وَلَا النَّصَارَى.

بَلْ ذَكَرَ أَوْصَافًا عَامَّةً:
{الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} وَ {الضَّالِّينَ}.
وَهَذَا يَجْعَلُ الْآيَةَ صَالِحَةً لِكُلِّ زَمَانٍ؛ فَكُلُّ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُ دَخَلَ فِي مَعْنَى
الْغَضَبِ، وَكُلُّ مَنْ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ بِغَيْرِ هُدًى دَخَلَ فِي مَعْنَى الضَّلَالِ، بِقَدْرِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ
الْوُصْفُ.

إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَخْتَصِرَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي الْفَاتِحَةِ، فَيُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ}: مَعْرِفَةُ اللَّهِ.
{رَبِّ الْعَالَمِينَ}: أفعاله في خلقه وتربيته.
{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}: رَحْمَتُهُ.
{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}: الآخِرَةُ وَالْجَزَاءُ.
{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}: الدِّينُ وَالتَّكَالِيفُ.
{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: الْإِفْتِقَارُ إِلَى اللَّهِ.
{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}: رِسَالَةُ الْقُرْآنِ.
{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}: قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ.
{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}: قِصَصُ الْأُمَمِ الْمُتَحَرِّفَةِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مَسَالِكِهَا.

تَفْهِيمٌ لِسُورَةِ الْبَقَرَةِ:

وَأَخْتِمَ بِهَذِهِ الْوَقْفَةَ الَّتِي أَعَدَّهَا مِنْ أَجْلِ مَا فِي مَطْلَعِ الْمُصْحَفِ:
يَنْتَهِي دُعَاءُ الْفَاتِحَةِ عِنْدَ قَوْلِكَ:
{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.
فَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ دُعَائِكَ وَبَيْنَ جَوَابِ رَبِّكَ إِلَّا الْبَسْمَلَةُ، ثُمَّ يَأْتِي الْجَوَابُ مُبَاشَرَةً:
{الْم} ○ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}. [البقرة: 1 - 2]

فَكَانَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يَبْدَأُ بِجَوَارٍ عَجِيبٍ:
الْعَبْدُ يَقُولُ: يَا رَبِّ، اهْدِنِي.
فَيُجِيبُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هَذَا هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي فِيهِ الْهُدَايَةُ الَّتِي طَلَبْتَهَا.
وَمِنْ هُنَا سَتَبْدَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا بِاعْتِبَارِهَا أَوَّلَ سُورَةٍ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فَحَسَبُ، بَلْ بِاعْتِبَارِهَا أَوَّلَ
جَوَابِ إِلَهِي عَلَى أَوَّلِ دُعَاءٍ نَطَقَ بِهِ الْمُؤْمِنُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا فِي تَقْدِيرِي، هُوَ الْمِفْتَاحُ الَّذِي
سَنَبْنِي عَلَيْهِ فَهَمَّ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كُلِّهَا.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ:

لِمَاذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ؟
هَذَا أَوَّلُ سُؤَالٍ يَنْبَغِي أَنْ نَطْرَحَهُ.

انْتَهَتْ الْفَاتِحَةُ بِالدُّعَاءِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.
فَكَانَ أَوَّلُ جَوَابٍ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.
[البقرة: ٢]... إذن، فَسُورَةُ الْبَقَرَةِ لَيْسَتْ سُورَةً مُسْتَقِلَّةً عَنِ الْفَاتِحَةِ، بَلْ هِيَ جَوَابُ الدُّعَاءِ الَّذِي خُتِمَتْ بِهِ الْفَاتِحَةُ.

وَهُنَا لَطِيفَةٌ جَمِيلَةٌ: فِي الْفَاتِحَةِ طَلَبْتَ الْهَدَايَةَ.
وَفِي الْبَقَرَةِ لَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «هَذَا هُوَ الصِّرَاطُ».
بَلْ قَالَ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ... هُدًى﴾... أَيُّ إِنَّ الصِّرَاطَ لَا يُعْرَفُ بِالْهَوَى، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِالْوَحْيِ.

السُّؤَالُ الثَّانِي:

لِمَاذَا بَدَأَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ بِالْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ: ﴿الْم﴾. [البقرة: ١]
ثُمَّ قَالَ مُبَاشَرَةً: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾. [البقرة: ٢].

وَهَذَا لَيْسَ عَشْوَائِيًّا، فَكَأَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى:
هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أُعْجَزَكُمْ مَكُونٌ مِنْ نَفْسِ الْحُرُوفِ الَّتِي تَتَكَلَّمُونَ بِهَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ فَأَتُوا
بِمِثْلِهِ... وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا تَأْتِي الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ قَبْلَ الْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى:

﴿الْم﴾. [البقرة: ١-٢].
﴿الرَّ﴾. [البقرة: ١-٢].
﴿طه﴾. [البقرة: ١-٢].
﴿يس﴾. [البقرة: ١-٢].

السُّؤَالُ الثَّالِثُ:

لِمَاذَا بَدَأَ بِالْمُتَّقِينَ؟
كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَبْدَأَ بِالْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَقْصُودُونَ بِالدَّعْوَةِ، لَكِنَّهُ بَدَأَ بِالْمُؤْمِنِينَ:
﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ٢]... لِمَاذَا؟
لِأَنَّ الْهَدَايَةَ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا الْقُلُوبُ الْمُسْتَعِدَّةُ لِاسْتِقْبَالِهَا.

فَالْقُرْآنُ نُورٌ، وَلَكِنَّ النُّورَ لَا يَنْفَعُ الْعَيْنَ الْمَغْلَقَةَ.
وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ [البقرة: ٦].
ثُمَّ قَالَ:... ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا...﴾ [البقرة: ٨].

لِمَاذَا هَذَا التَّرْتِيبُ؟
لَا حِطُّوا... الْمُتَّقُونَ... الْكَافِرُونَ... الْمُنافِقُونَ.
وَلَيْسَ: الْكَافِرُونَ... الْمُؤْمِنُونَ... الْمُنافِقُونَ.
لِأَنَّ الْفَاتِحَةَ طَلَبَتْ: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.
فَأَوَّلَ مَنْ يُرِيكُهُمُ الْقُرْآنُ هُمْ:... أَهْلُ الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُحَذِّرُكَ مِنَ الطَّرَفَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

تَأْمَلُوا عَدَدَ الْآيَاتِ:
الْمُتَّقُونَ: خَمْسُ آيَاتٍ.
الْكَافِرُونَ: آيَتَانِ.
الْمُنافِقُونَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ خَطَرَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْأُمَّةِ أَعْظَمُ!! فَالْكَافِرُ مَعْرُوفٌ!! أَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُفْسِدُ مِنَ الدَّاخلِ.
وَهَذِهِ الْقِصَّةُ سَتَتَكَرَّرُ فِي سُورِ آلِ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءِ، وَالتَّوْبَةِ.

السُّؤَالُ الرَّابِعُ:

لِمَاذَا أَوَّلَ قِصَّةٍ فِي الْقُرْآنِ هِيَ قِصَّةُ آدَمَ؟ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْرَارِ تَرْتِيبِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.
كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَبْدَأَ بِإِبْرَاهِيمَ، أَوْ بَنُوحٍ، أَوْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ!!
لَكِنَّهُ بَدَأَ بِآدَمَ.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْفَاتِحَةَ سَأَلَتْ: مَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ؟
فَأَجَابَ الْقُرْآنُ: دَعْنِي أَرْجِعْكَ إِلَى بَدَايَةِ الْإِنْسَانِ... إِلَى أَوَّلِ تَكْلِيفٍ... وَإِلَى أَوَّلِ مَعْصِيَةٍ.
وَإِلَى أَوَّلِ تَوْبَةٍ... وَإِلَى أَوَّلِ هِدَايَةٍ.
إِذَنْ، نَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَنِ الْمَنْهَجِ، الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، إِفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ.
قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].
لَا حِطُّوا أَنَّ أَوَّلَ تَكْرِيمٍ لِلْإِنْسَانِ كَانَ بِالْعِلْمِ... وَلَيْسَ بِالْقُوَّةِ... وَلَا بِالْمَالِ... وَلَا بِالسُّلْطَانِ.
وَهَذَا سَيَكُونُ أَسَاسَ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾. [البقرة: ٣٤].

وَهُنَا يُقَدَّمُ الْقُرْآنُ أَوَّلَ مَرَضٍ يُدْمِرُ الْإِنْسَانَ: الْكِبَرُ.

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ قَلِيلٍ مَرَضٌ آخَرٌ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: الْحَسَدُ.

ثُمَّ مَرَضٌ آخَرٌ: حُبُّ الدُّنْيَا... فَكَانَ السُّورَةُ مُنْذُ بِدَايَتِهَا تُشَخِّصُ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ.

ثُمَّ يَأْتِي أَمْرٌ غَرِيبٌ... فَبَعْدَ قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَتَوَقَّعُ أَنْ يَنْتَقِلَ الْقُرْآنُ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لَكِنَّهُ يُفَاجِئُنَا بِأَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِينَ مَقْطَعًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ!!

لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

وَهُنَا يَبْدَأُ سِرُّ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْحَقِيقِيُّ... لِأَنَّ السُّورَةَ لَيْسَتْ كِتَابَ تَارِيخٍ.

إِنَّمَا تَتَحَدَّثُ عَنِ: الْأُمَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ الْكِتَابَ يَوْمًا مَا... ثُمَّ فَقَدَتْ أَهْلِيَّتَهَا.

وَالْمُحَاطَبُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ: أُمَّةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

فَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى مَنْ سَبَقَكُمْ... لَقَدْ حَمَلُوا الْكِتَابَ... ثُمَّ صَيَّعُوهُ.

فَايَاكُمْ أَنْ تَسْلُكُوا الطَّرِيقَ نَفْسَهُ.

وَلِهَذَا سَتَلَاخِظُونَ أَنَّ كُلَّ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَتْ لِمَجَرَّدِ الْحِكَايَةِ، بَلْ يَغْقُبُهَا

تَوْجِيهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَوْ تَأْتِي فِي سِيَاقٍ تَأْسِيسِ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ.

لِمَاذَا سُمِّيَتْ «الْبَقَرَةُ»؟

وَهُنَا نَصِلُ إِلَى أَوَّلِ مُفَاجَأَةٍ... السُّورَةُ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى:

آيَةِ الْكُرْسِيِّ... وَأَطْوَلَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ... وَأَعْظَمَ أَحْكَامِ التَّشْرِيعِ... وَتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ... وَبِنَاءِ الْأُمَّةِ...

سُمِّيَتْ بِاسْمِ... بَقَرَةٍ!

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ قِصَّةَ الْبَقَرَةِ تُمَثِّلُ مَرَضًا خَطِيرًا. فَهِيَ تُمَثِّلُ الصُّورَةَ الدَّقِيقَةَ لِعَقْلِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ بَنِي

إِسْرَائِيلَ؛ قَوْمٌ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، وَغَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلتَّكْلِيفِ، بَلْ لَا يَقْبَلُونَ التَّكْلِيفَ أَضَلًّا!!

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. [البقرة: ٦٧].

وَلَوْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ لَأَنْتَهَى الْأَمْرُ.

لَكِنَّهُمْ أَخَذُوا يَسْأَلُونَ: ﴿مَا لَوْثَهَا﴾... ﴿مَا هِيَ﴾... ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾... حَتَّى شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ... فَالِاسْمُ لَيْسَ عَنِ الْبَقَرَةِ... بَلْ عَنْ طَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَ أَمْرِ اللَّهِ.

هَلْ تَسْتَجِيبُ؟ أَمْ تُعَاطِلُ؟ أَمْ تَبْحَثُ عَنِ الْمَخَارِجِ؟
وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السُّورَةُ بِهَذَا الْإِسْمِ؛ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ نَقِيضَ قَوْلِ الْمُؤْمِنِينَ فِي آخِرِهَا:
﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. [البقرة: ٢٨٥].

لَا حِطُّوا هَذَا الرِّبْطَ الْعَجِيبَ:
قِصَّةُ الْبَقَرَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ... وَكَثْرَةُ الْأَسْئَلَةِ...

وَفِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

كَانَ السُّورَةُ كُلُّهَا رِحْلَةً تَرْبَوِيَّةً: مِنْ نَمُودَجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَكْثَرُوا الْجَدَلَ، إِلَى نَمُودَجِ الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتِي تُبَادِرُ إِلَى الْإِمْتِثَالِ.

السَّرُّ الْأَوَّلُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

لِمَاذَا جَاءَتْ قِصَّةُ آدَمَ، ثُمَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ؟
قَدْ يَظُنُّ الْقَارِئُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ مُتَفَرِّقَةً، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّهَا مُرْتَبَةٌ تَرْتِيبًا بِالِغِ الدَّقَّةِ.

لَا حِطُّوا التَّسْلُسَ: آدَمَ... بَنُو إِسْرَائِيلَ... إِبْرَاهِيمَ... تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ.
وَهَذَا لَيْسَ تَرْتِيبًا تَارِيخِيًّا؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَبْلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَلِمَاذَا قَدَّمَ الْقُرْآنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟
لِأَنَّ السُّورَةَ لَا تَرْتُبُ التَّارِيخَ، وَإِنَّمَا تَرْتُبُ الْحُجَّةَ.

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى: الْإِنْسَانُ.

بَدَأَتْ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْقِضِيَّةَ لَيْسَتْ قِضِيَّةَ الْيَهُودِ أَوْ الْمُسْلِمِينَ... بَلْ هِيَ قِضِيَّةُ الْإِنْسَانِ.
قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. [البقرة: ٣٠].

إِذَنْ، فَالْبِدَايَةُ هِيَ: مَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ؟ وَمَا هِيَ وَظِيفَتُهُ؟

المرحلة الثانية:

أَوَّلُ أُمَّةٍ حَمَلَتْ الْكِتَابَ... ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْقُرْآنُ مُبَاشَرَةً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.
فَكَانَ الْقُرْآنُ يَقُولُ: الْآنَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُمْ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ... سَأُرِيكُمْ أَوَّلَ تَجَرِبَةٍ كُبْرَى لِأُمَّةٍ حَمَلَتْ
الْوَحْيَ، ثُمَّ انْحَرَفَتْ عَنْهُ.

وَلِهَذَا يَتَكَرَّرُ النَّدَاءُ:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾. [البقرة: ٤٠].

ثُمَّ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾. [البقرة: ٤٠].

ثُمَّ: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾. [البقرة: ٤١].

ثُمَّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. [البقرة: ٤٢].

ثُمَّ: ﴿اتَّقُوا النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾. [البقرة: ٤٤].

لَا حِظُوا كَيْفَ يَنْتَقِلُ الْحَدِيثُ مِنَ النُّعْمَةِ إِلَى الْمَسْئُولِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى التَّقْصِيرِ.

المرحلة الثالثة:

لِمَاذَا جَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ؟ هَذِهِ مِنْ الْقَضَايَا الْعَظِيمَةِ فِي السُّورَةِ.

فَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا انْجِرَافَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ يَتَسَاءَلُ الْقَارِئُ:

إِنِّ، مَنْ يَحْمِلُ الرِّسَالَةَ الْآنَ؟

فَيَأْتِي الْجَوَابُ: إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ... وَلَكِنْ انْتَبِهْ... لَيْسَ بِوَصْفِهِ شَخْصِيَّةً تَارِيخِيَّةً.

بَلْ بِوَصْفِهِ الْأَصْلَ الْحَقِيقِيِّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾. [البقرة: ١٢٤].

لَا حِظُوا الْمُقَابَلَةَ الدَّقِيقَةَ: بَنُو إِسْرَائِيلَ نَقَضُوا الْعَهْدَ.

أَمَّا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

ثُمَّ تَأْتِي الْمَفَاجَأَةُ!! قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. [البقرة: ١٢٤].

فَأَجَابَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. [البقرة: ١٢٤].

هَذِهِ الْآيَةُ وَحْدَهَا تَهْدِمُ فِكْرَةَ أَنَّ الشَّرَفَ بِالنَّسَبِ... فَالْعَهْدُ لَا يَنْتَقِلُ بِالْوَرَاثَةِ... بَلْ بِالطَّاعَةِ.

وَهَذِهِ صَرْبَةٌ قَوِيَّةٌ لِلْفِكْرِ الَّذِي كَانَ يُسَيِّطِرُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

ثُمَّ لِمَاذَا بِنَاءُ الْكُعْبَةِ هُنَا؟

بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ» [البقرة: ١٢٧].

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْقِبْلَةَ سَتَتَحَوَّلُ بَعْدَ قَلِيلٍ! فَلَا بُدَّ أَوَّلًا مِنْ إِثْبَاتِ أَنَّ الْكَعْبَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا جَدِيدًا. بَلْ هِيَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ: وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا فِي السُّورَةِ.

قَالَ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ» [البقرة: ١٢٨].

ثُمَّ قَالَ: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» [البقرة: ١٢٩].

قِفْ هُنَا!! هَذَا الدُّعَاءُ سَيَبْقَى مُعَلَّقًا... حَتَّى يُوَلَّدَ مُحَمَّدٌ ﷺ... أَيَّ إِنَّ بَعْتَهُ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَتْ حَدَثًا مُفَاجِئًا... بَلْ هِيَ اسْتِجَابَةٌ لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ تَأْتِي الْقِبْلَةُ... وَهُنَا يَظْهَرُ الْبِنَاءُ الْمُعْجِزُ... فَبَعْدَ أَنْ أُثْبِتَ الْقُرْآنُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْإِمَامُ... وَأَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ بَيْتُهُ... يَأْتِي الْأَمْرُ: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» [البقرة: ١٤٤].

انْظُرُوا إِلَى هَذَا التَّرْتِيبِ: إِبْرَاهِيمُ... ثُمَّ الْبَيْتُ... ثُمَّ الْقِبْلَةُ. لَا يُمَكِّنُ تَقْدِيمُ أَحَدِهَا عَلَى الْآخَرِ... وَهُنَا يَظْهَرُ سِرٌّ آخَرٌ.

لَا حِظُوا أَنْ تَحْوِيلَ الْقِبْلَةَ جَاءَ فِي مُنْتَصَفِ السُّورَةِ تَقْرِيْبًا.

وَهَذَا - فِي نَظْرِي - لَيْسَ مُجَرَّدَ تَرْتِيبٍ، بَلْ يَحْمِلُ دَلَالَةً وَاضِحَةً.

لِأَنَّ الْقِبْلَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ اتِّجَاهٍ لِلصَّلَاةِ... بَلْ هِيَ إِعْلَانٌ وَلَادَةٌ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ.

فَقَبْلَهَا كَانَ الْحَدِيثُ - فِي الْغَالِبِ - عَنِ الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ.

وَبَعْدَهَا يَبْدَأُ الْحَدِيثُ - فِي الْغَالِبِ - عَنِ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ... وَالتَّشْرِيعَاتِ... وَبِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ.

فَكَانَ تَحْوِيلَ الْقِبْلَةَ هُوَ نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ بَيْنَ عَهْدَيْنِ.

ثُمَّ يَأْتِي سُؤَالٌ مُهِمٌّ جَدًّا!! لِمَاذَا جَاءَتْ آيَةُ الْبِرِّ مُبَاشَرَةً بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ؟

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ...» [البقرة: ١٧٧].

هَذِهِ مِنْ أَبْدَعِ الرِّوَابِطِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ... قَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ تَحْوِيلَ الْقِبْلَةَ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ... فَيَأْتِي الْقُرْآنُ مُبَاشَرَةً لِيَقُولَ: لَا...

تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ مُهِمٌّ؛ لِأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ... لَكِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ فِي مُجَرَّدِ الْإِتِّجَاهِ.

إِنَّمَا الْبِرُّ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْإِيمَانُ، وَالْإِنْفَاقُ، وَالْوَفَاءُ، وَالصَّبْرُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ... أَيِ إِنَّ الْقِبْلَةَ رَمَزٌ لِلْوَحْدَةِ وَالطَّاعَةِ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ الدِّينَ كُلَّهُ، وَهَذَا يَفْنَعُ الْأُمَّةَ مِنْ أَنْ تَحْتَزِلَ الدِّينَ فِي الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ وَخَدَهَا.

السُّرُّ الثَّانِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

لِمَاذَا جَاءَتْ الْأَحْكَامُ بِهَذَا التَّرْتِيبِ؟

بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ...﴾. [البقرة: ١٧٧].
هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَعْرِيفٍ لِلْبِرِّ... بَلْ هِيَ فَهْرُسُ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ السُّورَةِ كُلِّهِ.

تَأَمَّلُوهَا جَيِّدًا:

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي
الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٧٧].

فَهَذِهِ: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾... هِيَ الْعَقِيدَةُ.

ثُمَّ: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ...﴾... وَهَذَا هُوَ الْإِنْفَاقُ.

ثُمَّ: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ...﴾... وَهَذِهِ هِيَ الْعِبَادَةُ.

ثُمَّ: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ...﴾... وَهَذَا هُوَ نِظَامُ الْمَالِ وَالِإِفْتِصَابِ.

ثُمَّ: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ...﴾... وَهَذِهِ هِيَ الْأَخْلَاقُ.

ثُمَّ: ﴿وَالصَّابِرِينَ...﴾... وَهَذِهِ هِيَ التَّرْبِيَةُ.

فَكَانَ الْآيَةُ تَقُولُ: الْآنَ سَأُشْرَحُ لَكُمْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِالتَّفْصِيلِ.
وَفِعْلًا... انْظُرُوا مَا يَأْتِي بَعْدَهَا مُبَاشَرَةً.

يَبْدَأُ الْقِصَاصُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾. [البقرة: ١٧٨].

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الْجَدِيدَةَ لَا تَقُومُ بِغَيْرِ عَدْلِ... وَقَبْلَ أَنْ يَبْنِيَ الْفُرْآنُ الْأُسْرَةَ... يَبْنِي الْقَضَاءَ.

ثُمَّ تَأْتِي الْوَصِيَّةُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾. [البقرة: ١٨٠].

أَيِ إِنَّ الْمَالَ، حَتَّى بَعْدَ الْمَوْتِ، يَجِبُ أَنْ يَبْقَى مُنْضَبِطًا بِالْحَقِّ.

ثُمَّ يَأْتِي الصِّيَامُ... وَهُنَا سُؤَالٌ مُهِمٌّ: لِمَاذَا جَاءَ الصِّيَامُ هُنَا؟

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. [البقرة: ١٨٣].
لَا حِطُّوا... بَعْدَ أَنْ بَنَى الْمُجْتَمَعُ مِنَ الْخَارِجِ... بَدَأَ يَبْنِي الْإِنْسَانَ مِنَ الدَّاخلِ... فَالْقِصَاصُ
يَضِطُّ الْمُجْتَمَعُ... أَمَّا الصِّيَامُ فَيَضِطُّ النَّفْسَ.

وَلِهَذَا خَتَمَ آيَةَ الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٨٣].
وَالْتَفَوَى هِيَ أَوَّلُ صِفَةٍ ذَكَرَتْهَا السُّورَةُ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ٢].

إِذَنْ... فَالصِّيَامُ يَصْنَعُ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ الْهَدَايَةَ.
وَلِمَاذَا جَاءَ الدُّعَاءُ فِي وَسْطِ آيَاتِ الصِّيَامِ؟
هَذَا مِنْ أَجْمَلِ أَسْرَارِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فَبَيْنَ آيَاتِ الصِّيَامِ نَفْرًا فَجَاءَتْ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. [البقرة: ١٨٦].
قَدْ يَظُنُّ الْقَارِئُ أَنَّهَا آيَةٌ مُسْتَقْلَةٌ... لَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ تَقَعُ فِي قَلْبِ أَحْكَامِ الصِّيَامِ.
لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الصِّيَامَ لَيْسَ امْتِنَاعًا عَنِ الطَّعَامِ وَحْدَهُ... إِنَّهُ اقْتِرَابٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.
فَجَاءَتْ آيَةُ الْقُرْبِ فِي قَلْبِ آيَاتِ الصِّيَامِ.

وَلَا حِطُّ أَيْضًا شَيْئًا لَطِيفًا... فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا مَا يَقُولُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ...﴾
ثُمَّ يَأْتِي الْجَوَابُ: ﴿قُلْ﴾... أَمَّا هُنَا فَلَمْ يَقُلْ: «قُلْ إِنِّي قَرِيبٌ.»

بَلْ قَالَ مُبَاشَرَةً: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

حَتَّى كَأَنَّ الْجَوَابَ جَاءَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِلَا وَاسِطَةٍ، إِظْهَارًا لِقُرْبِهِ مِنْ عِبَادِهِ الدَّاعِينَ.
ثُمَّ الْحُجُّ بَعْدَ الصِّيَامِ مُبَاشَرَةً
لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الصِّيَامَ عِبَادَةٌ قَرْدِيَّةٌ فِي الْعَالِبِ... أَمَّا الْحُجُّ فَهِيَ مُؤْتَمَرُ الْأُمَّةِ.
فَبَدَأَ الْقُرْآنُ يَنْتَقِلُ مِنْ تَرْبِيَةِ الْفَرْدِ... إِلَى اجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ... ثُمَّ الْأُسْرَةِ... ثُمَّ الزَّوْاجِ... ثُمَّ الطَّلَاقِ...
ثُمَّ الرِّضَاعَةِ... ثُمَّ الْعِدَّةِ.

لِمَاذَا كُلُّ هَذَا؟ لِأَنَّ الْأُمَّةَ لَا تُبْنَى بِالْمَسَاجِدِ وَحْدَهَا!! بَلْ تُبْنَى بِالْبُيُوتِ أَيْضًا!!
وَلِهَذَا اخْتَلَّتِ الْأُسْرَةُ هَذَا الْحَيِّزَ الْكَبِيرَ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ فَجَاءَتْ إِلَى الْقِتَالِ!! وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْإِنْسَانُ:
مَا عَلاَقَةُ الطَّلَاقِ بِالْجِهَادِ؟
الْجَوَابُ: كِلَاهُمَا حِمَايَةٌ لِلْأُمَّةِ.

فَالْأَوَّلُ يَحْمِيهَا مِنَ الدَّخِيلِ... وَالثَّانِي يَحْمِيهَا مِنَ الْخَارِجِ... وَلِهَذَا تَأْتِي قِصَّةُ طَالُوتَ...
لِمَاذَا قِصَّةُ طَالُوتَ؟

هَذِهِ مِنْ أَرْوَاعِ الْقِصَصِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ... لَيْسَ لَأَنَّ فِيهَا مَعْرَكَةً فَقَطْ... بَلْ لِأَنَّهَا تُعَلِّمُ الْأُمَّةَ
الْجَدِيدَةَ كَيْفَ تَخْتَارُ قَائِدَهَا.

لَا حِطُّوا... قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿أَتَنِي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾. [البقرة: ٢٤٧].

أَيْضًا اغْتَرَضُوا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ غَنِيًّا!! فَردَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَرَزَّاهُ بِسَطَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾. [البقرة: ٢٤٧].

انظُرُوا... مَرَّةً أُخْرَى... الْعِلْمُ أَوَّلًا!! كَمَا بَدَأَ مَعَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ اخْتِبارُ النَّهْرِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾. [البقرة: ٢٤٩].

وَهَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ اخْتِبارٍ لِلْعَطَشِ، بَلْ هُوَ اخْتِبارٌ لِلطَّاعَةِ.

وَهُوَ يُشَبِّهُ... اخْتِبارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالشَّجَرَةِ.

وَاخْتِبارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالبَقَرَةِ.

وَاخْتِبارَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ.

إِنِّ، فَالسُّورَةُ كُلُّهَا قَائِمَةٌ عَلَى فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ: هَلْ تَمْتَثِلُ لِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنْ خَالَفَ
هَؤُلَاءِ؟

ثُمَّ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ طَالُوتَ مُبَاشَرَةً... لِمَاذَا؟

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾. [البقرة: ٢٥١].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾. [البقرة: ٢٥١].

أَيُّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُرِيدُ كَيْفَ تَنْتَقِلُ الْقِيَادَةُ الرَّبَّانِيَّةُ مِنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ، لَا بِالْوَرَاثَةِ

بَلْ بِالِاسْتِحْقَاقِ وَالطَّاعَةِ... وَهُنَا نَصِلُ إِلَى قِمَّةِ السُّورَةِ...

وَأَرْجُو أَنْ تَتَأَمَّلُوا مَعِيَ هَذَا، لِأَنِّي أَرَاهُ مِنْ أَجْمَلِ مَا فِي الْبِنَاءِ كُلِّهِ... بَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ السُّورَةُ عَنْ:

الْإِنْسَانَ (آدَمَ)..... الْأُمَّةَ (بَنِي إِسْرَائِيلَ)..... الْإِمَامَ (إِبْرَاهِيمَ)..... الْقِبْلَةَ..... الْبِرَّ..... الْقَضَاءِ

الصِّيَامِ..... الْحَجَّ..... الْأُسْرَةَ..... الْجِهَادَ..... الْقِيَادَةَ.

تَأْتِي فَجَاءَةً!! أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. [البقرة: ٢٥٥].

السُّرُّ الثَّالِثُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

لِمَاذَا جَاءَتْ آيَةُ الْكَرْسِيِّ هُنَا؟

هَذَا السُّؤَالُ حَيَّرَنِي قَدِيمًا.

لِمَاذَا لَمْ تَكُنْ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ؟

أَوْ فِي آخِرِهَا؟

أَوْ فِي وَسْطِ آيَاتِ الْعَقِيدَةِ؟

بَلْ جَاءَتْ بَعْدَ... الْإِنْفَاقِ... وَالْقِتَالِ... وَالْأُسْرَةِ... وَالصِّيَامِ... وَالْحَجِّ.

وَقَبْلَ... الرِّبَا... وَالذُّيُونِ!!

فِي الظَّاهِرِ يَبْدُو الْمَوْضِعُ غَرِيبًا!! لَكِنْ عِنْدَمَا تَنْظُرُ إِلَى بِنَاءِ السُّورَةِ كُلِّهِ، تَجِدُهُ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ.

فَقَدْ كَانَتِ السُّورَةُ قَبْلَهَا تَبْنِي الْأُمَّةَ.

فَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْإِنْسَانُ: وَلِمَاذَا نَلْتَزِمُ بِكُلِّ هَذِهِ الْأَحْكَامِ؟

فَيَأْتِي الْجَوَابُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ:

لَيْسَ لِأَنَّ الْمُجْتَمَعَ يُرِيدُ... وَلَا لِأَنَّ الْحَاكِمَ يُرِيدُ... وَلَا لِأَنَّ النَّاسَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ.
بَلْ لِأَنَّهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أَيُّ إِنَّ مَصْدَرَ التَّشْرِيعِ كُلِّهِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَكَانَ السُّورَةُ تَرْتَقِي بِكَ مِنْ طَاعَةِ الْأَحْكَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ صَاحِبِ الْأَحْكَامِ.
وَهَذَا انْتِقَالٌ تَرْبَوِيٌّ عَظِيمٌ.

تَأْمَلُوا تَرْتِيبَ الصِّفَاتِ... قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. [البقرة: ٢٥٥]... بَدَأَ بِالتَّوْحِيدِ...

ثُمَّ: ﴿الْحَيُّ﴾... الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ...

ثُمَّ: ﴿الْقَيُّومُ﴾... الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ...

ثُمَّ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾... أَيُّ لَا يَغْفُلُ عَنْ خَلْقِهِ...

ثُمَّ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾... الْمُلْكُ...

ثُمَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾... السُّلْطَانُ...

ثُمَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾... الْعِلْمُ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ عِلْمٌ غَيْرُ مَحْدُودٍ...

ثُمَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾... عِلْمُ الْعِبَادِ مَحْدُودٌ...

ثُمَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾... عَظَمَةُ الْمُلْكِ.

ثُمَّ: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾... كَمَالُ الْقُدْرَةِ.

ثُمَّ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

خَتَامٌ يُّنَاسِبُ كُلَّ مَا سَبَقَ.

وَلَكِنْ مَا عَلاَقَةُ هَذَا بِالشُّورَةِ؟

هُنَا يَظْهَرُ الْبِنَاءُ الْعَجِيبُ!! طَوَالَ الشُّورَةِ كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لَنَا:

افْعَلْ... لَا تَفْعَلْ... أَنْفِقْ... صُمْ... قَاتِلْ... اغْفُ... أَوْفِ بِالْعَهْدِ.

ثُمَّ فِي مُنْتَصَفِ الشُّورَةِ تَقْرِيْبًا يَقُولُ لَنَا: هَلْ عَرَفْتُمْ مَنْ الَّذِي يَأْمُرُكُمْ؟

فَجَاءَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ...

وَلِهَذَا أَرَى - وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ - أَنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ آيَةٍ فِي التَّوْحِيدِ.

بَلْ هِيَ الْقَلْبُ الْعَقْدِيُّ لِسُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لِأَنَّهَا تَرْبِطُ التَّشْرِيعَ كُلَّهُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ لِمَاذَا جَاءَتْ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؟

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾. [البقرة: ٢٥٨].

ثُمَّ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾. [البقرة: ٢٥٩].

ثُمَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾. [البقرة: ٢٦٠].

هَذِهِ ثَلَاثُ قِصَصٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَلَيْسَتْ عَشَوَائِيَّةً.

الْقِصَّةُ الْأُولَى: مَلِكٌ مُتَكَبِّرٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: رَجُلٌ تَعَجَّبَ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطْلُبُ مَزِيدًا مِنَ الْيَقِينِ.

لَا حِطُّوا هَذَا التَّدْرِجَ:

إِنْكَارٌ... تَعَجُّبٌ... طَلَبٌ طَمَإْنِينَةٍ.

كُلُّهَا تَدُورُ حَوْلَ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أَيُّ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ الثَّلَاثَةَ كُلُّهَا تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِمَا قَرَأْتَهُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ فَجَاءَةً إِلَى الْإِنْفَاقِ... قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾. [البقرة: ٢٦١].

لِمَاذَا؟ هُنَا وَقْفَةٌ طَوِيلَةٌ.

بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ مَنْ هُوَ اللَّهُ... سَيَكُونُ السُّؤَالُ:

هَلْ تَثِيقُ بِهِ؟ إِنْ كُنْتَ تَثِيقُ بِهِ... فَأَنْفِقْ.

وَلِهَذَا جَاءَتْ أَمْثَلَةُ الْإِنْفَاقِ كُلُّهَا بَعْدَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

وَكَانَ السُّورَةُ تَقُولُ: الْعَقِيدَةُ لَيْسَتْ مَعْلُومَاتٍ... بَلْ يَجِبُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى سُلُوكٍ أَيْضًا.

تَأْمَلُوا هَذَا التَّرْتِيبَ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ: اللَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ... ثُمَّ: أَنْفِقُوا.

أَيُّ أَنْتُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تُعْطُونَ اللَّهَ شَيْئًا مِنْ مُلْكِكُمْ... بَلْ تُنْفِقُونَ مِنْ مَالٍ هُوَ مِلْكُهُ أَصْلًا.

وَهَذَا يُفَسِّرُ افْتِتَاحَ آيَاتِ الْإِنْفَاقِ بِهَذَا الْوَعْدِ الْعَظِيمِ: ﴿سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾. [البقرة: ٢٦١].

لِأَنَّ الْكَرِيمَ الَّذِي عَرَفْتُهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ هُوَ الَّذِي يُضَاعَفُ... ثُمَّ تَأْتِي أخطرُ قَضِيَّةٍ اقْتِصَادِيَّةٍ، وَهِيَ الرِّبَا.

لِمَاذَا وُضِعَتْ هُنَا؟ لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ وَالرِّبَا مُتَقَابِلَانِ.

الْمُنْفِقُ يَقُولُ: أَتَيْتُ بِاللَّهِ.

وَالْمُرَابِي يَقُولُ بِلِسَانِ حَالِهِ: لَا أَتَيْتُ إِلَّا بِالزِّيَادَةِ الْمَضْمُونَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيدُ الصَّدَقَاتِ﴾. [البقرة: ٢٧٦].

تَأْمَلِ اللَّفْظَ: ﴿يُزِيدُ﴾.

لَمْ يَقُلْ: يَزِيدُ... بَلْ: يُزِيدُ... كَانَ الصَّدَقَةُ تَنْمُو كَمَا يُزِيدُ اللَّهُ عِبَادَهُ.

وَهَذَا يَتَنَاسَبُ مَعَ أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فَالرَّبُّ يُزِيدُ الْإِنْسَانَ، وَيُزِيدُ الْإِيمَانَ، وَيُزِيدُ الصَّدَقَاتِ.

ثُمَّ لِمَاذَا خُتِمَتِ السُّورَةُ بِآيَةِ الدِّينِ؟

وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ مَا فِي الْقُرْآنِ... أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ... لَيْسَتْ عَنِ الصَّلَاةِ... وَلَا عَنِ الْعَقِيدَةِ.

بَلْ عَنْ تَوْثِيقِ الدِّيُونِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ...﴾. [البقرة: ٢٨٢].

قَدْ يَتَسَاءَلُ الْبَعْضُ: لِمَاذَا؟

وَفِي نَظْرِي أَنَّ الْجَوَابَ يَرْتَبِطُ بِنَاءِ السُّورَةِ... فَقَدْ بَنَتْ السُّورَةُ:

الْعَقِيدَةُ... الْعِبَادَةُ... الْأُسْرَةُ... الْمُجْتَمَعُ... الدَّوْلَةُ... الْاِقْتِصَادُ.

فَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ تُبَيِّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ أَدَقِّ تَفَاصِيلِ الْمَعَامَلَاتِ.

إِنَّ كِتَابَةَ الدِّينِ لَيْسَتْ مَسْأَلَةً إِدَارِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ جُزْءٌ مِنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ.

وَالآنَ... انْظُرُوا إِلَى الْخَاتِمَةِ... بَدَأَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ٢].

وَكَانَ أَوَّلَ وَصْفٍ لَهُمْ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. [البقرة: ٣].

وُخْتُِمَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِ الْمُؤْمِنِينَ:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. [البقرة: ٢٨٥].

هَلْ تَرَى الدَّائِرَةَ؟ افْتَتَحْتَ بِالْإِيمَانِ... وَخَتَمْتَ بِالْإِيمَانِ.

ثُمَّ قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. [البقرة: ٢٨٥].

وَتَذَكَّرِ الآنَ اسْمَ السُّورَةِ: الْبَقَرَةُ... فِي أَوَّلِهَا رَأَيْتَ قَوْمًا قَالُوا: مَا هِيَ؟ مَا لَوْنُهَا؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا... وَفِي آخِرِهَا رَأَيْتَ أُمَّةً كَامِلَةً تَقُولُ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾... وَهَذِهِ - فِي رَأْيِي - مِنْ بَدِيعِ الدَّوَائِرِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَالسُّورَةُ لَا تَحْكِي قِصَّةَ بَقَرَةٍ، بَلْ تَرْسُمُ انْتِقَالَ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ عَقْلِيَّةِ الْجَدَلِ وَالتَّلَكُّؤِ إِلَى عَقْلِيَّةِ التَّسْلِيمِ الْوَاعِي لِلَّهِ.

السُّرُّ الرَّابِعُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

لِمَاذَا بَدَأَتْ بِاجَابَةِ دُعَاءٍ وَانْتَهَتْ بِدُعَاءٍ؟ هَلْ تَذَكَّرْتُمْ أَوَّلَ مَا فِي الْمُصْحَفِ؟
الْفَاتِحَةُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. هَذَا طَلَبٌ، ثُمَّ جَاءَتْ الْبَقَرَةُ كُلُّهَا جَوَابًا لِهَذَا الطَّلَبِ... وَفِي نِهَايَةِ السُّورَةِ يَصِلُ الْمُؤْمِنُ إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ، فَيَقُولُ:
﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. [البقرة: ٢٨٥].

ثُمَّ يَبْدَأُ بِالدُّعَاءِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا...﴾. [البقرة: ٢٨٦].
لَا حِظُوا الْفَرْقَ... فِي الْفَاتِحَةِ كَانَ الْإِنْسَانُ يَطْلُبُ الْهُدَى لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ بَعْدُ.
أَمَّا فِي آخِرِ الْبَقَرَةِ فَقَدْ عَرَفَ الطَّرِيقَ، وَحَمَلَ التَّكْلِيفَ، وَأَصْبَحَ هَمُّهُ:
الْتِّبَاطُ، وَالْمَغْفِرَةُ، وَالرَّحْمَةُ، وَالنَّصْرُ... إِذَنْ الدُّعَاءُ نَفْسُهُ تَطْوَرُ.

تَأْمَلُوا الْبِنَاءَ:

الْفَاتِحَةُ: ﴿اهْدِنَا﴾.

الْبَقَرَةُ: هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ.

ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ: يَا رَبِّ أَعِنَّا عَلَى السَّيْرِ فِيهِ... وَهَذَا مِنْ أَوَّلِ الْبِنَاءِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
لِمَاذَا قَالَ: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؟

هَذِهِ لَيْسَتْ جُمْلَةً مُنْفَصِلَةً، بَلْ هِيَ الْجَوَابُ عَلَى كُلِّ التَّشْرِيعَاتِ السَّابِقَةِ.

فَبَعْدَ الْقِصَاصِ... وَالصِّيَامِ... وَالْحَجِّ... وَالْجِهَادِ... وَالْإِنْفَاقِ... وَالطَّلَاقِ... وَالذُّيُونِ...

قَدْ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِثِقَلِ الْمَسْئُولِيَّةِ، فَيَأْتِي هَذَا التَّطْمِينُ:

﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. [البقرة: ٢٨٦].

وَكَأَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَلَا يَقُولُ: كُلُّ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ دَاخِلٌ فِي قُدْرَتِكُمْ.

ثُمَّ لَا حِظُوا شَيْئًا رَائِعًا: بَدَأَتْ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. [البقرة: ٢].

وَأَنْتَهَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾. [البقرة: ٢٨٥].
 فِي الْبِدَايَةِ أَعْلَنَ اللَّهُ حَقِيقَةَ الْكِتَابِ.
 وَفِي الْتَّهَيَّةِ أَعْلَنَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَوْقِفَهُمْ مِنْهُ ... فَالْطَّرْفَانِ اكْتَمَلَ لِقَاؤُهُمَا.

السِّرُّ الْخَامِسُ:

لِمَاذَا ذُكِرَتْ نَمَازِجُ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي الْبَقَرَةِ؟
 آدَمُ ... إِبْلِيسُ ... الْمَلَائِكَةُ ... بَنُو إِسْرَائِيلَ ... مُوسَى ... إِبْرَاهِيمُ ... إِسْمَاعِيلُ ... طَالُوثٌ ... جَالُوثٌ.
 دَاوُودُ ... لِمَاذَا؟
 كَانَ يُظَنُّ أَنَّهَا قِصَصٌ مُتَفَرِّقَةٌ!! أَمَّا الْآنَ فَتَتَبَيَّنُ أَنَّهَا تُمَثِّلُ مَرَاحِلَ الْإِسْتِخْلَافِ:
 آدَمُ: بَدَايَةُ الْإِسْتِخْلَافِ.
 بَنُو إِسْرَائِيلَ: أُمَّةٌ فَشَلَتْ فِي الْإِسْتِخْلَافِ.
 إِبْرَاهِيمُ: النَّمُودَجُ الَّذِي اسْتَحَقَّ الْإِمَامَةَ.
 طَالُوثُ: اخْتِبَارُ الْقِيَادَةِ.
 دَاوُودُ: نَجَاحُ الْقِيَادَةِ.

ثُمَّ يَأْتِي مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَمَّتُهُ لِيَتَسَلَّمُوا هَذِهِ الْأَمَانَةَ.
 إِذَنْ السُّورَةُ كُلُّهَا تَتَحَرَّكُ حَوْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. [البقرة: ٣٠].

السِّرُّ السَّادِسُ:

لِمَاذَا تَتَكَرَّرُ كَلِمَةُ "الْعَهْدِ"؟
 مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾. [البقرة: ٤٠].
 وَمَعَ إِبْرَاهِيمَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. [البقرة: ١٢٤].
 وَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

إِذَنْ الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَشْرِيعَاتٍ ... بَلْ هِيَ عَهْدٌ بَيْنَ اللَّهِ وَعِبَادِهِ ... مَنْ أَوْفَى بِهِ اسْتَحَقَّ
 الْإِمَامَةَ ... وَمَنْ نَقَضَهُ فَقَدْهَا.

السِّرُّ السَّابِعُ:

لِمَاذَا تَتَكَرَّرُ مَادَّةُ "الْعِلْمِ"؟
 ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾.

ثُمَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾..
ثُمَّ: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾..
ثُمَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾..
ثُمَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. [البقرة: ٢٨٢].

لَا حِطَّ... بَدَأَتِ السُّورَةُ بِالْعِلْمِ، وَانْتَهَتْ بِالْعِلْمِ... لِأَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي سَتَحْمِلُ الْقُرْآنَ يَجِبُ أَنْ تَقُومَ عَلَى الْعِلْمِ... لَا عَلَى الْعَصْبِيَّةِ... وَلَا عَلَى النَّسَبِ... وَلَا عَلَى الْقُوَّةِ.

خُلَاصَةُ السُّورَةِ... الْفَاتِحَةُ: ﴿اهْدِنَا﴾..
الْبَقَرَةُ: ﴿هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ﴾..
ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ: يَا رَبِّ أَعِنَّا عَلَى السَّيْرِ فِيهِ.

خَاتِمَةُ التَّأْمُلِ:

الْفَاتِحَةُ انْتَهَتْ بِثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾... ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾... ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾... وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ شَرَحَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافَ عَمَلِيًّا:
فَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ فِي نَمَازِجِ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالُوا:
﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾... وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُ طَرَفٌ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَكِثْمَانَ الْحَقِّ وَنَقْضِ الْعَهْدِ، مَعَ بَقَاءِ الْوَصْفِ عَامًّا لَا يَخْتَصُّ بِقَوْمٍ مُعَيَّنٍ.
الضَّالُّونَ: يُمَثِّلُهُمْ كُلُّ مَنْ انْحَرَفَ عَنِ الْهُدَى، وَاتَّبَعَ الْهَوَى أَوْ الْجَهْلَ، وَالْوَصْفُ أَيْضًا عَامٌّ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ تَحَقَّقَ فِيهِ مَعْنَاهُ... وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ جَوَابٍ عَنْ:
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الْفَاتِحَةُ: ٦].

بَلْ هِيَ أَيْضًا شَرْحٌ عَمَلِيٌّ لِأَنْوَاعِ النَّاسِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي خُتِمَتْ بِهَا الْفَاتِحَةُ.
إِنَّ، سُورَةَ الْبَقَرَةِ هِيَ سُورَةُ "الِاسْتِخْلَافِ بِالْعَهْدِ".
فَالْإِنْسَانُ خُلِقَ لِيَكُونَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْإِسْتِخْلَافَ لَا يَنَالُ بِالنَّسَبِ، وَلَا بِالْقُوَّةِ، وَلَا بِالثَّمَنِيِّ، وَإِنَّمَا بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
وَلِذَلِكَ بَدَأَتِ السُّورَةُ بِإِعْلَانِ الْإِسْتِخْلَافِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. [البقرة: ٣٠].
وَانْتَهَتْ بِإِعْلَانِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. [البقرة: ٢٨٥].

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ



إِنَّ اخْتِيَارَ عَائِلَةِ آلِ عِمْرَانَ لَمْ يَكُنْ اخْتِيَارًا تَارِيخِيًّا، بَلْ اخْتِيَارًا مَقْصُودًا يَخْدُمُ قَضِيَّةَ الشُّورَةِ كُلِّهَا، قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣٣-٣٤].

لِمَاذَا آلُ عِمْرَانَ؟ لِأَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى كَانَ يَعْتَقِدُ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اغْتِقَادًا بَاطِلًا، فَجَاءَ الْقُرْآنُ يُنَاقِشُهُمْ مِنْ دَاخِلِ التَّارِيخِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ، لَا مِنْ خَارِجِهِ. فَاخْتَارَ الْأُسْرَةَ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا: مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ... وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ عَرَضَ حَيَاتُهَا مِنَ الْبِدَايَةِ:

امْرَأَةُ عِمْرَانَ تَنْذُرُ جَنِينَهَا لِلَّهِ... ثُمَّ وَلَادَةُ مَرْيَمَ... ثُمَّ كَفَالَةُ زَكَرِيَّا لَهَا... وَعِبَادَتُهَا وَظَهَارَتُهَا. وَبِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ... ثُمَّ مِيلَادُ عِيسَى.

وَكَانَ الْقُرْآنُ يَقُولُ لِلنَّصَارَى: «أَنْتُمْ تَعْرِفُونَ آخِرَ الْقِصَّةِ، أَمَّا الْقُرْآنُ فَيُعِيدُكُمْ إِلَى أَوَّلِهَا.» فَإِذَا عَرَفْتُمْ الْأَصْلَ، زَالَ الْغُلُوفُ.

وَلِهَذَا لَمْ يَبْدَأْ بِعِيسَى، بَلْ بَدَأَ بِأُمِّهِ، ثُمَّ بِجَدَّتِهِ، ثُمَّ بِبَيْتِهَا؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ عِيسَى نَشَأَ فِي بَيْتِ اصْطِفَاةِ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، لَا أَنَّهُ إِلَهٌ أَوْ ابْنُ إِلَهٍ.

ثُمَّ جَاءَتِ الْآيَةُ الْفَاصِلَةُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٥٩].

فَالرِّسَالَةُ إِلَى النَّصَارَى هِيَ: إِذَا كُنْتُمْ تُعْظَمُونَ عِيسَى لِأَنَّهُ وَلَدَ مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَأَدِّمُوا أَوْلَى بِذَلِكَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَهًا.

وَهُنَاكَ رِسَالَةٌ أَعَمُّ أَيْضًا: لَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ أُسْرَةَ كَامِلَةً، لَا فَرْدًا وَاحِدًا؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ يُبْنَى فِي الْبُيُوتِ، وَأَنَّ صَلَاحَ الْأَبْنَاءِ يَبْدَأُ مِنْ صَلَاحِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ.

لِذَلِكَ بَدَأَتِ الْقِصَّةُ بِدُعَاءِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ قَبْلَ وَلَادَةِ مَرْيَمَ، وَانْتَهَتْ بِرِسَالَةِ عِيسَى إِلَى النَّاسِ، وَكَانَ الشُّورَةُ تَقُولُ: «الرِّسَالَاتُ الْعَظِيمَةُ تَبْدَأُ مِنْ بَيْتِ مُؤْمِنٍ، وَالتَّوْحِيدُ الصَّحِيحُ يُورَثُ بِالتَّزْيِينَةِ قَبْلَ أَنْ يُعْلَمَ بِالْجِدَالِ.»

الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَدَمُ الْإِنْجِرَافِ عَنْهُ أَمَامَ الشُّبُهَاتِ، أَوْ الشَّهَوَاتِ، أَوْ الشَّدَائِدِ، انْظُرُوا إِلَى أَوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا:

أَوَّلُهَا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ٢].

آخِرُهَا: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ٢٠٠].

لَا حِظَّ... بَدَأَتْ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَانْتَهَتْ بِتَكْلِيفِ الْإِنْسَانِ. كَمَا فِي الْفَاتِحَةِ تَمَامًا؛ فَكَلَّمَا عَرَفْتَ اللَّهَ أَكْثَرَ ثَبَّتَ قَلْبُكَ أَكْثَرَ.

السِّرُّ الْأَوَّلُ: لِهَاذَا بَدَأَتْ السُّورَةُ بِذِكْرِ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ... وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ٧].

لَيْسَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ تَقْسِيمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، بَلْ هُنَاكَ وَظِيفَةٌ أَعَمُّ:

فَالسُّورَةُ سَتَتَنَاوَلُ: أُلُوهِيَّةَ الْمَسِيحِ، وَالْبُنُوَّةَ، وَالْمُعْجَزَاتِ... وَهَذِهِ قَضَايَا يَقَعُ فِيهَا اللَّبْسُ.

فَقَالَتْ مِنْذُ الْبِدَايَةِ: ارْجِعُوا إِلَى الْمُحْكَمِ، وَلَا تَجْعَلُوا الْمُتَشَابِهَ يَقُودُكُمْ.

ثُمَّ يَأْتِي الدُّعَاءُ مُبَاشَرَةً: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ٨].

فَبَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الرَّيْبِ، يَأْتِي طَلَبُ حِفْظِ الْقَلْبِ.

وَهُنَا يَتَرَابِطُ الْعِلْمُ بِالْهَدْيِ؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عَلِمَ ثَبَّتَ، بَلِ الثَّبَاتُ نِعْمَةٌ تُسْأَلُ مِنَ اللَّهِ.

السِّرُّ الثَّانِي: لِهَاذَا بَدَأَتْ السُّورَةُ بِالِاضْطِفَاءِ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ٣٣].

تَأَمَّلُوا التَّرْتِيبَ:

آدَمُ، نُوحٌ، آلُ إِبْرَاهِيمَ، آلُ عِمْرَانَ.

لَيْسَ سَرْدًا تَارِيخِيًّا فَقَطْ، بَلْ سِلْسِلَةٌ حِفْظِ الْوَحْيِ:

آدَمُ: بَدَايَةُ الْبَشَرِيَّةِ.

نُوحٌ: بَدَايَةُ جَدِيدَةٍ لِلْبَشَرِ بَعْدَ الطُّوفَانِ.

إِبْرَاهِيمُ: أَبُو الْأَنْبِيَاءِ.

آلُ عِمْرَانَ: مَرَحَلَةٌ سَابِقَةٌ لِعِيسَى وَيَحْيَى.

السُّرُّ الثَّالِثُ: لِمَاذَا أُطِيلَ الْكَلَامُ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ هُنَا؟ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ الْمَقْصِدُ رَحْمَةُ اللَّهِ وَاضْطِطْقَاؤُهُ... أَمَّا هُنَا فَالْمَقْصِدُ مُخْتَلِفٌ: هُنَا الْحِجَاجُ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ... لِذَلِكَ تَتَدَرَّجُ الْآيَاتُ: إِنْخِبَارُ مَرْيَمَ بِالِاضْطِطْقَاءِ، ثُمَّ الْبِشَارَةُ، ثُمَّ «كُنْ فَيَكُونُ».

السُّرُّ الرَّابِعُ: لِمَاذَا قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ» [آلِ عِمْرَانَ: ٥٩]. هُنَا حُجَّةٌ مُكْتَفَتْةٌ: إِذَا كَانَ خَلْقُ عِيسَى بِغَيْرِ أَبِي مُسْتَنْكَرًا!!! فَآدَمُ خُلِقَ بِغَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ!! فَأَيُّهُمَا أُعْجِبُ؟ لَا حِطُّ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: «آدَمُ أَكْبَرُ»... بَلْ قَالَ: «كَمَثَلِ آدَمَ». أَيُّ أَنَّ الْقَاعِدَةَ وَاحِدَةٌ: «خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [آلِ عِمْرَانَ: 59].

السُّرُّ الْخَامِسُ: وَهُنَا بَدَأَتْ أَرَى جَمَالًا عَجِيبًا... السُّورَةُ كُلُّهَا قَائِمَةٌ عَلَى أَسْرَارٍ مُتَتَابِعَةٍ. أَسْرَةُ عِمْرَانَ... أَسْرَةُ زَكَرِيَّا... أَسْرَةُ مَرْيَمَ... ثُمَّ تَنْتَقِلُ فَجَاءَتْ إِلَى... أُمَّةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ. لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: كَمَا أَنَّ الْأُسْرَةَ الصَّالِحَةَ تُنْجِبُ صَالِحِينَ... فَإِنَّ الْأُمَّةَ الصَّالِحَةَ تُبْنِي مِنْ أَسْرِ صَالِحَةٍ... وَهَذَا يُكْمِلُ تَشْرِيعَاتِ الْأُسْرَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

لِمَاذَا جَاءَتْ آلُ عِمْرَانَ بَعْدَ الْبَقَرَةِ مُبَاشَرَةً؟

لَوْ سَأَلْتُكَ: مَا الَّذِي فَعَلْتَهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟ سَتَقُولُ: لَقَدْ بَنَتْ الْأُمَّةَ. وَأَقُولُ: نَعَمْ... وَلَكِنْ بَعْدَ بِنَاءِ الْأُمَّةِ يَأْتِي سُؤَالٌ أَخْطَرُ: هَلْ سَتَثْبُثُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عِنْدَمَا تَبْدَأُ الْفِتْنُ؟ وَهُنَا تَبْدَأُ آلُ عِمْرَانَ!! إِنْ، يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: الْبَقَرَةُ: بِنَاءُ الْأُمَّةِ... آلُ عِمْرَانَ: اخْتِبَارُ الْأُمَّةِ.

انْظُرْ إِلَى الْخَاتِمَتَيْنِ:

تَنْتَهِي الْبَقَرَةُ بِقَوْلِ الْمُؤْمِنِينَ: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» [الْبَقَرَةُ: 285]

ثُمَّ بِالْدَّعَاءِ: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا...» [الْبَقَرَةُ: 286]

بَعْدَ أَنْ تَعَلَّمُوا الْمَنْهَجَ كُلَّهُ.

فَتَبْدَأُ آلُ عِمْرَانَ مُبَاشَرَةً: «الْم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» [آلِ عِمْرَانَ: 1-2]

قِفْ هُنَا... أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ بَدَايَةُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؟

فِي الْبَقَرَةِ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» [الْبَقَرَةُ: 255]

وَفِي آلِ عِمْرَانَ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» [آلِ عِمْرَانَ: 2]

هَذَا التَّكَرَّارُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ لَيْسَ عَابِرًا.

كَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَّبِعَ فِي الْإِمْتِحَانِ... فَلَا تَتَّسِ الْأَسَاسَ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

السُّؤَالُ الثَّانِي: لِمَاذَا بَدَأَتْ آلُ عِمْرَانَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ؟

قَالَ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 3]

ثُمَّ: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 3]

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْبَقْرَةَ كَانَتْ تُنَاقِشُ بَنِي إِسْرَائِيلَ غَالِبًا... أَمَّا آلُ عِمْرَانَ فَسَبَدُوا الْحَوَارَ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِصُورَةٍ أَوْسَعٍ، وَخَاصَّةً النَّصَارَى، وَلِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرْسِيخِ قَاعِدَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا، وَهِيَ: أَنَّ مَصْدَرَ الْكُتُبِ جَمِيعُهَا وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَ وَمُهِيمٌ عَلَيْهِ.

ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 7] وَفِيهَا: ﴿فِيهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ... وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

لِمَاذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْبِدَايَةِ؟ فِي رَأْيِي، لِأَنَّهَا تَضَعُ قَاعِدَةَ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَحْيِ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي النِّقَاشَاتِ الْعَقْدِيَّةِ، فَالْإِنْجِرَافُ كَثِيرًا مَا يَبْدَأُ عِنْدَمَا يُتْرَكُ الْمُحْكَمُ، وَيُتَعَلَّقُ بِالْمُتَشَابِهِ.

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾.

لَا حِطُّوا... لَمْ يَقُلْ: فِي عُقُولِهِمْ... بَلْ: فِي قُلُوبِهِمْ.

فَالْحَلُّ يَبْدَأُ مِنَ الْقَلْبِ... ثُمَّ يُؤَوِّزُ فِي طَرِيقَةِ قِرَاءَةِ النَّصِّ.

وَهَذَا يَنْسَجِمُ مَعَ سُورَةِ الْبَقْرَةِ، الَّتِي كَشَفَتْ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ: الْكِبَرُ، وَالْحَسَدُ، وَنَقْضُ الْعَهْدِ.

تَأَمَّلْ هَذَا السَّلْسُلَ: رَوْجَةُ عِمْرَانَ تَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 35] أَيْ أَنَّ التَّرْبِيَّةَ بَدَأَتْ قَبْلَ الْوِلَادَةِ.

ثُمَّ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 37]

ثُمَّ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 37].

ثُمَّ: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 37].

لَا حِطُّوا... السُّورَةُ تُبْنِي الْإِنْسَانَ مِنْذُ طِفُولَتِهِ... ثُمَّ يَأْتِي يَحْيَى، ثُمَّ عِيسَى... وَهُنَا تَبْدَأُ

الْمُوَاجَهَةُ مَعَ النَّصَارَى، لَكِنْ بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ.

الْقُرْآنُ لَا يَبْدَأُ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، بَلْ يَبْدَأُ بِعَرَضِ الْحَقِيقَةِ كَامِلَةٍ، ثُمَّ يَدْعُوهُمْ لِلْحَوَارِ، ثُمَّ يُقِيمُ

الْحُجَّةَ... وَهَذَا مِنْهُجٌ قُرْآنِيٌّ رَفِيعٌ فِي الْحَوَارِ.

ثُمَّ تَأْتِي هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 59]

هَلْ تَذْكُرُ أَيْنَ بَدَأَتِ الْبَقَرَةُ؟... بِآدَمَ.

وَالآنَ يَعُودُ الْقُرْآنُ إِلَى آدَمَ مَرَّةً أُخْرَى... لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ لِلرَّدِّ عَلَى قَضِيَّةِ عِيسَى.

أَيُّ أَنَّ الْقُرْآنَ يَسْتَخْدِمُ مَا قَرَّرَهُ فِي الْبَقَرَةِ لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ فِي آلِ عِمْرَانَ، وَهَذَا مِنَ التَّرَابُطِ الْعَجِيبِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ.

ثُمَّ تَأْتِي الْمُبَاهَلَةُ: بَعْدَ أَنْ أَقَامَ الْحُجَّةَ!! وَلَا حِظَّ أَنَّهُ لَمْ يَبْدَأْ بِالْمُبَاهَلَةِ، بَلْ جَاءَتْ فِي النَّهَايَةِ، بَعْدَ الْبَيَانِ.

وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ قُرْآنِيَّةٌ: الْحُجَّةُ قَبْلَ الْمُقَاصَلَةِ.

ثُمَّ... يَحْدُثُ انْتِقَالٌ مُفَاجِئٌ!! بَعْدَ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ، تَنْتَقِلُ السُّورَةُ فَجَاءَتْ إِلَى غُرُورٍ أَحَدٍ... وَهُنَا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، انْتَبَهْتُ إِلَى سِرٍّ عَظِيمٍ.

قَدْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّ السُّورَةَ انْقَسَمَتْ إِلَى نِصْفَيْنِ:

نِصْفٌ عَنِ النَّصَارَى، وَنِصْفٌ عَنِ أَحَدٍ!! لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ... أَنَّهَا قَضِيَّةٌ وَاحِدَةٌ:

أَهْلُ الْكِتَابِ فَشَلُّوا فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْوَحْيِ، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي أَحَدٍ تَعَرَّضُوا لِاخْتِبَارِ الثَّبَاتِ عَلَى أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ.

إِنَّ، مَحْوَرُ السُّورَةِ بَقِيَّ وَاحِدًا: الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ عِنْدَ الْإِمْتِحَانِ.

وَلِهَذَا أَرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

[آلِ عِمْرَانَ: 200] لَيْسَ مُجَرَّدَ خِتَامٍ جَمِيلٍ... بَلْ هُوَ مَلَخُصُ السُّورَةِ كُلِّهَا.

فَبَعْدَ أَنْ بُنِيَتِ الْأُمَّةُ فِي الْبَقَرَةِ، جَاءَتْ آلُ عِمْرَانَ لَتَقُولَ لَهَا:

لَنْ يَكْفِيَ أَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَصْبِرُوا عَلَيْهِ، وَتَصَابِرُوا أَعْدَاءَهُ، وَتَرَابِطُوا، وَتَتَّبِعُوا حَتَّى النَّهَايَةِ.

ثُمَّ نَصِلُ إِلَى أَحَدٍ... وَقَبْلَ الْحَدِيثِ عَنْ أَحَدٍ:

إِذَا كَانَتِ الْبَقَرَةُ تُعَلِّمُ الْأُمَّةَ كَيْفَ تُبْنَى، فَإِنَّ آلَ عِمْرَانَ تُعَلِّمُهَا كَيْفَ لَا تَنْهَارَ عِنْدَمَا تَتَعَثَّرُ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ تَحْلِيلَ الْقُرْآنِ لِعُرْوَةِ أَحَدٍ لَيْسَ تَارِيخًا عَسْكَرِيًّا، بَلْ هُوَ مَدْرَسَةٌ فِي تَزْيِينِ الْقُلُوبِ،

وَسَنْعُوضٍ فِيهَا آيَةٌ آيَةً، لِنَرَى كَيْفَ يُحَوَّلُ الْقُرْآنُ الْهَزِيمَةَ إِلَى بِنَاءٍ إِيْمَانِيٍّ، وَكَيْفَ رَبَطَهَا بِمَا

سَبَقَ فِي السُّورَةِ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الثَّبَاتِ، وَالْإِصْطِقَاءِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْمُحْكَمِ، حَتَّى تَتَكَشَّفَ لَنَا

وَحْدَةُ السُّورَةِ كُلِّهَا.

لَمَّاذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؟ هُنَا أَوَّلُ مِفْتَاحٍ مُهِمٍّ:
قَبْلَ أَحَدٍ، كَانَتِ السُّورَةُ تُنَاقِشُ: النَّصَارَى (وَقَدْ نَجَرَانِ)، فِي مَعْنَى التَّوْحِيدِ، وَقَضِيَّةِ الثَّبَاتِ
عَلَى الْمُحَكِّمِ. وَخَطَرَ الزَّيْغِ الْقَلْبِيِّ.

ثُمَّ فَجَاءَتْ: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 121].
لَمَّاذَا هَذَا الْإِنْتِقَالُ؟ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ لَكَ شَيْئًا غَمِيقًا جِدًّا:
الْمَعْرَكَةُ لَيْسَتْ فَقَطْ مَعَ الْخَارِجِ (أَهْلِ الْكِتَابِ) ... بَلْ مَعَ الدَّاخِلِ (نَفْسِ الْمُؤْمِنِ).

أَوَّلُ اخْتِبَارٍ فِي أَحَدٍ: اخْتِبَارُ الطَّاعَةِ:
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 122].
تأملِ التَّعْبِيرَ: «مِنْكُمْ» ... لَيْسُوا أَعْدَاءً، بَلْ هُمْ جُزْءٌ مِنَ الْأُمَّةِ.

إِذَنْ، الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ صَعْفَ إِيْمَانٍ فَقَطْ، بَلْ اهْتِزَازُ الثَّبَاتِ تَحْتَ الضُّغْطِ.
لَمَّاذَا بَدَأَ الْإِنْكِسَارُ فِي أَحَدٍ؟ الْقُرْآنُ لَا يَشْرَحُ الْحَرْبَ ... بَلْ يَشْرَحُ النَّفْسَ.
أَضَلُّ الْمَشْكِلَةِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 123].
ثُمَّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 125].
هُنَا يَظْهَرُ التَّحَوُّلُ النَّفْسِيُّ: مِنَ الثِّقَةِ بِالنَّصْرِ الْإِلَهِيِّ إِلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْأَسْبَابِ (الْعَدَدِ
وَالسَّلَاحِ).

وَهُنَا تَأْتِي قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ فِي السُّورَةِ: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 125].
هَذِهِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ شَرْطٍ لِلنَّصْرِ، بَلْ «قَانُونُ السُّورَةِ كُلِّهِ»:
الصَّبْرُ يُؤَدِّي إِلَى ثَبَاتٍ دَاخِلِيٍّ، وَالتَّقْوَى تُؤَدِّي إِلَى اتِّصَالٍ بِاللَّهِ، وَبِدُونِهِمَا: لَا مَعْنَى لِلْأَسْبَابِ.
ثُمَّ تَأْتِي لَحْظَةُ الْإِنْكِسَارِ: ﴿وَإِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَلُوءُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 153].

هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ لِلْإِدَانَةِ!! بَلْ لِتَصْوِيرِ الْحَقِيقَةِ النَّفْسِيَّةِ!!
لَكِنْ هُنَا الْمَفَاجَأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ: بَدَلًا مِنْ أَنْ يُطِيلَ فِي اللَّوْمِ ...
قَالَ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 154]

قِفْ هُنَا!! لَمَّاذَا "النَّوْمُ"!!

لِأَنَّ الْقُرْآنَ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ: حَتَّى بَعْدَ الْهَزِيمَةِ ... اللَّهُ لَمْ يَتْرَكْكُمْ!! النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ لَا تُتْرَكُ فِي
الصَّدْمَةِ، بَلْ تُغَطَّى بِالرَّحْمَةِ.

ثم تأتي الجملة المركزية في أحد: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾. [آل عمران: 152]
هذه أخطر من النصر نفسه.

لأنها تقول: الخطأ وقع!! لكن العلاقة لم تنقطع... وهذا يعيد بناء الأمة من الداخل.

الآن نصل إلى قلب معركة أحد الحقيقي!! لماذا انهزموا؟
ليس لأنهم تركوا الدين! بل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. [آل عمران: 152]
إذن السبب:

فشل داخلي... نزاع... تردد... وليس نقص إيمان.

وهنا يخرج القانون الذهبي في آل عمران:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾. [آل عمران: 160]

هذا ليس وعدًا فقط، بل "تثبيت نفسي بعد الهزيمة".

كأن القرآن يقول: لا تجعلوا الحدث يهز العقيدة.

ثم تأتي الآية التي تربط أحدًا بكل السورة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾. [آل عمران: 159]
هذه الآية تكشف سر القيادة في الإسلام:

ليست القسوة... ليست كسر النفوس... بل الرحمة هي التي تحفظ الجماعة... ثم ينتقل القرآن

إلى تغيير نفسي عميق: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا﴾. [آل عمران: 139]

لماذا؟ لأن الأمة بعد أحد تمر بثلاثة مشاعر:

ضعف... حزن... شك... فالقرآن يعالجها مباشرة.

الآن نربط أحدًا ببداية السورة: تذكرون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾. [آل عمران: 8]؟

الآن نفهم لماذا قيلت في البداية.

لأن معركة أحد كشفت أن: القلب يمكن أن يزيغ تحت الضغط.

وهنا يظهر السر الأعظم في آل عمران كله: السورة ليست عن المعركة!!

بل عن: كيف يحافظ القلب على ثباته بعد المعرفة؟

ولهذا بدأت السورة بـ: التوحيد... المحكم والمتشابه... الاصطفاء.

وانتهت بـ: الصبر... الرباط... التقوى.

الخاتمة التي تلخص أحدًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

[آل عمران: 139]

هذه ليست جملة عزاء فقط!! بل إعادة تعريف للانتصار.

الانتصار ليس نتيجة المعركة!! بل نتيجة الإيمان.

إذن، أحمّد ليست قصة هزيمة، بل هي:

كشف آلية انهيار الجماعة المؤمنة عندما يختلط الثبات بالاعتماد على الأسباب بدل التوكل

على الله سبحانه وتعالى... وفي نفس الوقت:

إعادة بناء هذه الجماعة يكون بالرحمة لا بالعقوبة.

ما الرابط بين: أهل الكتاب، معركة أحد، الصبر، الإنفاق؟

لو نَظَرْنَا سَرِيعًا قَدْ تَبَدُّو لَنَا أَرْبَعَةُ مَلَقَاتٍ:

جِدَالٌ عَقَائِدِيٌّ (أَهْلُ الْكِتَابِ)

هَزِيمَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ (أُحُد)

تَرْبِيَةٌ نَفْسِيَّةٌ (الصَّبْر)

سُلُوكٌ مَالِيٌّ (الْإِنْفَاقُ وَالزَّهَادُ)

لَكِنَّ السُّورَةَ تَرَى شَيْئًا وَاحِدًا فَقَطْ:

كَيْفَ تَبْقَى الْأُمَّةُ ثَابِتَةً عِنْدَمَا تَتَعَرَّضُ لِلْفِتْنَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالصَّدْمَةِ الْوَاقِعِيَّةِ؟

أَوَّلًا: فِتْنَةُ «الْعَقِيدَةِ» (أَهْلُ الْكِتَابِ): «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ... مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» [آل

عِمْرَانَ: 7]..... هُنَا الْمَشْكَلَةُ:

تَحْرِيفُ الْفَهْمِ... تَتَّبِعُ الْمُتَشَابِهَ... بِنَاءُ عَقَائِدَ عَلَى غَيْرِ الْمُحْكَمَاتِ!! هَذِهِ فِتْنَةُ «فِكْرِيَّةٌ».

ثَانِيًا: فِتْنَةُ «الْحَدَثِ» (أُحُد): «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» [آل عِمْرَانَ: 122]

هُنَا الْمَشْكَلَةُ مُخْتَلِفَةٌ: لَيْسَ انْجِرَافٌ عَقِيدَةً!! بَلْ: انْهِيَارُ ثَبَاتٍ لَحْظِيٍّ!!

صَغَطُ نَفْسِيٍّ!! اضْطِرَابٌ قَرَارٍ!! هَذِهِ فِتْنَةُ «وَاقِعِيَّةٌ».

إذن، السُّورَةُ تُعَالِجُ نَوْعَيْنِ مِنَ الْإِنْهِيَارِ:

1- انْهِيَارُ الْفَهْمِ (عَقَائِدِيٌّ).

2- انْهِيَارُ الثَّبَاتِ (نَفْسِيٍّ / عَمَلِيٍّ).

ثَالِثًا: أَيْنَ الْعِلَاجُ؟ السُّورَةُ تُعْطِي عِلَاجًا مُزْدَوِجًا:

العلاج الأول: تَثْبِيثُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 2]
هَذَا لَيْسَ افْتِتَاحًا فَقَطْ... بَلْ «مَرْجِعًا لِلِاسْتِقْرَارِ» عِنْدَ كُلِّ اضْطِرَابٍ.

العلاج الثاني: تَثْبِيثُ الْقَلْبِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 8]
لِأَنَّ الْمَشْكِلَةَ لَيْسَتْ فِي الْمَعْلُومَاتِ... بَلْ فِي الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَهْتَزُّ.

الآن نَدْخُلُ إِلَى نُقْطَةٍ حَاسِمَةٍ جِدًّا: لِمَاذَا جَاءَتْ آيَاتُ الْإِنْفَاقِ وَالرَّبَا فِي آلِ عِمْرَانَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ
أُحُدٍ مُبَاشَرَةٍ تَقْرِيبيًّا؟

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 134]
ثُمَّ: ﴿وَيَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 130]

لِمَاذَا هَذَا التَّحَوُّلُ؟

الرَّبْطُ الْعَمِيقُ بَيْنَ «أُحُدٍ» وَ«الْمَالِ»:

مَعْرَكَةُ أُحُدٍ كَشَفَتْ شَيْئًا خَطِيرًا، وَهُوَ:

أَنَّ الْجَمَاعَةَ الْمُؤْمِنَةَ قَدْ تَضَعُفُ عِنْدَمَا يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِ«الْمَكَاسِبِ الْأَرْضِيَّةِ».

لِمَاذَا يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِالْمَكَاسِبِ الْأَرْضِيَّةِ؟ بِسَبَبِ الْحَاجَةِ!!

وَلِهَذَا جَاءَ الْعِلَاجُ مُبَاشَرَةً:

الْإِنْفَاقُ: يُؤَدِّي إِلَى تَحْرِيرِ الْقَلْبِ.

الرَّبَا: غُبُودِيَّةٌ لِلْمَالِ.

إِنَّ، الْمَالُ هُوَ اخْتِبَارُ الثَّبَاتِ بَعْدَ الصَّدْمَةِ!!

لِمَاذَا تَتَكَرَّرُ كَلِمَةُ «الصَّبْرِ» وَ«التَّقْوَى»؟ ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِكْكُمْ كَيْدُهُمْ﴾.

[آلِ عِمْرَانَ: 120]

الصَّبْرُ هُنَا لَيْسَ صَبْرًا نَفْسِيًّا فَقَطْ... بَلْ: قُدْرَةٌ عَلَى الْبَقَاءِ دَاخِلَ الْحَقِّ رَغْمَ الضَّغْطِ الْخَارِجِيِّ
وَالدَّاخِلِيِّ.

الآن نَرْبِطُ الْبِدَايَةَ بِالنِّهَايَةِ:

بِدَايَةُ السُّورَةِ:...اللَّهُ سُبْحَانَهُ، الدَّلِيلُ الْمُحْكَمُ، الْإِصْطِفَاءُ.

مُنْتَصَفُهَا: أَهْلُ الْكِتَابِ، أُحَدٌ، الْإِنْفَاقُ.

نِهَايَتُهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾. [آلِ عِمْرَانَ: 200]

مَاذَا يَعْنِي هَذَا؟ يَعْنِي أَنَّ السُّورَةَ تَسِيرُ هَكَذَا:

تَعْرِيفُ الْحَقِّ (عَقِيدَةُ)

اِخْتِبَارُ الْفَهْمِ (أَهْلُ الْكِتَابِ)

اِخْتِبَارُ الثَّبَاتِ (أُحَدُّ)

اِخْتِبَارُ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا (الْقَالَ)

ثُمَّ الْعِلَاجُ: الصَّبْرُ، الرِّبَاطُ، الْمُرَابَطَةُ، التَّقْوَى.

الْخُلَاصَةُ الْكُبْرَى لِلشُّورَةِ كُلِّهَا: سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ لَيْسَتْ عَنْ: النَّصَارَى فَقَطْ، وَلَا عَنْ أُحَدٍ فَقَطْ، وَلَا عَنْ الْأَحْكَامِ فَقَطْ!! بَلْ هِيَ عَنْ: كَيْفَ تَبْقَى الْأُمَّةُ الْمُؤْمِنَةُ ثَابِتَةً عِنْدَمَا تَتَعَرَّضُ لِهَزَاتٍ فِي الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ وَالْوَاقِعِ وَالْقَالَ.

وَلَكِنْ، بَعْدَ بِنَاءِ الْأُمَّةِ ... وَتَثْبِيَتِهَا ... مَاذَا تَحْتَاجُ الْأُمَّةُ؟

تَحْتَاجُ إِلَى تَشْرِيعٍ تَفْصِيلِيٍّ يُنَظِّمُ حَيَاةَ الْمُجْتَمَعِ، وَالْأُسْرَةِ، وَالْقَائِنُونَ، وَالْعَدَالَةَ. وَهَذَا سَنَدْخُلُ إِلَى: سُورَةِ النَّسَاءِ.

سُورَةُ النَّسَاءِ:

أَوَّلًا: لِمَاذَا اسْمُهَا "النِّسَاء"؟

لَيْسَ لِأَنَّ السُّورَةَ تَتَحَدَّثُ عَنِ النِّسَاءِ فَقَطْ، بَلْ لِأَنَّ الْقُرْآنَ اخْتَارَ أَكْثَرَ نُقْطَةٍ حَسَّاسَةٍ فِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ:

الْبَيْتِ... وَالْعَلَاقَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ... وَالضُّعَفَاءِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ.

وَالنِّسَاءُ فِي السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ هُنَا يُمَثِّلْنَ:

مَرْكَزَ الْأُسْرَةِ، وَمَحَوْرَ الْإِسْتِقْرَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَمَعْيَارَ الْعَدْلِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ.

فَالسُّورَةُ سَمِّيَتْ "النِّسَاء" لِأَنَّهَا تُعَالِجُ:

كَيْفَ يُبْنَى الْعَدْلُ دَاخِلَ أَضْعَفِ حَلْقَةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ:

إِنَّهُ الْبَيْتُ، وَالْمُجْتَمَعُ الْقَرِيبُ!

السِّرُّ الْأَوَّلُ: اسْمُ السُّورَةِ:

السُّورَةُ لَيْسَتْ عَنْ "الْمَرْأَةِ"، بَلْ عَنْ "الْعَدَالَةِ دَاخِلَ أَضْعَفِ حَلْقَةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ، هُمَا الْمَرْأَةُ

وَالْيَتِيمُ، تَأْمَلُوا أَوَّلَ مَوْضُوعٍ كَبِيرٍ فِي السُّورَةِ: ﴿وَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾. [النِّسَاءِ: 2]

ثُمَّ مُبَاشَرَةً: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾.

ثُمَّ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾.

ثُمَّ: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. [النِّسَاءِ: 4]

هُنَا الْمِفْتَاحُ: السُّورَةُ تَبْدَأُ بِفَتَتَيْنِ ضَعِيفَتَيْنِ فِي الْمُجْتَمَعِ: الْيَتِيمُ، وَالْمَرْأَةُ.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ مَعْيَارَ عَدَالَةِ الْأُمَّةِ لَا يَطْهَرُ فِي الْقَوِيِّ... بَلْ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الضَّعِيفِ.

السِّرُّ الثَّانِي: لِمَاذَا قُدِّمَتْ النِّسَاءُ بَعْدَ آلِ عِمْرَانَ مُبَاشَرَةً؟

فِي آلِ عِمْرَانَ كَانَ التَّزَكُّيُّ عَلَى:

الثَّبَاتِ الْعَقَائِدِيِّ، وَالثَّبَاتِ النَّفْسِيِّ، وَالثَّبَاتِ أَمَامَ الصَّدْمَةِ (أَحَدٍ).

أَمَّا سُورَةُ النِّسَاءِ فَتَنْتَقِلُ خُطْوَةً أَخْطَرَ:

كَيْفَ يَتَحَوَّلُ هَذَا الثَّبَاتُ إِلَى نِظَامِ حَيَاةٍ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ؟

وَلِهَذَا تَبْدَأُ السُّورَةُ مُبَاشَرَةً بِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾. [النِّسَاءِ: 1]

لَا حِطَّوْا... آلِ عِمْرَانَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا!!

النِّسَاء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ!!
يَعْنِي الْإِنْتِقَالَ مِنْ "الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ"، إِلَى "بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ".

السُّرَّةُ الثَّالِثُ: لِمَاذَا بَدَأَ الْكَلَامُ عَنِ الْأَضْلِ الْوَاحِدِ؟

{الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}. [النِّسَاء: 1]

هَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ تَذْكِيرٍ بِالْخَلْقِ... بَلْ هُوَ قَاعِدَةٌ قَانُونِيَّةٌ:
إِذَا كَانَ الْأَضْلُ وَاحِدًا، فَلَا يَحِقُّ الظُّلْمُ بَيْنَ الْفُرُوعِ.

أَيُّ أَنَّ: الرَّجُلَ لَيْسَ أَعْلَى مِنَ الْمَرْأَةِ مِنْ حَيْثُ الْإِنْسَانِيَّةِ... وَالْيَتِيمَ لَيْسَ أَقْلٌ مِنْ غَيْرِهِ... وَالضَّعِيفَ لَهُ حَقٌّ أَصِيلٌ.

السُّرَّةُ الرَّابِعُ: لِمَاذَا هَذَا التَّزْكِيذُ عَلَى الْمِيرَاثِ؟

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}. [النِّسَاء: 11]

هُنَا نُقْطَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا: الْمِيرَاثُ فِي السُّورَةِ لَيْسَ "تَفْصِيلًا فِقْهِيًّا" فَقَطْ... بَلْ هُوَ:

مَنْعُ الظُّلْمِ قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ!! لِأَنَّ أَكْثَرَ الظُّلْمِ فِي التَّارِيخِ يَحْدُثُ فِي:

الْمَالِ... الْأُسْرَةِ... الْوَرِثَةِ... النُّفُوزِ!! وَلِهَذَا جَاءَتْ أَحْكَامُ دَقِيقَةٍ جِدًّا لِصَبْطِ هَذِهِ النُّقْطَةِ.

السُّرَّةُ الْخَامِسُ: لِمَاذَا ظَالَ الْحَدِيثُ عَنِ الْأُسْرَةِ؟

لِأَنَّ السُّورَةَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ الدَّوْلَةَ تَبْدَأُ مِنَ الْبَيْتِ.

وَلِذَلِكَ سَتَجِدُ:

زَوَاجًا... طَلَاقًا... تَعَدُّدَ زَوْجَاتٍ... حُقُوقًا زَوْجِيَّةً... حَصَانَةً... نَفَقَةً.

لِمَاذَا كُلُّ هَذَا؟ لِأَنَّ أَيَّ خَلَلٍ فِي الْأُسْرَةِ يُؤَدِّي إِلَى انْهِيَارِ الْمُجْتَمَعِ.

السُّرَّةُ السَّادِسُ: لِمَاذَا جَاءَتْ آيَاتُ الْقِتَالِ دَاخِلَ سُورَةِ "النِّسَاءِ"؟ قَدْ يَبْدُو غَرِيبًا!!

كَيْفَ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ مِنْ:

الْمِيرَاثِ... الْأُسْرَةِ... إِلَى: الْقِتَالِ؟

لَكِنَّ الرَّابِطَ عَمِيقٌ:

الْأُسْرَةُ: بِنَاءُ الدَّاخِلِ.

الْقِتَالُ: حِمَايَةُ الْخَارِجِ.

فَالسُّورَةُ تَبْنِي الْمُجْتَمَعَ مِنَ الدَّاخِلِ ثُمَّ تَقُولُ:

إِذَا لَمْ يُحْمَ هَذَا الْبِنَاءُ مِنَ الْأَخْطَارِ الْخَارِجِيَّةِ فَسَيَنْهَارُ كُلُّهُ أَيْضًا!

وَلِهَذَا قَالَ: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}. [النِّسَاء: 76]

السُّرَّةُ السَّابِعُ: لِمَاذَا لَمْ تُسَمَّ السُّورَةُ بِاسْمِ "الْأُسْرَةِ" مَثَلًا؟

أَوْ سُورَةَ "الْحُقُوقِ"؟

لِأَنَّ "النِّسَاءَ" فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ فِئَةٍ... بَلْ رَمْزٌ لـ:
الْجَانِبِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّقِيقِ دَاخِلِ الْمُجْتَمَعِ، فَإِذَا صَلَحَ هَذَا الْجَانِبُ:
صَلَحَ الْعَدْلُ... صَلَحَ الْبَيْتُ... صَلَحَتِ الدَّوْلَةُ.
وَإِذَا فَسَدَ: حَتَّى الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ تَنْهَارُ تَلْقَائِيًّا.

الآن نَرْبِطُ الْخَرِيطَةَ الْكُبْرَى الَّتِي بَدَأْنَاهَا:
الْبَقَرَةُ: بِنَاءِ عَقِيدَةِ الْأُمَّةِ.

آلِ عِمْرَانَ: تَثْبِيثُ الْأُمَّةِ أَمَامَ الْفِتَنِ.
النِّسَاءُ: تَحْوِيلُ الْأُمَّةِ إِلَى نِظَامٍ عَادِلٍ دَاخِلِ الْبَيْتِ وَالْمُجْتَمَعِ.

خُلَاصَةُ التَّسْمِيَةِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ:

سُمِّيَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ لِأَنَّهَا تَجْعَلُ "الْعَدَالََةَ فِي أَضْعَافِ نِقَاطِ الْمُجْتَمَعِ" مَعْيَارًا لِبَقَاءِ الْأُمَّةِ كُلِّهَا
أَوْ زَوَالِهَا كُلِّهَا.

تَدْخُلُ الآنَ إِلَى الْعَمُودِ الْفَقْرِيِّ لِسُورَةِ النِّسَاءِ، وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يَكْشِفُ لَنَا أَنَّ السُّورَةَ لَيْسَتْ
"أَحْكَامًا مُتَفَرِّقَةً"، بَلْ نِظَامٌ بِنَاءِ دَوْلَةٍ، مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ حَتَّى سَاحَةِ الصَّرَاعِ الْخَارِجِيِّ.
مِنْ أَيْنَ تَبْدَأُ السُّورَةُ فِعْلًا؟

رَغْمَ أَنَّ أَوَّلَ آيَةٍ تَتَكَلَّمُ عَنِ التَّفَوُّي وَالْوَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. [النِّسَاءُ: 1]
إِلَّا أَنَّ السُّورَةَ تَبْدَأُ عَمَلِيًّا مِنْ نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ: إِصْلَاحِ الدَّاخِلِ الضَّعِيفِ فِي الْمُجْتَمَعِ.
وَلِهَذَا أَوَّلُ الْمَلَقَاتِ: الْيَتِيمُ... الْمَرْأَةُ... الْمَالُ... الْمِيرَاثُ.

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى: بِنَاءُ "الْعَدَالََةِ دَاخِلَ الْبَيْتِ" الْمُسْلِمِ:

الْيَتِيمُ: ﴿وَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾. [النِّسَاءُ: 2] هَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ مَالٍ.
بَلْ اخْتِبَارٌ أَخْلَاقِيٌّ: هَلْ تَسْتَطِيعُ الْأُمَّةُ أَنْ تَحْمِيَ مَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ؟
الْمَرْأَةُ وَالزَّوْجَةُ: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. [النِّسَاءُ: 4]
ثُمَّ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾. [النِّسَاءُ: 3]
هُنَا يَظْهَرُ مَبْدَأُ خَطِيرٍ:

الْعِلَاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ لَيْسَتْ سُلْطَةً... بَلْ عَقْدُ عَدْلٍ.
الْمِيرَاثُ: (أَخْطَرُ نُقْطَةٍ مَالِيَّةٍ) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾. [النِّسَاءُ: 11]
لِمَاذَا هَذَا التَّفْصِيلُ الدَّقِيقُ؟

لأنَّ أخطر أنواع الظلم يكون: داخل العائلة. عند تقسيم المال. عند موت العائل. إذن، السورة تقول: إذا فسَدَ العدلُ داخل البيت، فسَدَ المجتمعُ كله.

المرحلة الثانية:

بناءً «القانون الداخلي للأمة»: بعد الأسرة، تنتقل السورة إلى المجتمع:

حِفْظُ الدِّم: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾. [النساء: ٩٣]

هنا تتحول السورة إلى: حماية الحياة الإنسانية داخل المجتمع. **القضاء والعدل:** ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾. [النساء: ٥٨] ثم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. [النساء: ٥٨] هنا السورة تنتقل من: الأسرة، إلى الدولة.

المرحلة الثالثة:

بناءً «هوية الطاعة»... هنا نقطة مفصلية جداً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. [النساء: ٥٩] لماذا جاءت هنا؟ لأنه بعد أن بُنيَت: الأسرة... المال... القضاء... لا بد من مرجعية عليا تحكم الجميع.

المرحلة الرابعة:

كشَفُ «الخلل الداخلي» (المنافقون): وهُنا يدخل أخطر جزء في السورة: المنافقون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾. [النساء: ٦١] لماذا؟ لأن السورة الآن تقول: إن الخطر الحقيقي ليس الخارج فقط... بل الداخل أيضاً!

المرحلة الخامسة:

الانتقال إلى الخارج (القتال): بعد إصلاح الداخل، تأتي المواجهة الخارجية: ﴿فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. [النساء: ٧٤] لكن انظروا الشرط: لا قتال بلا: عدل داخلي. ونظام أسري متين... وطاعة بالمعروف... وقضاء عادل... وأمانة تسود.

المرحلة السادسة:

إدارة الحزب نفسيًا!! السورة لا تتكلم عن الحزب كقوة فقط... بل كوعي نفسي:

{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ} [النساء: ٨٨]

ثم: {فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ} [النساء: ٨٩]

أي: لا تستيت داخلًا... لا ازدواج ولأ.

وإذا أردنا أن نفهم سورة النساء في سطر واحد:

هي تحويل الإيمان من فكرة في القلب إلى نظام عدل شامل يحكم البيت والمجتمع والدولة.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ:

إِذَا كَانَتْ سُورَةُ النَّسَاءِ قَدْ بَنَتْ الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمَ، فَإِنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ جَاءَتْ لِتُضْمَنَ بَقَاءَ هَذَا الْمُجْتَمَعِ عَلَى الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا حَتَّى آخِرِ الزَّمَانِ. وَلِهَذَا فَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَتَّى قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهَا مِنْ آخِرِ السُّورِ نَزُولًا، وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ فِيهَا الْأَحْكَامُ النَّهَائِيَّةُ.

أَوَّلًا: لِمَاذَا سُمِّيَتْ «الْمَائِدَةُ»؟

اسْمُ السُّورَةِ مَاخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١١٢].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١١٥].

لَا حِظَّ أَنْ قِصَّةَ الْمَائِدَةِ جَاءَتْ فِي آخِرِ السُّورَةِ، لَا فِي أَوَّلِهَا، وَهَذَا لَيْسَ عَبَثًا. فَالْقُرْآنُ يُؤَخِّرُهَا حَتَّى يَكُونَ الْقَارِئُ قَدْ مَرَّ طَوْلَ السُّورَةِ عَلَى قِضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَتَكَرَّرُ بِصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ، ثُمَّ يَرَى فِي قِصَّةِ الْمَائِدَةِ أَوْصَحَ نَمُودَجٍ لِهَذِهِ الْقِضِيَّةِ. مَا هِيَ؟ النِّعْمَةُ تَسْتَلْزِمُ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ.

ثَانِيًا: مَا الْقِضِيَّةُ الْكُبْرَى لِلْسُّورَةِ؟

أَوَّلُ آيَةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١].

بَعْدَ قَلِيلٍ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقْتُمْ بِهِ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٧].

ثُمَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٢].

ثُمَّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٣].

ثُمَّ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٤].

ثُمَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣].

ثُمَّ فِي النَّهَايَةِ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١١٩].

الآن اسأل نفسك: مَا الَّذِي يَرْبِطُ الْعُقُودَ، وَالْمِيثَاقَ، وَالنِّعْمَةَ، وَالصَّدَقَ، وَنَقْضَ الْعَهْدِ، وَإِكْمَالَ الدِّينِ؟ كُلُّهَا تَدُورُ حَوْلَ مَخَوَرٍ وَاحِدٍ:

الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ بَعْدَ تَمَامِ النِّعْمَةِ... وَلِهَذَا أَرَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الْمَرْكَزِيَّةُ لِلْسُّورَةِ.

ثَالِثًا: لِمَاذَا جَاءَتْ بَعْدَ سُورَةِ النَّسَاءِ؟

لِنَزِجْ إِلَى خَاتِمَةِ سُورَةِ النَّسَاءِ... قَالَ تَعَالَى:
{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا}. [سُورَةُ النَّسَاءِ: ١٧٦].
أَي: انْتَهَى الْبَيَانُ... ثُمَّ مُبَاشَرَةً:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١].
لَا حِظَّ التَّرَابُطِ، فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ لَنَا.
وَفِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: أَنْتُمْ أَوْفُوا.
كَأَنَّ تَرْتِيبَ السُّورَتَيْنِ يَقُولُ:
بَعْدَمَا اكْتَمَلَ الْبَيَانُ... جَاءَ وَقْتُ الْإِلْتِزَامِ.
وَهَذَا انْتِقَالٌ بَدِيعٌ.

رَابِعًا: لِمَاذَا جَاءَتْ قَبْلَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ؟

فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...}. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٤].
ثُمَّ: {... فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٤].
ثُمَّ: {... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٥].
ثُمَّ: {... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}. [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٧].

وَهُنَا سُؤَالٌ: مَنْ الَّذِي يَمْلِكُ أَنْ يُشَرِّعَ أَصْلًا؟
فَتَأْتِي سُورَةُ الْأَنْعَامِ لِتُجِيبَ مِنْذُ افْتِتَاحِهَا:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}. [الْأَنْعَامِ: ١].
ثُمَّ: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ}. [الْأَنْعَامِ: ٥٧].
أَي: إِنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ تَأْمُرُ بِالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَسُورَةُ الْأَنْعَامِ تُوَصِّلُ أَنَّ حَقَّ
التَّشْرِيعِ لِلَّهِ وَحْدَهُ... فَالْعَلَاقَةُ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ وَثِيقَةٌ جَدًّا.

خَامِسًا: لِمَاذَا افْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِالْعُقُودِ؟

كَانَ الْفُرْآنُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ."
لَكِنَّهُ قَالَ: {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}. [الْمَائِدَةِ: ١].
لِأَنَّ الْأُمَّةَ بَلَغَتْ مَرَحَلَةَ النُّضْجِ... فَتَعَلَّمَتِ الْعَقِيدَةَ فِي السُّورِ السَّابِقَةِ... وَتَرَبَّتْ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ
الْفِتَنِ... وَأَقِيمَ مُجْتَمَعُهَا... الْآنَ صَارَ الْمَطْلُوبُ مِنْهَا:
الْوَفَاءُ... وَلِهَذَا جَاءَتْ الْأَحْكَامُ مُبَاشَرَةً:

﴿أَجَلْتُ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ...﴾. [المائدة: 1].

ثُمَّ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ...﴾. [المائدة: 1].

ثُمَّ: ﴿لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾. [المائدة: 2].

ثُمَّ: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾. [المائدة: 2].

ثُمَّ: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾. [المائدة: 2].

ثُمَّ: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾. [المائدة: 2].

لَا حِظَّ أَنَّ السُّورَةَ بَدَأَتْ مُبَاشَرَةً بِالتَّطْبِيقِ.

المقطع الأول (الآيات 1-11)

كَيْفَ يَبْدَأُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ؟

اِفْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. [المائدة: 1].

وَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مُقَدِّمَةً فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ عُتْوَانٌ لِكُلِّ مَا بَعْدَهَا. وَاسْأَلْ نَفْسَكَ:

مَا أَوَّلُ شَيْءٍ يَذْكُرُهُ اللَّهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ؟

﴿أَجَلْتُ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ...﴾. [المائدة: 1].

ثُمَّ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾. [المائدة: 1].

ثُمَّ: ﴿لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾. [المائدة: 2].

كَأَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لَا يَبْدَأُ بِالشَّعَارَاتِ، وَإِنَّمَا يَبْدَأُ مِنَ الْإِلْتِزَامِ بِحُدُودِ اللَّهِ؛ فَمَا

أَحَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ حَرَامٌ... وَلِهَذَا خَتَمَ الْآيَةَ الْأُولَى بِقَوْلِهِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. [المائدة: 1].

أَيُّ: إِنَّ الْمَرْجِعَ فِي الْعُقُودِ وَالْأَحْكَامِ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَيْسَ أَهْوَاءُ النَّاسِ.

ثُمَّ يَأْتِي اخْتِبَارُ الْأَخْلَاقِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومٍ أَنْ ضُودَكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾

(سورة المائدة: 2).

تَأَمَّلُوا هَذَا! هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدُّوا الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ

وَعَلَا:

لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُهُمْ عَلَى الظُّلْمِ.

ثُمَّ يُؤَكِّدُ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. (سورة المائدة: 2).

إِذْنًا، الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لَيْسَ مَعَ الْأُضْدِقَاءِ فَقَطْ، بَلْ حَتَّى مَعَ الْخُصُومِ.

وَهَذَا الْمَعْنَى سَيَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى بِصُورَةٍ أَوْضَحَ:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. (سورة المائدة: 8).
لَا حِطَّ اَنَّ السُّورَةَ كَرَّرَتْ الْفِكْرَةَ مَرَّتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ شَرِيعَةَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا يَجِبُ اَنْ
يَكُوْنَ عَدْلُهَا ثَابِتًا، لَا يَتَغَيَّرُ بِالْحُبِّ وَالْبَغْضِ.

لِمَاذَا جَاءَتْ آيَةُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. هُنَا؟
بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ أَحْكَامِ الْأَطْعِمَةِ وَالْمَحْرَمَاتِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ:
﴿الْيَوْمَ يَبُئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾. (سورة المائدة: 3).
ثُمَّ مُبَاشَرَةً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.
(سورة المائدة: 3).

وَهُنَا وَقْفَةٌ عَظِيمَةٌ: كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَحْدَهَا، لَكِنَّ السِّيَاقَ مُهِمٌّ جِدًّا.
فَهِیَ جَاءَتْ وَسَطَ الْأَحْكَامِ، لَا بَعْدَ قِصَّةِ عَظِيمَةٍ، وَلَا بَعْدَ مُعْجَزَةٍ.

وَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: اِكْتِمَالُ الدِّينِ يَكُونُ بِاِكْتِمَالِ الْمَنْهَجِ الَّذِي يُنَظِّمُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا.
وَلِهَذَا أَتْبَعَهَا مُبَاشَرَةً بِبَيَانِ حُكْمِ الْمُضْطَرِّ:

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (سورة المائدة: 3).
أَيُّ: إِنَّ الشَّرِيعَةَ الْكَامِلَةَ لَيْسَتْ شَرِيعَةً تُضَيِّقُ، بَلْ شَرِيعَةٌ فِيهَا عَزَائِمٌ وَرَخَصٌ.

ثُمَّ يَأْتِي السُّوَالُ عَنِ الْحَلَالِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾. (سورة المائدة: 4).

لَا حِطَّ جَمَالِ التَّزْيِيبِ:

بَعْدَ إِعْلَانِ اِكْتِمَالِ الدِّينِ، بَدَأَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ:

كَيْفَ نَطَبُّهُ؟

فَيَأْتِي الْجَوَابُ بِالتَّفْصِيلِ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾. (سورة المائدة: 4).

ثُمَّ ذَكَرَ الصَّيْدَ، وَالْجَوَارِحَ الْمَعْلَمَةَ، وَالطَّعَامَ.

فَالْقُرْآنُ يَنْتَقِلُ مِنْ إِعْلَانِ الْمَبْدِإِ إِلَى تَنْزِيلِهِ عَلَى وَاقِعِ النَّاسِ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى أَعْظَمِ عِلَاقَةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ بَعْدَ الطَّعَامِ مُبَاشَرَةً، قَالَ:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾. (المائدة: 5).

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الطَّعَامَ وَالزَّوَاجَ هُمَا أَكْثَرُ مَا يُحَالِطُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

فَإِذَا ضَبَطْتُهُمَا الشَّرِيعَةُ، اسْتَقَامَ كَثِيرٌ مِنَ حَيَاةِ الْمَجْتَمَعِ.

لِمَاذَا جَاءَتْ آيَةُ الْوُضُوءِ هُنَا؟

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾. (المائدة: 6).

قَدْ يَسْأَلُ الْقَارِئُ: مَا عَلاَقَةُ الْوُضُوءِ بِالطَّعَامِ وَالزَّوْاجِ؟
الْعَلاَقَةُ أَنَّ السُّورَةَ لَا تَنْتَقِلُ انْتِقَالًا عَشَوَائِيًّا... فَالطَّعَامُ يُنَظَّمُ عَلاَقَةُ الْإِنْسَانِ بِجَسَدِهِ، وَالزَّوْاجُ
يُنَظَّمُ عَلاَقَتُهُ بِأَسْرَتِهِ، ثُمَّ الصَّلَاةُ تُنَظَّمُ عَلاَقَتُهُ بِرَبِّهِ.
وَكَانَ السُّورَةَ تَقُولُ: بَعْدَ أَنْ نَظَّمْتَ حَيَاتَكَ الْخَارِجِيَّةَ، لَا تَنْسَ صَلَاتَكَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ.

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى خِتَامِ الْآيَةِ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (المائدة: 6).
تأمل كَلِمَةً: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.
أَلَيْسَتْ قَرِيبَةً جِدًّا مِنْ قَوْلِهِ قَبْلَ قَلِيلٍ: ﴿وَأَتِمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. (المائدة: 3)؟
إِذَنْ، حَتَّى الْوُضُوءُ جُزْءٌ مِنْ إِتْمَامِ النِّعْمَةِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ ظَهَارَةٍ حِسِّيَّةٍ.
ثُمَّ يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْمِيثَاقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. (المائدة: 7).
هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ رَكَائِزِ السُّورَةِ الْمُهَمَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَفَسِّرُ مَعْنَى الْعُقُودِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.
مَا هُوَ هَذَا الْعَقْدُ؟
أَنْ نَقُولَ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وَنُلاحِظُ أَنَّهَا تُقَابِلُ قَوْلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. (البقرة: 93).

وَهُنَا يَطْهَرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ حَيْطٌ يَرْبِطُ الْبَقَرَةَ بِالْمَائِدَةِ:
فِي الْبَقَرَةِ: نَمُودَجْ نَقِضِ الْمِيثَاقِ.
وَفِي الْمَائِدَةِ: دَعْوَةُ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ إِلَى الْوَفَاءِ بِالْمِيثَاقِ.
لِمَاذَا أَغَادَتِ السُّورَةُ الْحَدِيثَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ فَصَّلَتْ أَخْبَارَهُمْ فِي الْبَقَرَةِ وَآلِ
عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ؟

الْجَوَابُ: لِأَنَّ السُّورَةَ لَا تُرِيدُ أَنْ تَحْكِيَ تَارِيخَهُمْ، وَإِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَهُمْ مِرَاةً لِلْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ؛
لِنَرَى فِيهِمْ عَوَاقِبَ الْوَفَاءِ وَنَقِضِ الْعَهْدِ.

المَفْطَعُ الثَّانِي (المَائِدَةُ: 8-40)

مِنْ الْوَفَاءِ بِمِيثَاقِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَقِضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِيثَاقِهِمْ.
بَعْدَ أَنْ قَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا﴾. (المائدة: 7).

جَاءَتْ مُبَاشَرَةً آيَةُ الْعَدْلِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. (المائدة: 8).
لَا حِظَّ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ لَيْسَ مُجَرَّدَ عِبَادَاتٍ، بَلْ عَدْلٌ حَتَّىٰ مَعَ مَنْ تُبْغِضُهُمْ.
ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْقُرْآنُ مُبَاشَرَةً إِلَىٰ نَمُودَجٍ تَارِيخِيٍّ لِمَنْ لَمْ يَفِ بِالْعَهْدِ.
أَوَّلُ مِيثَاقٍ: مِيثَاقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. (المائدة: 12).
ثُمَّ عَدَّدَ عَنَاصِرَ الْمِيثَاقِ: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. (المائدة: 12).
ثُمَّ قَالَ: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. (المائدة: 12).

إِنَّ هُنَاكَ عَقْدٌ وَاضِحٌ:
إِقَامَةُ الصَّلَاةِ... الزَّكَاةِ... الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ... نُصْرَةُ الرُّسُلِ... الْإِنْفَاقُ.
وَفِي الْمَقَابِلِ: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دُخْلَكُمْ جَنَّاتٍ﴾. (المائدة: 12).
هَذَا هُوَ الْعَهْدُ.

ثُمَّ مَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟
جَاءَتِ الصَّدْمَةُ مُبَاشَرَةً: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾. (سورة المائدة: 13).

لَا حِظَّ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَقُلْ: بِسَبَبِ كَذَا...
بَلْ جَعَلَ السَّبَبَ الْجَامِعَ: نَقْضَ الْمِيثَاقِ.

ثُمَّ فَصَّلَ آثَارَ هَذَا النُّقْضِ وَعَوَاقِبَهُ عَلَيْهِمْ:
﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾. (سورة المائدة: 13).
ثُمَّ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾. (سورة المائدة: 13).
ثُمَّ: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. (سورة المائدة: 13).

تَأَمَّلِ التَّرْتِيبَ: ... نَقْضُ الْعَهْدِ... قَسْوَةُ الْقَلْبِ... تَحْرِيفُ الْوَحْيِ... نَسْيَانُ الْحَقِّ.
وهذا ترتيبٌ نفسيٌّ وتربويٌّ دقيقٌ؛ فتركُ الوفاءِ بالعهدِ ليس أثره معصيةً واحدةً، بل يبدأ
بإفسادِ القلبِ، ثمَّ ينعكسُ على فهمِ الوحيِ والعملِ بهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ النَّصَارَى!! قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾. (سورة المائدة: 14).

ثُمَّ ماذا؟ ﴿فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. (سورة المائدة: 14).

إذن، السُّورَةُ تقول: ...اليهودُ نقضوا الميثاق!! والنصارى نُسوا الميثاق!!
ثُمَّ تُخاطبُ السُّورَةُ المباركة أُمَّةَ الكتابِ الجديدِ، أُمَّةَ القرآنِ العظيمِ: لا تكونوا مثل هؤلاء ولا هؤلاء.

ثُمَّ لماذا جاء الحديث عن القرآن؟

بعد عرض نقضهم للعهود، قال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.
(سورة المائدة: 15).

ثُمَّ قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾. (سورة المائدة: 15).

فبعد أن ضاعت المواثيق السابقة بالتحريف والكتمان، جاء القرآن ليُعيد البيان.

ثُمَّ قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾. (سورة المائدة: 16).

لاحظوا أنه قال: ﴿مَنِ اتَّبَعَ﴾، لأن السُّورَةَ كلها تتحدث عن الالتزام، لا مجرد المعرفة.

ثُمَّ يبدأ تصحيح الانحراف العقدي:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾. (سورة المائدة: 17).

ثُمَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ﴾. (سورة المائدة: 73).

لماذا يذكر هذا في سورة العهود؟ لأن أعظم العهد هو التوحيد.

فالوفاء بالعقود يبدأ بالعقد الأول بين العبد وربّه: أن يعبدّه وحده، ولا يُشرك به شيئاً.

ثُمَّ تأتي قصّة دخول الأرض المقدّسة:

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. (سورة المائدة: 21).

ماذا كان جوابهم؟

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾. (سورة المائدة: 22).

ثُمَّ: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. (سورة المائدة: 24).

قارن هذا الجواب بقول المؤمنين في بدر، حين قالوا للنبي ﷺ ما معناه: امض لما أمرك الله، فنحن معك.

وهنا يتجلى الفرق بين أُمَّة تقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وأُمَّة قالت بلسان الحال: سَمِعْنَا، ولكن لن نُنفذ.

ولذلك كانت العقوبة: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. (سورة المائدة: 26).

(26).

لاحظ أن سبب التَّيِّه لم يكن ضعف القوَّة، وإنما نكث العهد.

وقفة لطيفة: هل تذكرُونَ أننا في سورة البقرة رأينا بني إسرائيل يُكثرون من قول: ﴿أَرَأَيْتُمْ...﴾ {أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ}... {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ}... {لَنْ نَصْبِرَ}.

أما هنا في سورة المائدة، فقد بلغت القصَّة نهايتها العمليَّة: كلُّ ذلك انتهى إلى كلمة واحدة: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾.

أي إنَّ التَّردُّد والاعتراض الذي بدأ في سورة البقرة انتهى في سورة المائدة إلى الامتناع الصَّريح عن تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

المَقْطَعُ الثَّالِثُ (الآيَات: 27-40)

لِمَاذَا جَاءَتْ قِصَّةُ ابْنِي آدَمَ هُنَا؟

بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ قِصَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَفُضِهِمْ دُخُولَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، انْتَقَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى مَوْضُوعٍ آخَرَ: ﴿وَإِثْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 27).

لِمَاذَا؟ فِي ظَنِّي - وَهُوَ الَّذِي تُؤَيِّدُهُ سِيَاقَاتُ السُّورَةِ - أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُرِيدُ أَنْ يُزَجِّعَ بَنَّا إِلَى الْجَذْرِ الْأَوَّلِ لِنَقْضِ الْعَهْدِ.

فَبَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَبْدَأُوا انْحِرَافُهُمْ عِنْدَ رَفُضِ دُخُولِ الْأَرْضِ، بَلْ سَبَقَهُ مَرَضٌ فِي الْقُلُوبِ. وَهَذَا الْمَرَضُ لَهُ أَصْلٌ قَدِيمٌ، فَقَدْ ظَهَرَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بَيْنَ ابْنِي آدَمَ.

أَوَّلًا: لِمَاذَا قُبِلَ الْقُرْبَانُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ؟

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 27)، وَلَمْ يَذْكُرِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ السَّبَبَ مُبَاشَرَةً.

لَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ الْأَخُ الْمَقْبُولُ مِنْهُ قُرْبَانَهُ عَرَفْنَا السَّبَبَ، قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 27).

إِنَّ، الْقَضِيَّةَ لَيْسَتْ نَوْعَ الْقُرْبَانِ، بَلْ صِدْقَ الْقَلْبِ، وَهُنَا يَظْهَرُ أَوَّلُ رَابِطٍ مَعَ أَوَّلِ السُّورَةِ.

افْتَتَحَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ:

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 1).

وَحَتَمَ هَذَا الْجَوَارِ بِأَنَّ قَبُولَ الْعَمَلِ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّقْوَى.

فَلَيْسَ الْوَفَاءُ مُجَرَّدَ تَنْفِيذِ ظَاهِرِيٍّ، بَلْ إِخْلَاصٌ وَتَقْوَى.

ثَانِيًا: أَوَّلُ أَثَرٍ لِنَقْضِ الْعَهْدِ! قَالَ: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 27).

لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ اللَّهِ.

لَا حِظَّ أَنَّ الْمُسْكِلَةَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ، بَلْ كَانَتْ مَعَ حُكْمِ اللَّهِ.
فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلْ قِضَاءَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ... تَحَوَّلَ الْإِغْتِرَاضُ إِلَى غُدْوَانٍ.

وَهَذَا يَتَكَرَّرُ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ!! كُلُّ مَنْ رَفَضَ حُكْمَ اللَّهِ انْتَهَى إِلَى الظُّلْمِ.
وَلِهَذَا جَاءَ بَعْدَ قَلِيلٍ:

«إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...» (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 33).
فَالِإِنْتِقَالُ لَيْسَ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى قِصَّةٍ، بَلْ مِنْ أَوَّلِ جَرِيمَةٍ فَرْدِيَّةٍ إِلَى الْجَرِيمَةِ الْمُنَظَّمَةِ فِي
الْمُجْتَمَعِ.

ثَالِثًا: لِمَاذَا لَمْ يَدَافِعِ الْأَخُ عَنْ نَفْسِهِ؟

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: «لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» (سُورَةُ
الْمَائِدَةِ: 28).

ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 28).
لَا حِظَّ أَنَّ الدَّافِعَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي افْتَتَحَتْ بِهِ السُّورَةُ:
الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ!! فَالْمُتَّقُونَ يَضْبِطُونَ أَفْعَالَهُمْ بِخَوْفِ اللَّهِ، لَا بِرُدُودِ الْأَفْعَالِ.

رَابِعًا: لِمَاذَا ذَكَرَ الْغُرَابُ؟

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ» (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 31).

تأمل المشهد: الإنسان الذي تكبر حتى سَفَكَ الدَّمَ الْحَرَامَ... احتاج إلى طائرٍ يَعْلَمُهُ كَيْفَ
يَذْفِنُ أَخَاهُ، فَقَالَ: «يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ» (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 31).
إِنَّهَا صُورَةٌ بَلِيغَةٌ لِسُقُوطِ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يَخْرُجُ عَنْ هِدَايَةِ اللَّهِ.
ثُمَّ تَأْتِي الْآيَةُ الَّتِي تَرْبِطُ الْقِصَّةَ كُلَّهَا بِالسُّورَةِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ
فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 32).
وَهُنَا تَظْهَرُ بَلَاغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ!! كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ: «وَلِهَذَا كَتَبْنَا...».
لَكِنَّهُ قَالَ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ».

أَيُّ: إِنَّ هَذَا التَّشْرِيعَ خَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ... فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَا يَزُوي التَّارِيخَ لِمُجَرِّدِ الْعِبَرَةِ، بَلْ
لِيَسْتَنْبِطَ مِنْهُ الْأَحْكَامَ.
ثُمَّ يَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إِلَى حَدِّ الْحِرَابَةِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا...﴾.
(سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 33).

لَا حِطَّ كَيْفَ تَطَوَّرَ الْمَشْهَدُ: قَتْلُ فَرْذٍ، ثُمَّ بَيَانُ حُرْمَةِ الدَّمِ، ثُمَّ حِمَايَةُ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْفَسَادِ الْعَامِّ.
وَهَذَا مِنْ دِقَّةِ تَرْتِيبِ الْآيَاتِ.

ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَابَ الرَّحْمَةِ!! بَعْدَ ذِكْرِ الْعُقُوبَاتِ الشَّدِيدَةِ، قَالَ مُبَاشَرَةً:
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 34).
ثُمَّ قَالَ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 34).

وَهَذِهِ سِمَةٌ تَتَكَرَّرُ فِي السُّورَةِ: كُلَّمَا شَدَّدَتِ السُّورَةُ فِي حِفْظِ الْعَهْدِ، فَتَحَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَابَ
الْعُودَةِ لِمَنْ تَابَ.

لَطِيفَةٌ تَرْبِطُ أَوَّلَ السُّورَةِ بِهَذَا الْمَقْطَعِ:

فِي أَوَّلِ السُّورَةِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 1).
وَفِي هَذَا الْمَقْطَعِ رَأَيْنَا أَوَّلَ إِنْسَانٍ خَانَ عَهْدَ اللَّهِ فَقَتَلَ أَخَاهُ.

فَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: إِذَا ضَاعَ الْعَهْدُ، ضَاعَتِ الدِّمَاءُ!! وَإِذَا حَفِظَ الْعَهْدُ، حَفِظَتِ النُّفُوسُ.
وَلِهَذَا جَاءَتْ بَعْدَ قِصَّةِ الْقَتْلِ مُبَاشَرَةً تَشْرِيعَاتٍ تَحْفَظُ الْأَمْنَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ سَتَأْتِي تَشْرِيعَاتٍ تَحْفَظُ
الْحُكْمَ وَالْعَدْلَ، وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَبْنِي الْمُجْتَمَعَ مِنْ دَاخِلِهِ: عَهْدٌ، ثُمَّ نَفْسٌ، ثُمَّ مُجْتَمَعٌ، ثُمَّ دَوْلَةٌ.

وَقَفَّةٌ أَرَاهَا مِنْ أَجْمَلِ خُيُوطِ السُّورَةِ:

لَا حِطَّ أَنَّ السُّورَةَ تَتَكَرَّرُ فِيهَا كَلِمَةُ «كُتِبَ» بِمَعَانٍ مُتَقَارِبَةٍ:
﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 21).
قَالَ: لَكُمْ.

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 32).
قَالَ: عَلَى.

فِي الْأُولَى: كِتَابَةُ نِعْمَةٍ وَوَعْدٍ (لَكُمْ).
وَفِي الثَّانِيَةِ: كِتَابَةُ حُكْمٍ وَتَشْرِيعٍ (عَلَيْهِمْ).

وَكَأَنَّ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، احتَاجَ إِلَى مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالزَّوَاجِرِ.
وَهَذِهِ مِنَ الرِّوَابِطِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ التَّأَمُّلَ.

المَقْطَعُ الرَّابِعُ (الآيَاتُ ٤١-٥٠):

الْحُكْمُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ... هُوَ قَلْبُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ.
بَعْدَ أَنْ رَأَيْنَا نَقْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْمِيثَاقِ، وَرَفْضَهُمْ دُخُولَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَوَّلَ جَرِيمَةٍ قَتَلُوا، وَتَشْرِيعَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لِحِفْظِ الدِّمَاءِ،

يَأْتِي الآنَ السُّؤَالُ الطَّبِيعِيُّ:

مَنْ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ؟ وَعَلَى أَيِّ أُسَاسٍ؟

وَلِهَذَا يَبْدَأُ الْمَقْطَعُ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤١).

لَمَّاذَا خُوِطِبَ النَّبِيُّ ﷺ هُنَا؟

لِأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا يَأْتُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، لَا طَلَبًا لِلْحَقِّ، وَإِنَّمَا طَلَبًا لِلْحُكْمِ الَّذِي يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤١).

هَلْ تَذْكُرُونَ؟ لَقَدْ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ:

{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٣).

إِذَنْ، عُذْنَا إِلَى نَفْسِ الْمَرَضِ!! فَتَحْرِيفُ النَّصِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَيِّنٌ أَنَّ سَبَبَهُ نَقْضُ الْمِيثَاقِ.

ثُمَّ تَأْتِي الْمُفَاجَأَةُ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ} (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٣).
يَا لَهَا مِنْ آيَةٍ!

أَيُّ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَطْلُبُونَ حُكْمَ اللَّهِ، بَلْ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنْ حُكْمٍ يُوَافِقُ رَغَبَاتِهِمْ.

فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَخَذُوا بِهِ، وَإِنْ خَالَفَهُمْ تَرَكُوهُ!! وَهَذَا هُوَ عَيْنُ نَقْضِ الْعَهْدِ.

ثُمَّ يَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْكُتُبَ الثَّلَاثَ.

تَأْمَلْ هَذَا التَّرْتِيبَ الْعَجِيبَ:

{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٤).

ثُمَّ: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ} (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٦).

ثُمَّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).
لَا حِظَّ أَنَّ الْكُتُبَ الثَّلَاثَ اجْتَمَعَتْ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ.
لِمَاذَا؟ لِأَنَّ مَصْدَرَهَا وَاحِدًا!! وَالْعَهْدُ وَاحِدًا!! وَالْحَقُّ وَاحِدٌ.
لَكِنَّ الَّذِي تَغَيَّرَ هُوَ... النَّاسُ.

ثُمَّ تَأْتِي الْآيَةُ الَّتِي أَرَاهَا مَحْوَرَ هَذَا الْمَقْطَعِ كُلِّهِ.
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.
(سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).

تَأْمَلْ كَلِمَةً: ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾!! أَيُّ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ مُجَرَّدَ كِتَابٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُوَ:
شَاهِدٌ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ... وَحَافِظٌ لَهَا... وَمُبَيِّنٌ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ... وَهُوَ الْمَرْجِعُ الْأَخِيرُ
فِي الْحُكْمِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا مُبَاشَرَةً:
﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).
ثُمَّ أَكَّدَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).

لَا حِظَّ الْمُقَابَلَةِ:
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... وَأَهْوَاءَ النَّاسِ.
وَهَذَا مِنْ أَجْمَلِ الثَّقَابِلَاتِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

ثُمَّ تَأْتِي قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ:
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).
وَلَكِنْ لَا تَتَوَقَّفْ هُنَا، بَلْ اكْمِلْ:
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).
أَيُّ إِنَّ اخْتِلَافَ الشَّرَائِعِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ كَانَ ابْتِلَاءً، أَمَّا أَصْلُ التَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْوَفَاءِ
لِللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَوَاحِدٌ.

ثُمَّ جَاءَتِ النَّتِيجَةُ الْعَمَلِيَّةُ:
﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨).
مَا أَجْمَلَهَا! بَدَلًا مِنْ أَنْ يَنْشَغِلَ النَّاسُ بِالْخُصُومَاتِ، أَمَرَهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَنْشَغِلُوا بِالتَّسَابُقِ
فِي الطَّاعَةِ.
ثُمَّ يَخْتِمُ الْمَقْطَعُ بِسُؤَالٍ يَهْزُ الْقَلْبَ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥٠).
تَأْمَلُوا... لَمْ يَقُلْ: «أَفَيُتْرَكُونَ حُكْمَ اللَّهِ؟»
بَلْ قَالَ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

أَيُّ إِنَّهُ لَا يُوجَدُ طَرِيقٌ ثَالِثٌ.
إِمَّا حُكْمَ اللَّهِ... وَإِمَّا الْجَاهِلِيَّةَ!!

ثُمَّ خَتَمَ بِقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥٠).
لَا حِظَّ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: «لِلْمُؤْمِنِينَ»... بَلْ قَالَ: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.
لِأَنَّ الَّذِي امْتَلَأَ قَلْبُهُ يَقِينًا يَعْلَمُ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْأَكْمَلُ، وَالْأَعْدَلُ، وَالْأَرْحَمُ.

تَأْمَلْ مَعِيَ هَذَا الْبِنَاءَ:
بَدَأَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١).
ثُمَّ عَرَضَتْ نَمُودَجًا مِنْ نَقِضِ الْعُهُودِ... ثُمَّ بَيَّنَّتْ آثَارَ نَقْضِهَا.
ثُمَّ وَصَلَتْ إِلَى النَّتِيجَةِ: لَا يَتَحَقَّقُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَرْجِعُ فِي كُلِّ شَأْنٍ هُوَ مَا أُنْزَلَ
اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، لَا الْكُتُبُ الْمُحَرَّفَةُ، وَلَا آرَاءُ الْبَشَرِ.
وَالآنَ نَصِلُ إِلَى الْمَقْطَعِ الَّذِي أَرَاهُ الْإِمْتِحَانَ الْعَمَلِيَّ لِلْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.

الْمَقْطَعُ الْخَامِسُ (الآيَاتُ ٥١-٨١)

مَنْ هُوَ وَلِيُّكَ الْحَقِيقِيُّ؟
بَعْدَ أَنْ انْتَهَى الْحَدِيثُ عَنْ الْحُكْمِ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، بَقِيَ سُؤَالٌ:
إِذَا التَّزَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَمَنْ سَيَكُونُ سَنَدُكَ؟
وَهُنَا يَبْدَأُ السِّيَاقُ مُبَاشَرَةً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.
(الْمَائِدَةُ: 51).

لَا حِظَّ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ هَذَا الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، بَلْ جَاءَ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ الْحُكْمِ.
لِمَذَا؟ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا التَّزَمَ بِحُكْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ يَتَعَرَّضُ لِصَغْطٍ خَارِجِيٍّ، فَيَمِيلُ إِلَى
مَنْ يُخَالِفُ شَرْعَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ طَلَبًا لِلْقُوَّةِ أَوْ الْحِمَايَةِ.
فَتَقُولُ السُّورَةُ: إِذَا حَكَمْتَ بِشَرْعِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ... فَلْيَكُنْ اعْتِمَادُكَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَلَكِنْ مَنْ هُوَ الْوَلِيُّ إِذَنْ؟
بَعْدَ بُضْعِ آيَاتٍ يَأْتِي الْجَوَابُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. (الْمَائِدَةُ: 55).

انْظُرْ إِلَى رَوْعَةِ الْمُقَابَلَةِ.

فِي الْبِدَايَةِ: {لَا تَتَّخِذُوا...}
ثُمَّ بَعْدَهَا: {إِنَّمَا وَلِيُّكُم...}

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَا يَنْهَى فَقَطْ، بَلْ يُعْطِي الْبَدِيلَ... وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دَائِمًا.
وَهَذَا الْأَمْرُ لَهُ جُذُورٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ
فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. (البقرة: 256).

لَا حِظُّوا: فِي الْبِدَايَةِ: كَفَرُ بِالطَّاغُوتِ، ثُمَّ: إِيْمَانٌ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ.
وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَرَحَ عَمَلِي: لَا إِلَهَ... كَفَرُ بِالطَّاغُوتِ، إِلَّا اللَّهُ... إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَحْدَهُ.

ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ عَظِيمَةٌ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ:
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}. (المائدة: 56).
تَأَمَّلُوا... الْغَلْبَةُ هُنَا لَمْ تُرْبِطْ بِالْعَدَدِ، وَلَا بِالسَّلَاحِ، وَلَا بِالْقَالِ، بَلْ بِالْوَلَاءِ الصَّحِيحِ.

وَهَذَا يَرْبِطُنَا بِسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:
هُنَاكَ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ}. (آل عمران: 160).
وَهُنَا يَقُولُ: {فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}، فَالسَّرُّ وَاحِدٌ: النَّصْرُ ثَمَرَةُ الْوَفَاءِ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ثُمَّ يَعُودُ الْحَدِيثُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَرَّةً أُخْرَى:
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ...}. (المائدة: 59).
ثُمَّ قَالَ: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ...}. (المائدة: 60).
أَيُّ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مَا زَالَ يَعْرِضُ نَمَازِجَ مِنْ نَتَائِجِ نَقْضِ الْمِيثَاقِ، لِيَحْذَرَ أُمَّةَ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ نَفْسِهِ.
ثُمَّ يَأْتِي مَشْهَدٌ مُؤَثِّرٌ جَدًّا:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: {وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ
قَدْ خَرَجُوا بِهِ}. (المائدة: 61).

تَأَمَّلْ هَذَا الْوَصْفَ: الدُّخُولُ... وَالْخُرُوجُ... وَالْقَلْبُ لَمْ يَتَغَيَّرْ.
إِنَّهَا صُورَةُ النِّفَاقِ. وَالنِّفَاقُ فِي حَقِيقَتِهِ أَيْضًا نَقْضُ لِلْعَهْدِ.
فَاللِّسَانُ يَقُولُ: آمَنَّا، وَالْقَلْبُ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ.

ثُمَّ يَنْتَقِلْ إِلَى أَعْظَمِ نِعْمَةٍ أَضَاعَهَا أَهْلُ الْكِتَابِ:
 قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
 مِنْ رَبِّهِمْ﴾. (المائدة: 66).

لَا حِظَّ كَلِمَةٍ: ﴿أَقَامُوا﴾، لَمْ يَقُلْ: قَرُّوْا، وَلَا حَفِظُوا، بَلْ: أَقَامُوا، أَيَّ جَعَلُوهُ قَائِمًا فِي حَيَاتِهِمْ.
 وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

ثُمَّ يَنْتَقِلْ إِلَى خِطَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ:
 قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. (المائدة: 67).

لِمَاذَا جَاءَتْ هُنَا؟
 لِأَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَعْظَمُ عَهْدٍ عَلَى الرُّسُلِ هُوَ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ كَامِلَةً.
 وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. (المائدة: 67).
 أَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ أَوْفَى بِالْعَهْدِ الَّذِي كَلَّفَ بِهِ، كَمَا سَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾. (المائدة: 117).

وَهُنَا لِفَتَّةٍ دَقِيقَةٍ جَدًّا:

فِي وَسْطِ السُّورَةِ قَالَ: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. (المائدة: 67)،
 وَفِي آخِرِهَا: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾. (المائدة: 117).
 سُبْحَانَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ... الرَّسُولَانِ كِلَاهُمَا مِثَالٌ لِلْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.
 أَمَّا أَتْبَاعُهُمَا... فَمِنْهُمْ مَنْ وَفَى، وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ.

وَهَذَا فِي رَأْيِي مِنْ أَجْمَلِ الْخُيُوطِ الَّتِي تَفْتَدُّ مِنْ وَسْطِ السُّورَةِ إِلَى خِتَامِهَا.

ثُمَّ تَأْتِي الْمَفَاجَأُ: بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ... تَأْتِي آيَاتُ الْخَمْرِ!
 قَالَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ
 الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾. (90).

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْقَارِئُ: مَا عِلَاقَةُ الْخَمْرِ بِكُلِّ هَذَا؟

أَقُولُ لَكَ: هَذِهِ لَيْسَتْ أَحْكَامًا مُتَفَرِّقَةً. بَلْ هَذِهِ امْتِحَانَاتُ الْوَفَاءِ. هَلْ سَتَتَرَكُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا
 مُضِرَّةٌ فَقَطْ؟ لَا... بَلْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ قَالَ: اتْرُكْهَا، وَلِهَذَا لَمْ يَحْتِمِ بِقَوْلِهِ: "حُرِّمَتْ
 عَلَيْكُمْ"... بَلْ قَالَ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. (91).

يَا لَهَا مِنْ عِبَارَةٍ!! كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ: بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْبَيَانِ... هَلْ انْتَهَى الْأَمْرُ؟ هَلْ
 سَتُوفُونَ بِالْعَهْدِ؟ وَلِهَذَا جَاءَ جَوَابُ الصَّحَابَةِ الْعَمَلِيُّ: انْتَهَيْنَا يَا رَبَّنَا.

بَلَاغَةٌ جَمِيلَةٌ: لَاحِظْ أَنَّ افْتِتَاحَ السُّورَةِ كَانَ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.
وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَا يَقُولُ: "اتْرُكُوا الْخَمْرَ!!" بَلْ يَقُولُ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.
كَأَنَّ السُّورَةَ تَخْتَبِرُنَا: هَلْ أَصْبَحَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ سَجِيَّةً فِيكُمْ؟
أَمْ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَزَالُ يَحْتَاجُ إِلَى إِكْرَاهٍ؟

المَقْطَعُ السَّادِسُ (الآيَاتُ 82-120) مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

لِمَاذَا خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ السُّورَةَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟
قَدْ يَتَسَاءَلُ الْقَارِئُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ:

بَدَأَتِ السُّورَةُ بِالْأَحْكَامِ... ثُمَّ الْمَوَاقِيقِ... ثُمَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ... ثُمَّ الْقَضَاءِ... ثُمَّ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ...
ثُمَّ الْخَمْرِ... ثُمَّ الْوَصِيَّةِ... ثُمَّ فَجْأَةً... يَنْتَقِلُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ! هَلْ هَذَا انْتِقَالٌ
جَدِيدٌ؟

أَقُولُ: لَا، بَلْ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْسُّورَةِ!! ثُمَّ قَبْلَ الْحَوَارِ مَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ... يَمْهَدُ
اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ تَمْهيدًا دَقِيقًا.

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ... ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذْ
حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. (89).

لَاحِظْ... بَدَأَتِ السُّورَةُ بِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. (1).
وَقَبْلَ خِتَامِهَا يَقُولُ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

مَا زِلْنَا فِي الْمَوْضُوعِ نَفْسِهِ: الْعَهْدُ... الْعَقْدُ... الْيَمِينُ... الْمِيثَاقُ...

ثُمَّ تَأْتِي فَتْنَةُ الْخَمْرِ... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا
الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا
يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضْذَكِّمَ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۚ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. (90-91).

تَأَمَّلْ هَذَا السُّؤَالَ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. لَيْسَ أَمْرًا فَقَطْ... بَلْ هُوَ سُؤَالٌ يَخْتَبِرُ صِدْقَ الْعَهْدِ.

ثُمَّ تَأْتِي فَتْنَةُ الصَّيْدِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾. (94).

يَا اللَّهُ... هَذِهِ مِنْ جَمِيلِ آيَاتِ السُّورَةِ!! ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾: أَيُّ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَخْذَهُ بِسَهْوَةٍ...
وَلَكِنَّكَ لَا تَأْخُذُهُ... لِمَاذَا؟

لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ نَهَاكَ. هَذَا هُوَ الْوَفَاءُ الْحَقِيقِيُّ: أَنْ تَتْرَكَ الْمَعْصِيَةَ مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَيْهَا.

وَلِهَذَا خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.
هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْحَقِيقَةِ تَفْسِيرٌ عَمَلِيٌّ لِأَوَّلِ السُّورَةِ.

ثُمَّ يَأْتِي مَشْهَدُ الْقِيَامَةِ: وَفَجَاءَ... يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ.
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا
أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (109).

قِفْ هُنَا. مَا السُّؤَالُ؟ لَمْ يَقُلْ: مَاذَا فَعَلْتُمْ؟ بَلْ قَالَ: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.
لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْقَضِيَّةَ أَصْبَحَتْ: هَلْ أَوْصَلْتُمْ الرِّسَالَةَ إِلَى النَّاسِ؟ وَهَلِ اسْتَجَابَ النَّاسُ لِلْعَهْدِ؟

ثُمَّ يَبْدَأُ أَعْظَمَ حِوَارٍ!! قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ (110).
انْظُر... بَدْءٌ بِالنِّعْمَةِ... وَهَذَا يُعِيدُنَا إِلَى قَوْلِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ:
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (3).
النِّعْمَةُ... ثُمَّ الْمَسْئُولِيَّةُ.

لِمَاذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُعْجَزَاتِ؟
قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ
بِإِذْنِي﴾ (110).

انْظُرْ هُنَا لُطْفًا دَقِيقًا!! تَكَرَّرَتْ عِبَارَةُ: ﴿بِإِذْنِي﴾... مَرَّةً... ثُمَّ مَرَّةً... ثُمَّ مَرَّةً...
حَتَّى لَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَلَ شَيْئًا مُسْتَقِلًّا عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،
جَلَّ جَلَالُهُ!! كُلُّ شَيْءٍ... بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جَلَّ جَلَالُهُ.
وَهَذَا تَمْهِيدٌ لِلسُّؤَالِ الْأَخِيرِ!! ثُمَّ تَأْتِي قِصَّةُ الْمَائِدَةِ:
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ
وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (114).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.
(115)... لِأَنَّ قِصَّةَ الْمَائِدَةِ تُلَخِّصُ رِسَالَةَ السُّورَةِ كُلِّهَا.

فَالسُّورَةُ تَقُولُ: اُنْعَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جَلَّ جَلَالُهُ، عَلَيْكُمْ بِالْدِّينِ... ثُمَّ أَكْمَلَ لَكُمْ الشَّرِيعَةَ.
وَبَيَّنَ لَكُمْ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ... وَأَخَذَ عَلَيْكُمْ الْمِيثَاقَ... فَهَلْ سَتُوفُونَ؟

وَهَذَا بِالضَّبِطِ مَا حَدَّثَ مَعَ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ!! أُعْطُوا نِعْمَةً!! ثُمَّ صَارُوا مَسْئُولِينَ عَنْهَا.
وَلِذَلِكَ أَضْبَحَتِ الْمَائِدَةُ رَمْزًا لِكُلِّ نِعْمَةٍ يُسْأَلُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا.

خَاتِمَةُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (116-120)

الْمَحْكَمَةُ الْكُبْرَى ﷻ: بَعْدَ أَنْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جَلَّ جَلَالُهُ:
{قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ
الْعَالَمِينَ}. (115)...ظَنَنْتُمْ أَنَّ الْقِصَّةَ قَدْ انْتَهَتْ!! لَكِنْ لَا...!! بَلْ سَتَبْدَأُ الْآنَ الْمَحَاكِمَةَ.

أَوَّلُ سُؤَالٍ... قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالَ سُبْحَانِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا
فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}. (المائدة: 116).

وَهُنَا أَقِفْ طَوِيلًا!! هَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَعْلَمُ الْجَوَابَ؟! حَاشَا.
إِذَنْ لِمَازَا السُّؤَالُ؟

السُّؤَالُ لَيْسَ لِاسْتِخْرَاجِ الْمَعْلُومَةِ... بَلْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ أَمَامَ الْخَلْقِ جَمِيعًا.
ثُمَّ يَأْتِي أَعْظَمُ تَعْرِيفٍ لِلرَّسَالَةِ!! قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ
فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}. (المائدة: 117).
يَا اللَّهُ...!! هَلْ تَرَوْنَ مَاذَا قَالَ؟ لَمْ يَقُلْ: عَلَّمْتُهُمْ.
وَلَا: أَظْهَرْتُ لَهُمُ الْمُعْجَزَاتِ!! وَلَا: دَعَوْتُهُمْ!! بَلْ قَالَ: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ}!!
هَذَا هُوَ الْوَفَاءُ الْكَامِلُ بِالْعَهْدِ.

تَذَكَّرُوا أَوَّلَ السُّورَةِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}. (المائدة: 1).
وَفِي آخِرِهَا... يَقِفُ رَسُولُ كَرِيمٍ يَقُولُ: لَقَدْ أَوْفَيْتُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ أَمَرْتَنِي بِهَا.
فَسُبْحَانَ مَنْ أَحْكَمَ أَوَّلَ السُّورَةِ وَآخِرَهَا!

ثُمَّ لَا حِظُّوا كَلِمَةَ "شَهِيدٌ"... قَالَ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ}.
هَلْ تَتَذَكَّرُونَ أَوَّلَ السُّورَةِ؟ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ}. (المائدة: 8).

وَفِي وَسْطِ السُّورَةِ: {شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ}. (المائدة: 106).
وَفِي آخِرِهَا: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}. (المائدة: 117).

لَيْسَتْ مُصَادِفَةً!! الشَّهَادَةُ تَمْتَدُّ عَبْرَ السُّورَةِ كُلِّهَا:

شَهَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْقَضَاءِ... شَهَادَةُ الْأُمَّةِ بِالْعَدْلِ... شَهَادَةُ الرَّسُولِ عَلَى أُمَّتِهِ.
وَكَانَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ آدَاءِ الشَّهَادَةِ.

ثُمَّ تَأْتِي قِمَّةُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!! قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
{إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. (المائدة: 118).

تَأْمَلُوا... لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ!! وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ التَّعْبِيرَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ قَضَاءٍ وَحُكْمٍ.
فَنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ: {فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. أَيُّ أَنَّ مَغْفِرَتَكَ لَيْسَتْ عَنْ عَجْزٍ وَإِنَّمَا عَنْ
عِزَّةٍ، وَلَيْسَتْ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ، وَإِنَّمَا عَنْ حِكْمَةٍ... وَهَذِهِ مِنْ دَقَائِقِ الْبَلَاغَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ثُمَّ تَأْتِي آخِرُ آيَةٍ فِي السُّورَةِ... قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقُهُمْ ۖ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. (المائدة: 119).

قف هنا... آخِرُ كَلِمَةٍ مَحَوْرِيَّةٍ فِي السُّورَةِ هِيَ: الصَّدَقُ!! وَلَيْسَ هَذَا أَمْرًا عَارِضًا.
لِأَنَّ الْعَقْدَ... لَا يَحْفَظُهُ إِلَّا الصَّدَقُ.
وَالْمِيثَاقَ... لَا يَحْفَظُهُ إِلَّا الصَّدَقُ.
وَالشَّهَادَةَ... لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى الصَّدَقِ.
وَالرِّسَالَةَ... لَا يُؤَدِّيهَا إِلَّا الصَّادِقُ.
وَلِذَلِكَ خُتِمَتِ السُّورَةُ بِالصَّدَقِ.
ثُمَّ الْخِتَامَةُ الْأَخِيرَةُ!! قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. (المائدة: 120).

وَقَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ: مَا عِلَاقَةُ هَذِهِ الْآيَةِ بِالسُّورَةِ؟

أَقُولُ... السُّورَةُ كُلُّهَا كَانَتْ تَقُولُ:
أَوْفُوا..... احْكُمُوا..... لَا تَحْرَفُوا..... لَا تَنْقُضُوا..... اتَّبِعُوا..... انْتَهُوا.

فَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْإِنْسَانُ: وَلِمَاذَا؟
فَتَأْتِي آخِرُ آيَةٍ لِشَجِيبٍ: لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمَالِكُ!! وَمَنْ مَلَكَ كُلِّ شَيْءٍ... فَلَهُ وَحْدَهُ

حَقُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ!! وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ حَلَقَةُ الْوَصْلِ الَّتِي تَرْبِطُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ بِسُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

تَأْمَلُوا أَوَّلَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}. (سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 1).

وَانْظُرُوا إِلَى آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ}. (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 120).

سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، جَلَّ جَلَالُهُ... الْمَائِدَةُ تَخْتِمُ بِالْمُلْكِ، وَالْأَنْعَامُ تَبْدَأُ بِالْخَلْقِ. وَكَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقُولُ: مَنْ خَلَقَ... هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ... وَمَنْ مَلَكَ... هُوَ الَّذِي يُشَرِّعُ.

وَلِذَلِكَ تَأْتِي سُورَةُ الْأَنْعَامِ بَعْدَ سُورَةِ الْمَائِدَةِ مُبَاشَرَةً لِتَوْصُلِ قَضِيَّةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ وَفَاءَ الْعَهْدِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ:

الْأَنْعَامُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا الْحَيَوَانَاتُ نَفْسُهَا... بَلْ إِنَّ الْأَنْعَامَ أَصْبَحَتْ رَمْزًا لِمَعْرَكَةِ التَّشْرِيعِ.
لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُحَلِّلُونَ وَيُحَرِّمُونَ فِيهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
{وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ}. (الْأَنْعَامُ: 138).

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ}. (الْأَنْعَامُ: 143).
إِذَنْ، إِسْمُ السُّورَةِ يُعْلِنُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ: قَضِيَّةُ السُّورَةِ لَيْسَتْ الْأَنْعَامُ، وَإِنَّمَا: مَنْ يَمْلِكُ حَقَّ التَّحْلِيلِ
وَالْتَحْرِيمِ؟

مَوْقِعُهَا فِي الْخَرِيطَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:
انْظُرُوا إِلَى التَّسْلُسِلِ:

الْبَقَرَةُ: بِنَاءُ الْأُمَّةِ.
آلُ عِمْرَانَ: تَثْبِيثُ الْأُمَّةِ.
النِّسَاءُ: تَنْظِيمُ الْأُمَّةِ.
الْمَائِدَةُ: وِفَاءُ الْأُمَّةِ بِعَهْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
الْأَنْعَامُ: لِمَاذَا يَكُونُ عَهْدُ اللَّهِ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُطَاعُ؟

وَهُنَا يَظْهَرُ الرِّبْطُ مَعَ الْمَائِدَةِ.
انْتَهَتْ الْمَائِدَةُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. (الْمَائِدَةُ: 120).

ثُمَّ افْتَتَحَتْ الْأَنْعَامُ بِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}. (الْأَنْعَامُ: 1).
الْمُلْكُ فِي آخِرِ الْمَائِدَةِ يَقُودُ إِلَى الْخَلْقِ فِي أَوَّلِ الْأَنْعَامِ... وَمَنْ خَلَقَ... هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ.
وَمَنْ مَلِكٌ... هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ.

القَضِيَّةُ الْكُبْرَى لِلْسُّورَةِ: لَوْ حَاوَلْنَا أَنْ نُلَخِّصَ الْأَنْعَامَ كُلَّهَا فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْنَا:
إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ وَالْحَاكِمِيَّةِ، وَإِبْطَالُ كُلِّ شَرِيكَ فِي التَّشْرِيعِ
وَالْعِبَادَةِ... وَلِهَذَا تَتَكَرَّرُ فِيهَا عِبَارَاتٌ مِثْلُ:

{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (الأنعام: 12).

{قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (الأنعام: 14).

{إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} (الأنعام: 57).

{أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} (الأنعام: 62).

ثُمَّ تُخْتَمُ السُّورَةُ كُلُّهَا بِإِعْلَانِ الْعُبُودِيَّةِ الْكَامِلَةِ:

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ} (الأنعام: 162-163).

وَهَذَا هُوَ مِفْتَاحُ السُّورَةِ كُلِّهَا.

حَرَكَةُ السُّورَةِ: وَهُنَا أَرَى جَمَالًا عَجِيبًا!! السُّورَةُ لَا تَتَحَرَّكُ فِي خُطُوطٍ مُتَفَرِّقَةٍ. بَلْ تَصْعَدُ بِالْقَلْبِ فِي خَمْسِ دَرَجَاتٍ.

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى: مَنْ هُوَ اللَّهُ؟

مِنَ الْآيَةِ (1) إِلَى (73) تَقْرِيْبًا.

تَعْرِضُ السُّورَةُ أُدِلَّةَ الرُّبُوبِيَّةِ: الْخَلْقُ... الْمُلْكُ... الْعِلْمُ... الرَّحْمَةُ... الْقَهْرُ... الْبَغْثُ.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...} (سورة الأنعام: 1).
وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ { (سورة الأنعام: 12).

فَالْإِنْسَانُ لَا يُؤْمَرُ أَوَّلًا... بَلْ يُعَرَّفُ بِرَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ: كَيْفَ عَرَفَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

مِنَ الْآيَاتِ (74) إِلَى (90) تَقْرِيْبًا... تَأْتِي قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَهُنَا انْتَبَهُوا... لَيْسَتْ الْقِصَّةُ لِلتَّارِيخِ، بَلْ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُمَثِّلُ الْعَقْلَ الْبَاحِثَ عَنِ الْحَقِّ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا...} (سورة الأنعام: 76).

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} (سورة الأنعام: 76).

ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى أَعْظَمِ إِعْلَانٍ فِي السُّورَةِ: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (سورة الأنعام: 79).

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَا لَيْسَ مُجَرَّدَ نَبِيٍّ... بَلْ نُمُوذَجُ لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ الْوَصُولَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المرحلة الثالثة: الوحي هو الطريق... بعد أن أثبتت السورة وجود الله سبحانه وتعالى ووحدايته... انتقلت إلى الوحي.

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ (سورة الأنعام: 92). أي: بعد أن عرفت ربك... فخذ كتابه، القرآن الكريم.

المرحلة الرابعة: من يملك حق التشريع؟

وهنا تصل السورة إلى ذروتها، فتبطل تحريمات المشركين كلها. قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ (سورة الأنعام: 150). ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ (سورة الأنعام: 143). وكأن السورة تسألهم: من أين جئتم بهذه الأحكام؟ هل عندكم وحي من الله سبحانه وتعالى؟ أم مجرد أهواء؟

المرحلة الخامسة: ثمرة التوحيد... بعد أن عرفت ربك... وعرفت كتابه... وعرفت أن الحكم له جل جلاله... ما النتيجة؟

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ (سورة الأنعام: 151-153)... هذه الآيات في رأيي هي دستور الحياة في السورة.

ولاحظوا أنها بدأت بـ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. ثم انتهت بـ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (سورة الأنعام: 153).

العلاقة بين أول السورة وآخرها: هذه من أجمل الروابط. افتتحت السورة بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وختمت بـ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (سورة الأنعام: 162-163).

سُبْحَانَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ... في البداية: تَعَرَّفَ عَلَى رَبِّكَ. وفي النهاية: سَلَّمَ لَهُ حَيَاتِكَ كُلَّهَا... إذن، البداية معرفة... والنهاية عبودية.

العلاقة بسورة الأعراف: إذا انتهت الأنعام بإعلان التوحيد الكامل:

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: 163). فَإِنَّ سُورَةَ الْأَعْرَافِ جَاءَتْ لِتُجِيبَ عَنْ سُؤَالٍ: وَكَيْفَ تَعَامَلَتِ الْأُمَّمُ السَّابِقَةُ مَعَ هَذَا التَّوْحِيدِ؟

ولهذا تبدأ الأعراف بالحديث عن الكتاب والإنذار:

{كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ} (سورة الأعراف: 2).

ثم تعرض قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام، لثبينة أن القضية التي قررتها سورة الأنعام ليست نظرية، بل هي محور تاريخ الرسالات.

ما الرسالة التي أريد أن أخرج بها من سورة الأنعام؟

إِذَا امْتَأَلَا قَلْبُكَ يَقِينًا بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْخَالِقُ، وَالْمَالِكُ، وَالزَّازِقُ،
وَالْعَلِيمُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْحَاكِمُ، فَلَنْ يَبْقَى فِي قَلْبِكَ مَوْضِعٌ لِتَشْرِيعٍ يُقَدِّمُ عَلَى تَشْرِيعِهِ، وَلَا
لِعِبَادَةٍ تُصَرِّفُ لِعَيْرِهِ، وَتَقُولُ بِصَدَقِ:

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (سورة الأنعام: 162-163).

سُورَةُ الْأَعْرَافِ:

تَبْنِي سُورَةُ الْأَعْرَافِ مِنْ بَدَايَتِهَا إِلَى نَهَايَتِهَا رُؤْيَةً وَاحِدَةً مُتَمَاسِكَةً تَقُومُ عَلَى أَصْلِ وَاحِدٍ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبْتَلَى بِغِيَابِ الْهَدَايَةِ، بَلْ بِوُجُودِهَا مَعَ اخْتِبَارِ طَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَهَا، وَلِذَلِكَ جَاءَ افْتِتَاحُ السُّورَةِ مُبَاشَرَةً بِالتَّوْجِيهِ الْجَامِعِ الَّذِي يُحَدِّدُ خَطَّ السَّيْرِ كُلَّهُ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. [الأعراف: ٣]

مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ تَتَّحَدَّدُ رِسَالَةُ السُّورَةِ كُلِّهَا:

هُنَاكَ وَحْيٌ وَاحِدٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، وَهُنَاكَ بَدَائِلُ يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ فِي طَاعَتِهِمْ، مِثْلَ الْأَوْلِيَاءِ!!
فَالْآيَةُ وَصَفَتْهُمْ بِهَذَا الْوَصْفِ!!

وَقَدْ يَكُونُونَ فِعْلًا أَوْلِيَاءَ، أَوْ زُبْمًا شَيْاطِينٍ بِصُورَةِ أَوْلِيَاءَ، فَيَسْتَبْدِلُ بِهِمُ النَّاسُ مَرْجِعِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَقْعُونَ فِي الانْحِرَافِ، حَتَّى لَوْ بَدَأَ هَذَا الانْحِرَافُ فِي ظَاهِرِهِ مَقْبُولًا أَوْ مُبَرَّرًا، وَتَحْتَ شِعَارِ بَعْضِ الْآيَاتِ الْمُفْتَتَحَةِ مِنْ سِيَاقِهَا، أَوْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْمُخَالِفَةِ لِلْوَحْيِ تَمَامًا، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

ثُمَّ تَأْتِي الْقِصَّةُ الْأُولَى فِي السُّورَةِ لِتُكْشِفَ أَصْلَ هَذَا الانْحِرَافِ فِي جَذَرِهِ الْحَقِيقِيِّ، فَيُعْرَضُ مَشْهَدُ السُّجُودِ لِآدَمَ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. [الأعراف: ١١]

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. [الأعراف: ١٢]

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. [الأعراف: ١٢]

إِبْلِيسُ هُنَا يُمَثِّلُ النَّمُودَجَ الْأَوَّلَ لِلانْحِرَافِ، وَهُوَ رَفُضُ الْأَمْرِ وَرَدُّهُ عَلَى الْأَمْرِ بِسَبَبِ الْكِبَرِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ رَفُضٍ بَسِيطٍ، بَلْ رَفُضٌ مَبْنِيٌّ عَلَى تَقْدِيمِ مِغْيَارٍ ذَاتِيٍّ عَلَى الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ، أَيْ تَحْوِيلِ الْمَرْجِعِيَّةِ مِنْ "الْوَحْيِ" إِلَى "النَّظَرِ الشَّخْصِيِّ" إِلَى "أَنَا".

وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تَتَفَرَّغُ مِنْهُ كُلُّ صُورِ الانْحِرَافِ لَاحِقًا.

بَعْدَ ذَلِكَ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ مَعَ الرُّسُلِ، حَيْثُ يَتَكَرَّرُ نَفْسُ الْمَشْهَدِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَلَكِنْ بِتَفَاصِيلٍ مُخْتَلِفَةٍ، كُلُّ رَسُولٍ يَأْتِي بِدَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ وَاضِحَةٍ:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾. [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]

لَكِنَّ الرَّفُضَ يَأْتِي غَالِبًا مِنْ خِلَالِ مَنْظُومَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُقَاوِمُ هَذَا التَّوْجِيهِ، حَيْثُ يَظْهَرُ دَوْرُ "الْمَلَإِ" وَ"السَّادَةِ" وَ"الْعُلَمَاءِ" وَ"الْأَجْدَادِ" بِاِغْتِبَارِهِمُ الْمَرْجِعَ الْبَدِيلَ الَّذِي يُتَّبَعُ:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا...﴾. [الأعراف: ٧٥]

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ...﴾. [الأعراف: ٨٨]

فَتَأْمَلُوا... فِي الْآيَةِ الْأُولَى قَالَ: {اسْتَكْبَرُوا}، ثُمَّ فِي الثَّانِيَةِ قَالَ: {كَفَرُوا}!!

أَيُّ أَنَّ الاسْتِكْبَارَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ.

وَهَذَا الَّذِي وَقَعَ فِيهِ إِبْلِيسُ مِنْ قَبْلَهُمْ، قَالَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

[البقرة: ٣٤]

هُنَا بَدَأَ إِبْلِيسُ يُصَدِّرُ لِبَنِي آدَمَ خُطُوطَهُ!! وَيَتَّضِحُ أَنَّ الانْحِرَافَ لَا يَقُومُ فَقَطْ عَلَى انْكَارِ الرِّسَالَةِ،

بَلْ عَلَى وُجُودِ طَبَقَةٍ قِيَادِيَّةٍ تَتَحَوَّلُ إِلَى "أَوْلِيَاءَ" فِعْلِيِّينَ، تُقَدِّمُ طَاعَتَهُمْ عَلَى طَاعَةِ الْوَحْيِ،

فَيَتَشَكَّلُ دِينٌ اجْتِمَاعِيٌّ بِدِيلٍ دَاخِلِ الْمُجْتَمَعِ.

وَفِي خَلْفِيَّةِ هَذَا الْمَشْهَدِ يَظْهَرُ سَبَبٌ آخَرٌ مُتَكَرِّرٌ لِلانْحِرَافِ، وَهُوَ الاسْتِنَادُ إِلَى الْمَوْرُوثِ بَدَلِ

الْوَحْيِ: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾. [الأعراف: ٧٠]

ثُمَّ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى مَرَحَلَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ يَتَجَلَّى الصَّرَاغُ فِي صُورَتِهِ الْكُبْرَى بَيْنَ

الْوَحْيِ وَالسُّلْطَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَدَّعِي الْقِيَادَةَ وَاحْتِكَارَ الْوَلَايَةِ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. [الأعراف: ١٠٣]

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾. [الأعراف: ١٠٣].....﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. [الأعراف: ١٣٦]

فِرْعَوْنُ هُنَا يُمَثِّلُ أَقْصَى صُورِ "الْأَوْلِيَاءِ" حِينَ تَتَحَوَّلُ الرِّعَايَةُ إِلَى تَشْرِيعٍ، فَيُسْتَبَدَلُ الْوَحْيُ

بِالسُّلْطَةِ، وَتُبْنَى مَنظُومَةٌ كَامِلَةٌ مِنَ الطَّاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي مُقَابِلِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ تَخْتَتِمُ السُّورَةُ مَشْهَدَهَا النِّهَايِّيَّ فِي الْآخِرَةِ، حَيْثُ تَظْهَرُ النَّتِيجَةُ الْحَثَمِيَّةُ لِهَذَا الْمَسَارِ الطَّوِيلِ:

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [الأعراف: ٨]

﴿وَالَّذِينَ خَفَّتْ مَوَازِينُهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. [الأعراف: ٩]

بِهَذَا يَتَّضِحُ الْبِنَاءُ الْكَامِلُ لِلسُّورَةِ: وَحْيٌ وَاحِدٌ فِي الْبِدَايَةِ، ثُمَّ اخْتِبَارٌ مُسْتَمِرٌّ لِطَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَهُ،

ثُمَّ تَتَكَرَّرُ صُورَةُ الانْحِرَافِ عَبْرَ التَّارِيخِ فِي شَكْلَيْنِ رَئِيسِيَّيْنِ:

انْحِرَافٌ صَرِيحٌ كَكِبَرِ إِبْلِيسَ فِي تَقْدِيمِ الذَّاتِ عَلَى الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ.

وَانْحِرَافٌ اجْتِمَاعِيٌّ أَعْمَقُ يَتِمَثَّلُ فِي اسْتِبْدَالِ الْوَحْيِ بِأَوْلِيَاءَ مِنْ بَشَرٍ أَوْ تَقَالِيدٍ أَوْ سُلْطَاتٍ

أَوْ أَغْرَافٍ، حَتَّى يُصْبِحَ هَذَا الاسْتِبْدَالُ هُوَ الدِّينَ الْعَمَلِيُّ دَاخِلِ الْمُجْتَمَعَاتِ، رَغْمَ بَقَاءِ

خِطَابِ الْهَدَايَةِ ظَاهِرًا... وَفِي كُلِّ ذَلِكَ تَبْقَى الْقَاعِدَةُ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ، وَالَّتِي افْتُتِحَتْ بِهَا السُّورَةُ وَخُتِمَتْ مَعْنَاهَا الْعَامُّ:

أَنَّ التَّجَاهَ لَيْسَتْ فِي كَثْرَةِ الطُّرُقِ، بَلْ فِي الْمَصْدَرِ الْوَاحِدِ لِلاتِّبَاعِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. وَأَنَّ الانْحِرَافَ يَبْدَأُ لَحْظَةً انْتِقَالَ الطَّاعَةِ مِنَ الْوَحْيِ إِلَى أَيِّ مَرْجِعِيَّةٍ أُخْرَى تُجْعَلُ فِي مَقَامِ "الْأُولِيَاءِ".

وَهُنَاكَ عِلَاقَةٌ وَاضِحَةٌ وَقَوِيَّةٌ بَيْنَ نِهَايَةِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَبِدَايَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَهَذِهِ الْعِلَاقَةُ هِيَ الْإِنْتِقَالُ «مِنْ تَأْسِيسِ الْعَقِيدَةِ إِلَى صَبْطِ مَسَارِ التَّطْبِيقِ».

فَنِهَايَةُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ تَصِلُ إِلَى خُلَاصَةٍ حَاسِمَةٍ فِي التَّوْحِيدِ وَالِاتِّبَاعِ، حَيْثُ يُخْتَتَمُ الْمَعْنَى الْعَامُّ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْمَالِكُ الْمُطْلَقُ، وَأَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ النَّهَائِيَّةَ لَهُ وَحْدَهُ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

{قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ}.

(سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٦٢-١٦٣)

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً تَقْرِيرٌ:

أَنَّ الدِّينَ قَائِمٌ عَلَى هَذَا الْإِخْلَاصِ الْكَامِلِ فِي الْإِتِّجَاهِ وَالطَّاعَةِ، وَأَنَّ الْإِنْحِرَافَ هُوَ كُلُّ مَا كَانَ فِيهِ إِشْرَاكٌ فِي هَذَا التَّوَجُّهِ، وَالْكَلَامُ هُنَا إِلَى الْآنَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَاعِدَةٍ عَقَائِدِيَّةٍ نَظَرِيَّةٍ فَقَطْ!!

فِي الْمُقَابِلِ، تَبْدَأُ سُورَةُ الْأَعْرَافِ مُبَاشَرَةً إِلَى التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ، وَلَيْسَ مِنْ إِعَادَةِ تَقْرِيرِهَا، مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

{اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أُولِيَاءَ} (سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣)

هُنَا يَظْهَرُ الْإِنْتِقَالُ الدَّقِيقُ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ:

فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: تَثْبِيثُ أَنَّ الْعِبَادَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ بِلا شَرِيكَ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: بَيَانُ أَنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ يَتَحَقَّقُ عَمَلِيًّا عَبْرَ اتِّبَاعِ الْوَحْيِ وَرَفْضِ أَيِّ مَرْجِعِيَّةٍ بَدِيلَةٍ.

وَكَأَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ تَقُولُ: «هَذَا هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُقْصَدَ».

وَسُورَةُ الْأَعْرَافِ تَقُولُ: «هَذَا هُوَ التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِكَيْفِيَّةِ الْإِتِّبَاعِ».

ثُمَّ تَظْهَرُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مُبَاشَرَةً قِصَصُ الْإِنْحِرَافِ التَّارِيخِيِّ (إِبْلِيسَ، وَالْأُمَمَ، وَالْأَنْبِيَاءَ)، لِأَنَّهَا تَطْبِيقُ عَمَلِيٍّ لِمَا تَقَرَّرَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

أَنَّ أَيَّ انْحِرَافٍ عَنِ مَنَهْجِ اللَّهِ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ لَيْسَتْ مُشْكِلَتُهُ فَقَطْ فِي عَدَمِ مَعْرِفَةِ الْمَنَهْجِ، بَلْ فِي طَرِيقَةِ الْإِتِّبَاعِ وَنَوْعِيَةِ الْمَرْجِعِيَّةِ.

لَيْسَتْ الْمُسْكِلَةُ فِي أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْرِفُوا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ... بَلْ أَنَّهُمْ لَمْ يُفَرِّدُوهُ فِي الطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ (الْعِبَادَةِ)!!

عِنْدَمَا نَسْمَعُ كَلِمَةَ "الْمُشْرِكِينَ" قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّ أُولَئِكَ الْقَوْمَ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَصْنَامَ هِيَ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهِيَ الَّتِي تَزُرُّقُ النَّاسَ وَتُدَبِّرُ أُمُورَهُمْ.

لَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَغْرِضُ لَنَا صُورَةً مُخْتَلِفَةً تَمَامًا. فَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ، وَيَقْرُونَ بِأَنَّهُ خَالِقُ الْكَوْنِ كُلِّهِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الْفُتُوح: ٢٥]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {قُلْ مَنْ يَزُرُّكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يُونُس: ٣١].

إِذَنْ لَمْ تَكُنِ الْمُسْكِلَةُ فِي أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ!! بَلْ كَانَتْ الْمُسْكِلَةُ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَحْدَهُ طَاعَةً مُطْلَقَةً، وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى... وَلِهَذَا قَالُوا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْهُمْ: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزُّمَر: ٣]. وَقَالُوا: {هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يُونُس: ١٨].

فَهُمْ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ - وَالَّتِي كَانَتْ فِي حَقِيقَتِهَا مُجَسَّمَاتٍ وَتَمَائِيلَ لِأَوْلِيَاءِ صَالِحِينَ، أَوْ رُبَّمَا كَانَ النَّاسُ يَظُنُّونَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ صَالِحُونَ - خَلَقَتِ الْكَوْنَ. وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوا لَهَا مَكَانَةً لَا تَجُوزُ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَظَنُّوا أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ، فَوَقَعُوا فِي الْخَطِئِ الَّذِي حَدَّرَ مِنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

وَهُنَا نَصِلُ إِلَى مَعْنَى مُهِمٍّ جَدًّا!! إِنَّ الْمُسْكِلَةَ لَمْ تَكُنْ فِي مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ أَوْ اخْتِرَامِ الْأَنْبِيَاءِ، فَمَحَبَّةِ الْخَيْرِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ أَمْرٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ. فَإِلَى النَّاسِ قَدْ يُحِبُّ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَقَدْ يُحِبُّ وَالِدِيهِ، وَقَدْ يُحِبُّ أَهْلَ الصَّلَاحِ. لَكِنَّ الشَّوَالَ الَّذِي يَصْغُهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَمَامَنَا هُوَ:

هَلْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ مِثْلَ مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ؟
وَهُنَا تَأْتِي الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

تَأْمَلُوا كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي الْآيَةِ: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾.
لَمْ يَقُلِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِنَّهُمْ لَمْ يُحِبُّوا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ!! بَلْ أَخْبَرَنَا أَنَّ الْخَطَأَ كَانَ أَنََّّهُمْ جَعَلُوا
لِعَبِيرِ اللَّهِ مَحَبَّةً تُشَبِّهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ.

وَهُنَا يَطْهَرُ الْفَرْقُ الْكَبِيرُ: أَنْ تُحِبَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ شَيْءً، وَأَنْ تَجْعَلَ لَهُ مَكَانَةً لَا تَكُونُ إِلَّا
لِلَّهِ شَيْءٌ آخَرُ!! أَنْ تَحْتَرِمَ إِنْسَانًا صَالِحًا شَيْءً، وَأَنْ تَجْعَلَ طَاعَتَهُ أَوْ دُعَاءَهُ أَوْ التَّعَلُّقَ بِهِ مِثْلَ
التَّعَلُّقِ بِاللَّهِ شَيْءٌ آخَرُ!!

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى كَلِمَةِ "وَحْدَهُ" الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ اغْتِرَاضِ الْأَمَمِ عَلَى رُسُلِهِمْ.
قَالَ قَوْمٌ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. [الأعراف: ٧٠].

تَأْمَلُوا... لَمْ يَقُولُوا: أَجِئْنَا لِتُخْبِرَنَا أَنَّ هُنَاكَ رَبًّا اسْمُهُ اللَّهُ!!
وَلَمْ يَقُولُوا: أَجِئْنَا لِنَعْرِفَ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ!!
بَلْ كَانَ اغْتِرَاضُهُمْ عَلَى كَلِمَةِ وَاحِدَةٍ: ﴿وَحْدَهُ﴾.
أَيُّ: لِمَاذَا نَتْرُكُ مَا اعْتَدْنَا عَلَيْهِ مِنْ وَسَائِطٍ وَمَمُورَوَاتٍ، وَنَجْعَلُ الطَّاعَةَ الْمُطْلَقَةَ لِلَّهِ جَلَّ
جَلَالُهُ وَحْدَهُ؟

وَلِهَذَا بَدَأَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ بِالْقَاعِدَةِ الْكُبْرَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. [الأعراف: ٣].

فَالْقَضِيَّةُ الَّتِي يُعَالِجُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَيْسَتْ فَقَطْ: هَلْ تُؤْمِنُ بِوُجُودِ اللَّهِ؟

بَلِ السُّؤَالُ الْأَعَمُّ: مَنِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تُتَّبَعَ؟
وَمَنِ الَّذِي تَجْعَلُ لَهُ الطَّاعَةَ الْمُطْلَقَةَ؟
وَلِهَذَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعْنَى "اللَّهُ وَحْدَهُ".

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾
[الإسراء: ٤٦].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.
[الزمر: ٤٥].

وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾. [غافر: ١٢].

فَكَانَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقُولُ لَنَا:

إِنَّ الْمَعْرَكَةَ الَّتِي جَاءَتْ الرُّسُلُ مِنْ أَجْلِهَا لَمْ تَكُنْ لِإِثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ مَوْجُودٌ فَقَطْ،
بَلْ كَانَتْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعُودَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى، أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ،
وَأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَرْجِعِيَّتَهُ الْأُولَى وَالْآخِرَةَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِتُعَلِّمَ الْمُؤْمِنَ دَرْسًا آخَرَ، وَلِكِنَّهُ مِنْ نَفْسِ الطَّرِيقِ.
فَبَعْدَ أَنْ رَأَيْنَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَقْوَامًا جَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَائِطَ، نَرَى فِي
سُورَةِ يُوسُفَ كَيْفَ يُزَيِّي اللَّهُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْ لَا يَتَعَلَّقَ الْقَلْبُ إِلَّا بِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

قَالَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَاحِبِهِ الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنَ السَّجْنِ: ﴿ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.
[يُوسُفَ: ٤٢].

فَأَخَذَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، فَإِلْإِنْسَانُ مَأْمُورٌ أَنْ يَسْعَى
وَيَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ.

لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَنَا أَنَّ السَّبَبَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا بِذَاتِهِ، وَأَنَّ الْقَلْبَ لَا يَنْبَغِي أَنْ
يَعْتَمِدَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾. [يُوسُفَ: ٤٢].

ثُمَّ جَاءَتْ النَّهَايَةُ لِتُبَيِّنَ الْحَقِيقَةَ:

لَمْ يَخْرُجْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّجْنِ بِسَبَبٍ صَاحِبِهِ، وَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهُ لَهُ الْبَابَ عَنْ طَرِيقِ ذَلِكَ
السَّبَبِ، بَلْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبَاشَرَةً:
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾. [يُوسُفَ: ٥٤].

وَكَانَ سُورَةُ يُوسُفَ تَقُولُ لَنَا:

خُذْ بِالْأَسْبَابِ، وَلَكِنْ لَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ أُسِيرًا لَهَا، وَاسْتَعِزْ بِالنَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لَا تَجْعَلْ
تَعَلُّقَكَ بِهِمْ كَتَعَلُّقِكَ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَاطْرُقِ الْأَبْوَابَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ طَرَفُهَا، وَلَكِنْ ااعْلَمْ أَنَّ الَّذِي
يَفْتَحُ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَهُنَا يَظْهَرُ جَمَالُ التَّرَابِطِ بَيْنَ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَسُورَةُ الْأَعْرَافِ تُعَلِّمُ الْإِنْسَانَ:

لَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ تَتَّبِعُهُمْ بَدَلَ الْوَحْيِ.

وَسُورَةُ يُوسُفَ تُعَلِّمُ الْإِنْسَانَ: لَا تَجْعَلِ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَسْتَخْدِمُهَا تَسْتَوِلِي عَلَى قَلْبِكَ بَدَلَ اللَّهِ.
وَفِي كِلْتَا السُّورَتَيْنِ يَعُودُ الْمَعْنَى نَفْسُهُ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْأَوَّلُ فِي الْقَلْبِ،

وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْمَرْجِعُ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ.
فَالْتَّوْحِيدُ لَيْسَ فَقَطْ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُ مُوجُودٌ.
بَلْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَيُطَاعُ، وَتَبْقَى كُلُّ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى
أَسْبَابًا فِي يَدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، لَا بَدَائِلَ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ:

عَوْدَةً سَرِيعَةً لِرَبِّطِ السُّورِ مَعَ بَعْضِهَا الْبَعْضَ حَتَّى لَا يَنْقَطِعَ الْخَيْطُ الرَّابِطُ بَيْنَهَا:
تَبْدَأُ سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِتَفْصِيلِ الْأَصْلِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ الدِّينُ كُلُّهُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ
الْخَالِقُ وَالْمَالِكُ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ وَحْدَهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَالْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ، ثُمَّ تَخْتِمُ السُّورَةُ
بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾.
[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

لِثَقَرِّ أَنْ التَّسْلِيمَ الْمَطْلُوقَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الْأَعْرَافِ لِتُبَيِّنَ لَنَا الطَّرِيقَ الْعَمَلِيَّ لِهَذَا الْأَصْلِ، فَالتَّسْلِيمُ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَكُونُ
وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ، فَتَقُولُ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. [الأعراف: ٣]
فَتَجْعَلُ الْمَرْجِعِيَّةَ الْعُلْيَا وَالْأُولَى لِلْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ فَقَطْ، وَتَنْهَى عَنِ جَعْلِ الْأَشْخَاصِ، مَهْمَا عَلَتْ
مَنْزِلَتُهُمْ، مَصَدَرًا مُسْتَقِلًّا لِلتَّشْرِيعِ أَوْ الْإِتِّبَاعِ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الْأَنْفَالِ لِتُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا الْوَحْيَ لَا يَصِلُ إِلَى الْأُمَّةِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الرَّسُولِ ﷺ،
وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. [الأنفال: ١]

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾. [الأنفال: ٢٠]
فَطَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ إِنَّمَا هِيَ لِأَنَّهُ الْمُبْلَغُ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالْقَائِدُ الَّذِي يُقِيمُ الْوَحْيَ فِي
وَاقِعِ الْأُمَّةِ.

وَقَدْ جَاءَ التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِهَذَا الْمَعْنَى فِي السَّيْرَةِ، كَمَا فِي قِصَّةِ الْحَبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ، حِينَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَهَذَا مَنْزِلُ أَنْزَلَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ
وَالْمَكِيدَةُ؟ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ اجْتِهَادٌ فِي التَّذْيِيرِ أَشَارَ بِغَيْرِهِ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْيَهُ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ لَيْسَتْ أَصْلًا يُسْتَدَلُّ بِهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يُسْتَأْنَسُ بِهَا فِي بَيَانِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْوَحْيِ
الَّذِي لَا يُعَارِضُ، وَالْاجْتِهَادِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي يَقْبَلُ الْمُرَاجَعَةَ.

ثُمَّ يَتَقَدَّمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُقَرَّرَ هَذَا الْأَصْلُ بِصُورَةٍ أَوْضَحَ، فَيُبَيِّنُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
نَفْسُهُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي أَمْرٍ لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُصَوِّبُ لَهُ ذَلِكَ الْاجْتِهَادَ،
كََمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾. [التوبة: ٤٣]
وَقَالَ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. [الأحزاب: ٥]

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. [التَّحْرِيمُ: ١].

فَهَذِهِ الْآيَاتُ تُبَيِّنُ أَنَّ الْمِيزَانَ الْأَعْلَى الَّذِي يُزَجَعُ إِلَيْهِ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ وَحْيٌ آخَرُ غَيْرُهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفْسَهُ لَا يَقْرَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى اجْتِهَادٍ إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ تَصْوِيْبَهُ، بَلْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ مُبَاشَرَةً بِالتَّصْوِيْبِ وَالْبَيَانِ.

وَبِذَلِكَ يَكْتُمِلُ الْبِنَاءُ الْقُرْآنِيُّ؛ فَالتَّشْرِيعُ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ، وَالِاتِّبَاعُ لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَالرَّسُولُ ﷺ يُطَاعُ لِأَنَّهُ مُبَلَّغٌ لِهَذَا الْوَحْيِ وَقَائِمٌ بِهِ، وَكُلُّ اجْتِهَادٍ بَشَرِيٍّ، مَهْمَا كَانَ صَاحِبُهُ، يَبْقَى خَاضِعًا لِمِيزَانِ الْوَحْيِ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ شَأْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي اجْتِهَادَاتِهِ الَّتِي يُصَوِّبُهَا الْوَحْيُ، فَمِنْ بَابِ أُولَى أَلَّا تَكُونَ الْعِصْمَةُ وَلَا الطَّاعَةُ الْمُطْلَقَةُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْقَادَةِ بَعْدَهُ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مَزْدُودُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَوَحْيِهِ.

وَلِذَلِكَ لَمْ تَجْعَلِ السُّورَةُ الْفُضْلُ فِي التَّرَاعَاتِ رَاجِعًا إِلَى مَكَانَةِ الْأَشْخَاصِ، وَإِنَّمَا إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. [الأنفال: ١].

كَمَا نَهَتْ عَنِ الْإِعْرَاضِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾. [الأنفال: ٢٠].

أَيُّ: بَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَيْكُمْ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِهِ.

ثُمَّ أَكَّدَتِ السُّورَةُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْكُمْ هُوَ الْإِسْتِجَابَةُ الْمُطْلَقَةُ لِمَا يَحْمِلُهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ وَحْيٍ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، لَا لِمَجَرَّدِ شَخْصِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. [الأنفال: ٢٤].

فَالْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِذَلِكَ جَاءَتْ الْإِسْتِجَابَةُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ مَعًا؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى مَا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ثُمَّ تَرَبَّطَ السُّورَةُ هَذَا كُلُّهُ بِقَضِيَّةِ النَّصْرِ، فَتَقَرَّرُ أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ أَثَرًا لِعِظَمَةِ الْقَائِدِ، وَلَا مُتَعَلِّقًا بِذَاتِ الْأَشْخَاصِ، وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ يَتَرَتَّبُ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. [الأنفال: ١٠].

فَجَاءَتْ غَرْوَةٌ بِدْرِ شَاهِدًا عَلَى أَنَّ النَّصْرَ يَتَحَقَّقُ بِالْإِسْتِجَابَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِقُوَّةِ الْعُدَّةِ.

ثُمَّ يَأْتِي الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُؤَكِّدَ هَذَا الْأَصْلَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ فَيُبَيِّنُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفْسَهُ إِذَا اجْتَهِدَ فِي أَمْرٍ لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُصَوِّبُ لَهُ اجْتِهَادَهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾. [التَّوْبَةُ: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. [الْأَحْزَاب: ٥].
وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. [التَّحْرِيم: ١].

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ النَّهَائِيَّةَ بَقِيَتْ لِلْوَحْيِ، وَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يُقَرِّرُ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى اجْتِهَادٍ يُخَالِفُ مَرَادَ اللَّهِ، بَلْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِتَصْوِيبِ ذَلِكَ.

ثُمَّ جَاءَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ لِتُجَسِّدَ هَذَا الْأَصْلَ عَمَلِيًّا؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاضِرًا بَيْنَ أَضْحَابِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ١٥٢].

فَلَوْ كَانَ النَّصْرُ مُتَعَلِّقًا بِشَخْصِ الرَّسُولِ ﷺ لَمَا وَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ وَهُوَ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقَرِّرُ أَنَّ النَّصْرَ مُزْتَبِطٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَأَنَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ سَتَجْرِي عَلَيْهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.

ثُمَّ خَتَمَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ١٤٤].
لِيَبْقَى التَّعَلُّقُ بِالرَّسَالَةِ فَقَطْ، لَا بِالشَّخْصِ، وَبِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَا بِالرَّجَالِ.

وَبِذَلِكَ يَكْتَمِلُ الْبِنَاءُ الْقُرْآنِيُّ؛ فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ وَحْدَهُ صَاحِبُ التَّشْرِيعِ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الْمَرْجِعُ الْأَعْلَى، وَالرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْمُبَلِّغُ الْمَعْصُومُ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَطَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ إِنَّمَا هِيَ لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ لِوَحْيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلِأَنَّهُ الْمُتَرْجِمُ الْعَمَلِيُّ لِهَذَا الْوَحْيِ فِي وَاقِعِ الْأُمَّةِ.

وَأَيُّ اجْتِهَادٍ لِأَيِّ أَحَدٍ بَعْدَهُ، بَلْ حَتَّىٰ اجْتِهَادَاتُ الرَّسُولِ ﷺ الَّتِي لَمْ يَكُنْ قَدْ نَزَلَ فِيهَا قُرْآنٌ، فَهِيَ مَرْدُودَةٌ إِلَىٰ مِيزَانِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي لَا يَعْلُو عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ سُورَةَ الْأَعْرَافِ لَمْ تَنْهَ عَنْ اتِّبَاعِ الْأَوْلِيَاءِ لِتُجْعَلَ الْمَرْجِعِيَّةُ لِلرَّسُولِ ﷺ خَارِجَ إِطَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ لِتُبَيِّنَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفْسَهُ هُوَ الْمُبَلِّغُ لِلْوَحْيِ، لَا مَصْدَرُ تَشْرِيعٍ مُسْتَقِلًّا عَنْهُ، وَأَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ النَّهَائِيَّةَ تَبْقَى دَائِمًا وَأَبَدًا لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِوَاسِطَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَمِنَ اللَّافِتِ أَيْضًا أَنَّ سُورَةَ الْأَنْفَالِ لَمْ تَبْدَأْ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْقِتَالِ، بَلْ بَدَأَتْ بِقَضِيَّةٍ ظَهَرَتْ بَعْدَ

أَوَّلِ انْتِصَارٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ قِصَّةُ الْأَنْفَالِ وَالْغَنَائِمِ:
{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ١].

وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: إِنَّ الْخَطَرَ لَيْسَ فَقَطْ فِي مُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ، بَلْ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ لَحْظَةِ
الِانْتِصَارِ؛ فَالْنَّصْرُ قَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَى سَبَبٍ لِلْفُرْقَةِ إِذَا دَخَلَتِ الْأَهْوَاءُ وَالْمَصَالِحُ، وَلِذَلِكَ جَاءَ التَّوْجِيهُ
الْأَوَّلُ: تَقْوَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَإِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَلِرَسُولِهِ ﷺ.
وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِمَا حَدَّثَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ؛ فَقَدْ رَأَوْا آيَةً عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
جَلَّ جَلَالُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُحْسِنُوا اسْتِثْمَارَ هَذَا النَّصْرِ، فَقَالَ تَعَالَى:
{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ۖ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا
إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۖ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٣٨].

فَلَيْسَتْ الْعِبْرَةُ فَقَطْ بِأَنْ يَتَحَقَّقَ النَّصْرُ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِمَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ النَّصْرِ: هَلْ يَزِدَادُ
تَوْحِيدًا وَطَاعَةً لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، أَمْ تَتَحَوَّلُ النُّعْمَةُ إِلَى ابْتِلَاءٍ يَكْشِفُ مَا فِي النُّفُوسِ؟
فَرُوحُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ هِيَ أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ مُجَرَّدَ غَلَبَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ عِلَاقَةٍ صَحِيحَةٍ مَعَ اللَّهِ
جَلَّ جَلَالُهُ: إِيْمَانٍ، وَطَاعَةٍ، وَثَبَاتٍ، وَوَحْدَةٍ، وَشُكْرِ.

وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْلِثْكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَالِبُ} [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ٧].

👉 مَرَّةً أُخْرَى... حَتَّى لَا نَتَبَهَّ بِبَيْنِ السُّورِ، وَتَضِيعِ عَلَيْنَا الْفَائِدَةَ:
إِذَنْ، سُورَةُ الْأَنْفَالِ بِمُجْمَلِهَا تَشْرَحُ لَنَا الشُّطْرَ الْأَوَّلَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣].

فَهَذَا هُوَ الشُّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْأَمْرِ:
{اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}...

وَقُلْنَا: إِنَّ اتِّبَاعَ الرِّسَالَةِ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ طَاعَةً مُطْلَقَةً، وَلَكِنْ فِيمَا أَمَرَهُ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

أَمَّا الشُّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْأَمْرِ، فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣].

فَهَذَا ثَبِيْتُهُ لَنَا سُورَةُ التَّوْبَةِ، وَكَيْفَ أَنَّ أَعْظَمَ وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، إِذَا اجْتَهَدَ بَعِيدًا عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَوْ خَارِجَ إِطَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَدْ يَقَعُ فِي الْخَطِإِ، وَلَا يُصِيبُ فِي اجْتِهَادِهِ، حَتَّى يُصَحِّحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ بِالْوَحْيِ.

وَبَعْدَ أَنْ ثَبَيَّنَ سُورَةُ التَّوْبَةِ أَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ هِيَ وَحْيُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَقْرَأُ عَلَى اجْتِهَادٍ يُخَالِفُ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، يَسْتَمِرُّ هَذَا الْمَعْنَى فِي سُورٍ أُخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَتَأْتِي سُورَةُ يُونُسَ لِتَقَرَّرَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَنْفُسَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ وَحْيِهِ، وَيَتَرَبَّوْنَ عَلَى تَوْجِيهِهِ. وَيُظْهِرُ ذَلِكَ أَوْضَحَ مَا يَكُونُ فِي قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ غَادَرَ قَوْمَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٤٢].

ثُمَّ يُوَجِّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَّعِظَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ، فَيَقُولَ: ﴿فَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾. [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٤٨]. فَالْعِبْرَةُ وَاحِدَةٌ: أَلَّا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، بَلْ يَنْتَظِرَ حُكْمَهُ وَوَحْيَهُ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الْكَهْفِ، فَتُبَيِّنُ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يَبْنِي عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ أَحْكَامَهُ لَيْسَ مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ، فَيَرَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمُورًا يُنْكِرُهَا بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، ثُمَّ يَكْشِفُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ حَقَائِقَهَا عَلَى يَدِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٦٥]، لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحُكْمَ الْكَامِلَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ.

وَتَأْتِي سُورَةُ الْقَصَصِ، فَتَذَكُرُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَزَّ رَجُلًا فَقَضَى عَلَيْهِ، فَاعْتَرَفَ بِخَطِيئِهِ وَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾. [سُورَةُ الْقَصَصِ: ١٦]، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ.

وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قِصَّةَ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَتَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾. [سُورَةُ ص: ٢٤]، وَيُبَيِّنُ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ كَانَ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَيَسْأَلُهُ الْهَدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ.

فَيَتَكَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَضَلُّ وَاحِدٌ، وَهُوَ: أَنَّ الْمَرْجِعَ الْمُطْلَقَ هُوَ وَحْيُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَى تَصْحِيحِ اللَّهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، فَكَيْفَ بَنَّا نَحْنُ؟
ثُمَّ تَبَيَّنَ لَنَا بَقِيَّةُ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ لَمْ يَجْعَلْ حَتَّى رَسُولَهُ
مُحَمَّدًا ﷺ فَوْقَ الْوَحْيِ، بَلْ جَعَلَ الْوَحْيَ هُوَ الْمَرْجِعَ الَّذِي يَلْتَزِمُ بِهِ الرَّسُولُ نَفْسَهُ، وَكَرَّرَ هَذَا
الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٠٦].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [سُورَةُ الْأَحْزَابِ: ٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{وَآتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٢٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سُورَةُ الزُّحُرْفِ: ٤٣].

وَلَمْ يَكْتَفِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ، بَلْ نَهَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ اتِّبَاعِ مَا يُخَالِفُهُ،
فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: ١٨].

بَلْ بَلَغَ الْأَمْرُ أَنْ نَهَاَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ أُذْنَى مَيْلٍ إِلَى رَغَبَاتِ الْمُخَالِفِينَ،
فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ...} إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَوْلَا أَنْ تَبَشِّرَكَ
لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٧٣-٧٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
{فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [سُورَةُ طه: ١٦].
وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعُدُّ نَفْسَهُ مَصْدَرًا مُسْتَقِلًّا لِلتَّشْرِيعِ، وَإِنَّمَا عَبْدًا مُتَّبِعًا لِمَا يُوحَى
إِلَيْهِ رَبُّهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

{قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي}. [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٢٠٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَلَّ جَلَالُهُ:

{قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي} إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ}. [سُورَةُ يُونُسَ: ١٥].

فَإِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَعْظَمُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَلَّ جَلَالُهُ، مَأْمُورًا بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ، وَمَنْهِيًّا عَنِ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ، وَمُعَلِّمًا أَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَإِنَّ هَذَا يُقَرِّرُ قَاعِدَةً قُرْآنِيَّةً عَامَّةً: أَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ الْعُلْيَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ، مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مَأْمُورُونَ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ.

وَهَذَا الْمَحْوَرُ يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا مُبَاشِرًا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَلَّ جَلَالُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}. [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣].

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ مَنْ امْتَثَلَ هَذَا الْأَمْرَ، ثُمَّ دَعَا الْأُمَّةَ كُلَّهَا إِلَى الْإِمْتِثَالِ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ.

سُورَةُ التَّوْبَةِ:

بَعْدَ أَنْ قَرَرَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ الْأَصْلَ الْكُلِّيَّ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْهَدَايَةُ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.
[سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣]،

جَاءَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ لِتُشْرَحَ الشُّظْرَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فَبَيَّنَتْ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ إِنَّمَا هِيَ الطَّرِيقُ الْعَمَلِيُّ لِاتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ الْمَرْجِعَ فِي كُلِّ نِزَاعٍ هُوَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ١]،

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٢٠]،

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُخَيِّكُمْ﴾. [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٢٤]،

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ التَّوْبَةِ لِتُشْرَحَ الشُّظْرَ الثَّانِي مِنْ آيَةِ الْأَعْرَافِ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣]،

فَلَا تَكْتَفِي السُّورَةُ بِالْتَّحْذِيرِ مِنْ وَلَايَةِ الْمُشْرِكِينَ، بَلْ تَكْشِفُ كُلَّ مَرْجِعِيَّةٍ تُزَاجِمُ وَحْيَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَوْ كَانَتْ صَادِرَةً مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ أَصْحَابِ الْمَكَائَةِ الدِّينِيَّةِ.

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٣١]،

أَيُّ: حِينَ جَعَلُوا لَهُمْ حَقَّ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ مِنْ دُونِ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ. وَبَيَّنَتْ السُّورَةُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُقَدِّمُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَحَدًا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾. [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٢٤]،

وَلَمْ تَسْتَنْ شُورَةَ حَتَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ، بَلْ أَظْهَرَتْ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ مِنْهُ اجْتِهَادٌ لَمْ يُوَافِقْ مُرَادَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، فَإِنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ بِتَصْحِيحِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾. [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٤٣]،

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١١٣].

فَكَأَنَّ الشُّورَةَ تَقُولُ: إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَفْسُهُ لَا يَقْرَأُ عَلَى اجْتِهَادٍ يُخَالِفُ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، فَكَيْفَ يَجُوزُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُجْعَلَ غَيْرُهُ مَرْجِعًا يَتَّبِعُ مِنْ دُونِ وَحْيِ اللَّهِ؟

وَمِنْ هُنَا تَنْتَهِي الْقُلُوبُ لِلانْتِقَالِ إِلَى سُورَةِ يُوسُفَ، الَّتِي سَتَقَرُّرُ الْأَصْلَ نَفْسُهُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ إِذْ يَأْمُرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُغْلِنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لَيْسَ صَاحِبَ تَشْرِيعٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُتَّبِعٌ لِلْوَحْيِ وَحْدَهُ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾. [سُورَةُ يُوسُفَ: ١٥]،

وَيَقُولُ أَيْضًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾. [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٢٠٣].

وَهَكَذَا يَتَّبِعُ الْبِنَاءُ الْمَتَدَرِّجُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

فَالْأَعْرَافُ تَضَعُ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. وَالْأَنْفَالُ تَشْرَحُ كَيْفَ يَكُونُ اتِّبَاعُ الْوَحْيِ عَمَلِيًّا مِنْ خِلَالِ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْهِ.

وَالتَّوْبَةُ تُحَذِّرُ مِنْ إِقَامَةِ أَيِّ مَرْجِعِيَّةٍ مُوَازِيَةٍ لِوَحْيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ، وَتُؤَكِّدُ أَنَّ الْجَمِيعَ، حَتَّى الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ الْوَحْيِ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ يُوسُفَ لِتُغْلِنَ هَذَا الْأَصْلَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ نَفْسِهِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، لِتَكْتَمِلَ بِذَلِكَ حَلَقَةُ الْمَرْجِعِيَّةِ الَّتِي افْتَتَحَتْهَا سُورَةُ الْأَعْرَافِ.

ثُمَّ تُظْهِرُ لَنَا سُورَةُ التَّوْبَةِ أَنَّ أخطرَ عَدُوٍّ لِلْأُمَّةِ لَيْسَ فَقَطِ الْعَدُوُّ الَّذِي يَأْتِي مِنْ خَارِجِهَا، بَلِ الْعَدُوُّ الَّذِي يُغَيِّرُ مَعْيَارَ الْإِتِّبَاعِ مِنْ: «مَاذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ؟» إِلَى: «مَنْ قَالَ هَذَا؟».

وَلِهَذَا جَاءَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ أَيْضًا بِكَشْفِ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقَ هُوَ النَّمُودَجُ الدَّاخِلِيُّ لِمَنْ يُظْهِرُ الْإِنْتِمَاءَ إِلَى الْوَحْيِ، لَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ يَتَّبِعُ مَصَالِحَهُ وَأَهْوَاءَهُ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾. [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٥٨]،
وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾. [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٤٩].

فَإِذَا كَانَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ قَدْ كَشَفَتْ الصَّرَاعَ بَيْنَ الْوَحْيِ وَأَوْلِيَاءِ الْبَاطِلِ عِبَرِ التَّارِيخِ،
وَكَانَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ قَدْ بَيَّنَّتْ بِنَاءَ الْجَمَاعَةِ الْمُؤَمَّنَةِ حَوْلَ الْوَحْيِ، فَإِنَّ سُورَةَ التَّوْبَةِ تَكْشِفُ
الْخَطَرَ عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْإِنْجِرَافُ إِلَى دَاخِلِ الْجَمَاعَةِ نَفْسِهَا، فَيُظْهِرُ الْإِنْسَانُ تَابِعًا لِلرَّسَالَةِ، لَكِنَّهُ
فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعٌ لِهَوَاهُ أَوْ لَوَلَاءَاتٍ أُخْرَى.

وَمِنْ هُنَا يَكُونُ الْإِنْتِقَالُ إِلَى سُورَةِ يُوسُفَ اِنْتِقَالًا طَبِيعِيًّا؛ فَبَعْدَ أَنْ كَشَفَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ
خَطَرَ تَقْدِيمِ الْأَشْخَاصِ وَالْوَلَاءَاتِ عَلَى الْوَحْيِ، تَأْتِي سُورَةُ يُوسُفَ لِتُثَبِّتَ الْأَصْلَ مِنْ جَدِيدٍ:
أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفْسُهُ لَيْسَ إِلَّا مُتَّبِعًا لِمَا يُوحَى إِلَيْهِ.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾. [سُورَةُ يُوسُفَ: ١٥].
وَكَانَ السُّورَ تَسِيرُ فِي خَطِّ وَاحِدٍ:

سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ذَكَرَتْ مَصَدَرَ الْهَدَايَةِ، وَهُوَ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣].

سُورَةُ الْأَنْفَالِ: بَيَّنَّتْ أَنَّ طَرِيقَ الْإِلْتِزَامِ بِالْوَحْيِ إِنَّمَا يَكُونُ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ.

سُورَةُ التَّوْبَةِ: كَشَفَتْ أَنَّ الْخَطَرَ كُلَّ الْخَطَرِ هُوَ أَنْ نَجْعَلَ أَحَدًا فَوْقَ الْوَحْيِ أَوْ شَرِيكًا فِي
الْمَرْجِعِيَّةِ، حَتَّى لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَكَانَةِ وَالْقُرْبِ.

سُورَةُ يُوسُفَ: جَاءَتْ لِتُغْلِنَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفْسُهُ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا الْوَحْيَ.

وَبِذَلِكَ تَكْتَمِلُ حَلَقَةُ عَظِيمَةٍ مِنَ الْبِنَاءِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:
أَنَّ الْوَحْيَ هُوَ الْأَصْلُ، وَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ هُوَ الْمُبْلَغُ وَالْمُبَيِّنُ لِوَحْيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ
جَلَالُهُ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هُوَ مِيزَانُ الْحَقِّ، وَكُلُّ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَشْخَاصِ وَالْمَكَانَاتِ
وَالْوَلَاءَاتِ يَبْقَى تَابِعًا لِهَذَا الْأَصْلِ، وَلَيْسَ حَاكِمًا عَلَيْهِ.
وَبِهَذَا الرِّبْطِ تُصْبِحُ سُورَةُ التَّوْبَةِ حَلَقَةً وَسْطَى دَقِيقَةٍ جَدًّا؛ فَهِيَ لَا تَأْتِي فَقَطْ بَعْدَ سُورَةِ

الأنفال لِيَتَحَدَّثَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، بَلْ تَأْتِي لِتُجِيبَ عَنْ سُؤَالٍ مُهِمٍّ:
مَاذَا يَحْدُثُ عِنْدَمَا تُرْفَعُ مَكَانَةُ شَخْصٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ هُوِيَّةٍ فَوْقَ مِيزَانِ الْوَحْيِ؟
وَمِنْ هُنَا تَتَّصِلُ مُبَاشَرَةً بِسُورَةِ يُونُسَ الَّتِي تُعِيدُ تَثْبِيتَ قَاعِدَةٍ قُرْآنِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَهِيَ:
أَنَّ الْمَرْجِعَ النَّهَائِيَّ هُوَ مَا يُوحِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

سُورَةُ يُونُسَ:

مَوْقِعُ سُورَةِ يُوسُفَ فِي الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى هُوَ:

تَثْبِيْتُ مَصَدَرِ الْهَدَايَةِ نَفْسِهِ، وَإِظْهَارُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ مَجَالًا لِلِاخْتِيَارِ أَوْ التَّعْدِيلِ أَوْ الْمَسَاوِمَةِ، بَلْ هُوَ وَحْيُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ الَّذِي يَقِفُ عِنْدَهُ الْجَمِيعُ، حَتَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَقَدْ بَدَأَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ بِالْأَمْرِ:

{اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أُولَئِكَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}.

[الأعراف: ٣]

ثُمَّ جَاءَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ لِتُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا الْإِتِّبَاعَ يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الْإِسْتِجَابَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ} [الأَنْفَال: ٢٤]

ثُمَّ جَاءَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ لِتُحَذِّرَ مَن أَنْ يَتَحَوَّلَ أَحَدٌ، مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ، إِلَى مَرْجِعٍ يُنَازِعُ وَحْيَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

{اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التَّوْبَةِ: ٣١]

فَجَاءَتْ سُورَةُ يُوسُفَ لِتَضَعِ الْأَمْرَ فِي أَوْضَحِ صُورِهِ:

إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفْسُهُ لَيْسَ مَصَدَرًا مُسْتَقِلًّا عَنِ الْوَحْيِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَوَّلُ الْمُتَّبِعِينَ لِوَحْيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

قَالَ تَعَالَى: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي ۚ إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ۚ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يُوسُفَ: ١٥]

فَهَذِهِ الْآيَةُ تُكْمِلُ الْبِنَاءَ كُلَّهُ؛ لِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ صُورِ الْإِنْحِرَافِ أَنْ يَنْتَقِلَ الْإِنْسَانُ مِنْ اتِّبَاعِ كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى اتِّبَاعِ الْأَشْخَاصِ، فَجَاءَتْ السُّورَةُ لِتُعْلِنَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفْسُهُ مَأْمُورٌ بِالِاتِّبَاعِ.

الرِّسَالَةُ الْمُخَوَّرِيَّةُ لِسُورَةِ يُوسُفَ:

يُمْكِنُ تَلْخِيصُ رِسَالَةِ السُّورَةِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ:

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمَوْقِفُ الْإِنْسَانِ مِنْهُ هُوَ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَبَيْنَ الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالِ.

وَلِهَذَا افْتَتَحَتْ السُّورَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
{الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يُونُس: ١]

ثُمَّ اسْتَنَكَرَتْ عَلَى النَّاسِ تَعَجُّبُهُمْ مِنْ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى بَشَرٍ:
{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ { [يُونُس: ٢]

فَالْمُشْكِلَةُ الَّتِي تُعَالِجُهَا السُّورَةُ لَيْسَتْ فَقَطْ رَفُضَ حُكْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، بَلْ إِنَّ هُنَاكَ مُشْكِلَةً أُخْرَى عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ:
كَيْفَ يَأْتِي الْوَحْيُ، أَوِ الْحَقُّ، عَلَى يَدِ إِنْسَانٍ عَادِيٍّ، بَشَرٍ مِثْلِهِمْ؟
وَهَذَا مَا نُعَانِيهِ الْيَوْمَ؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عِنْدَمَا تُذَكَّرُهُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَرُدُّ عَلَيْكَ مُبَاشَرَةً:

مَنْ أَنْتَ لِتَتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ؟

هَلْ أَنْتَ إِمَامٌ مَسْجِدٍ؟

هَلْ أَنْتَ خَرِيجُ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ؟

هَلْ قَرَأْتَ صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ؟

هَلْ حَفِظْتَ الصَّحَاحَ السَّنَّةَ؟

عَلَاقَةُ سُورَةِ يُونُسَ بِسُورَةِ التَّوْبَةِ:

الْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا دَقِيقَةٌ جَدًّا:

فَسُورَةُ التَّوْبَةِ كَشَفَتْ مَرَضَ تَقْدِيمِ الْمَرْجِعِيَّاتِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسُورَةُ يُونُسَ تُثَبِّتُ أَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْمَزَاحِمَةَ هِيَ وَحْيُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ رَأَيْنَا مَنْ يَجْعَلُ الْأَشْخَاصَ أَوْ الْمَصَالِحَ أَوْ الْأَعْرَافَ حَاكِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ} [التَّوْبَةِ: ٥٨]

فَالْمَنَافِقُ لَمْ يَغْتَرِضْ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ، بَلْ لِأَنَّهُ جَعَلَ هَوَاهُ مَعْيَارًا لِلْحُكْمِ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ يُونُسَ لِتُكْشِفَ أَصْلَ الْقَضِيَّةِ: {وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} [سُورَةُ يُونُسَ: ١٥]

فَهُمْ لَمْ يَرْفُضُوا الْوَحْيَ فَقَطْ، بَلْ يُرِيدُونَ وَحْيًا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ.

وَلِهَذَا جَاءَ الرَّدُّ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ:

{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

[سُورَةُ يُوسُفَ: ١٦]

أَي: هَذَا لَيْسَ كَلَامِي حَتَّى أُغَيِّرَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

عَلَاقَةُ سُورَةِ يُوسُفَ بِسُورَةِ هُودٍ الَّتِي بَعْدَهَا:

هَذَا يَظْهَرُ جَمَالُ الْإِنْتِقَالِ:

سُورَةُ يُوسُفَ تَنْتَهِي بِإثْبَاتِ أَضْلٍ عَظِيمٍ: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ} وَهُوَ خَيْرُ

الْحَاكِمِينَ} [سُورَةُ يُوسُفَ: ١٠٩]

فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ أَنَّ الْوَحْيَ هُوَ الْمَرْجِعُ الْأَسَاسُ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ ذَلِكَ الْوَحْيِ

وَفَقَطْ لَا شَيْءَ آخَرَ سِوَاهُ، يَبْقَى السُّؤَالُ:

كَيْفَ يَحْمِلُ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ هَذَا الْوَحْيَ أَمَامَ التَّكْذِيبِ وَالضَّغْطِ وَالْمُوَاجَهَةِ؟

فَتَأْتِي سُورَةُ هُودٍ بِالْإِجَابَةِ: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [سُورَةُ هُودٍ: ١١٢]

فَالْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا:

سُورَةُ يُوسُفَ: تَثْبِيثُ الْمَرْجِعِيَّةِ: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ}.

سُورَةُ هُودٍ: تَثْبِيثُ حَامِلِ الرِّسَالَةِ: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَنْ سُورَةِ هُودٍ مَا قَالَ، لِمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِ الْإِسْتِقَامَةِ وَثِقَلِ

حَمْلِ الرِّسَالَةِ.

وَحُلَاصَةُ الْبِنَاءِ حَتَّى الْآنَ:

سُورَةُ الْأَنْعَامِ: اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْمَالِكُ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ صَاحِبُ الْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ:

{إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٥٧]

سُورَةُ الْأَعْرَافِ: طَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ اتِّبَاعُ مَا أُنْزِلَ:

{اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٣]

سُورَةُ الْأَنْفَالِ: طَرِيقُ إِقَامَةِ الْوَحْيِ فِي الْأُمَّةِ يَكُونُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ١]

سُورَةُ التَّوْبَةِ: لَا تَجْعَلُوا أَحَدًا مَرْجِعًا فَوْقَ الْوَحْيِ: {اتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

اللَّهُ} [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٣١]

سُورَةُ يُوسُفَ: حَتَّى الرَّسُولِ ﷺ نَفْسُهُ يُغْلَنُ أَنَّهُ تَابِعٌ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنَّهُ مُبَلَّغٌ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ حَقَّ التَّشْرِيعِ بَعِيدًا عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَوْ خَارِجَ إِطَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: {إِنْ أَتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: ٩]

سُورَةُ هُودٍ: بَعْدَ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ، يَأْتِي امْتِحَانُ الثَّبَاتِ عَلَيْهِ: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ} [سُورَةُ هُودٍ: ١١٢]

وَبِهَذَا تَكُونُ سُورَةُ يُوسُفَ حَلَقَةً تَثْبِيتٍ فِي قَلْبِ الْخَارِطَةِ: بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ طَرِيقَهَا الْوَحْيُ، وَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ هُوَ الْمُبَلَّغُ عَنْهَا، جَاءَتْ سُورَةُ يُوسُفَ لِتُغْلِقَ بَابًا خَطِيرًا:

لَا أَحَدَ فَوْقَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بَلِ الْجَمِيعُ - حَتَّى الرَّسُولُ ﷺ - عِبَادٌ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، مُتَّبِعُونَ لِمَا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

لِمَاذَا نُرَكِّزُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؟

لِأَنَّ الْأُمَّةَ ابْتُلِيَتْ بِعَقِيدَةٍ مُوَازِيَةٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ مَرْجِعِيَّةُ الْكُتُبِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، بِاعْتِبَارِهَا وَحْيًا ثَانِيًا حَالُهَا حَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُسْتَنِدِينَ بِذَلِكَ إِلَى حَدِيثٍ بَاطِلٍ يُخَالِفُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». كَذَبُوا وَاللَّهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَسُورَةُ يُوسُفَ جَاءَتْ بَعْدَ سُورَةِ التَّوْبَةِ لِتُعِيدَ بِنَاءَ عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بَعْدَ مَشَاهِدِ الْكَشْفِ وَالْإِنذَارِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ.

فَبَعْدَ أَنْ كَشَفَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ مِنْ نِفَاقٍ وَتَنَاقُلٍ وَتَعَلُّقٍ بِالدُّنْيَا، تَأْتِي سُورَةُ يُوسُفَ لِتُفْتَحَ بَابُ الْهَدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرَّجَاءِ.

فَمَحْوَرُ السُّورَةِ هُوَ أَنَّ الْهَدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ طَرِيقُهَا: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} [يُوسُفَ: ٩]

وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ مُجَرَّدَ خُطَابٍ لِلْعَقْلِ، بَلْ هُوَ مَوْعِظَةٌ وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يُوسُفَ: ٥٧]...

كَمَا تَدْعُو السُّورَةُ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْكَوْنِ، لِيُذَكِّرَ الْإِنْسَانُ حِكْمَةَ الْمَدَبِّ: {إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}.

[يُوسُفَ: ٦]

وَتَزَرَعُ الطَّمَانِينَةَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [يُونُس: ٦٢]

وَتُخْتِمُ بِرِسَالَةٍ أَمَلٍ مِنْ خِلَالِ قَوْمِ يُونُسَ الَّذِينَ تَابُوا، فَرَفَعَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. [يُونُس: ٩٨]

وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِيُونُسَ؛ لِأَنَّ قَوْمَهُ يُمَثِّلُونَ الْاسْتِثْنَاءَ الْمَشْرِقَ: أَنَّ بَابَ الرَّحْمَةِ مَفْتُوحٌ لِمَنْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

👉 **وَهُنَاكَ عِلَاقَةٌ جَمِيلَةٌ بَيْنَ تَوْبَةِ قَوْمِ يُونُسَ فِي سُورَةِ يُونُسَ، وَتَوْبَةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ حُلِفُوا فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ.**

فَكِلْتَا الْقِصَّتَيْنِ تُؤَكِّدَانِ مَعْنَى وَاحِدًا: أَنَّ بَابَ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ يَبْقَى مَفْتُوحًا لِمَنْ صَدَّقَ فِي تَوْبَتِهِ.

فَقَوْمُ يُونُسَ كَانُوا أُمَّةً جَاءَهَا الْوَعِيدُ، فَلَمَّا آمَنُوا وَتَابُوا كَشَفَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. [يُونُس: ٩٨]

وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ حُلِفُوا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ بِسَبَبِ خَطِيئِهِمْ، فَلَمَّا صَدَقُوا تَابَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِمْ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. [التَّوْبَةِ: ١١٨]

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ قَوْمَ يُونُسَ تَابُوا قَبْلَ نُزُولِ الْعَذَابِ، أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ حُلِفُوا فَابْتَلُوا بِالشَّدَةِ حَتَّى ظَهَرَ صِدْقُهُمْ.

وَكَأَنَّ تَرْتِيبَ السُّورَتَيْنِ يَحْمِلُ رِسَالَةً وَاحِدَةً:

بَعْدَ أَنْ كَشَفَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ حُطُورَةَ الْإِنْجِرَافِ، جَاءَتْ سُورَةُ يُونُسَ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَزَالُ مَفْتُوحًا.

📌 **الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بِنَاءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:**

مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَكْشِفُ جَمَالَ التَّرَابُطِ بَيْنَ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِصَّةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَالْقِصَّةُ لَمْ تُذَكَّرْ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ لِمَجَرَّدِ سَرْدِ الْأَحْدَاثِ، وَإِنَّمَا جَاءَ كُلُّ مَوْضِعٍ مِنْهَا لِيَكْشِفَ جَانِبًا مُعَيَّنًا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْهَدَايَةِ وَالِدَّعْوَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ.

فَفِي سُورَةِ يُونُسَ: جَاءَ التَّزْكِيذُ عَلَى قَوْمِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: ٩٨].

فَالسِّيَاقُ هُنَا لَا يَتَحَدَّثُ عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا عَنْ قَوْمِهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا الْأُمَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي آمَنَتْ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذَابِ، فَقَبِلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ تَوْبَتَهُمْ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ. وَالرَّسَالَةُ الَّتِي تُقَدِّمُهَا السُّورَةُ هُنَا هِيَ:

أَنَّهُ لَا يُغْلَقُ بَابُ الْهَدَايَةِ فِي وُجُوهِ النَّاسِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَيَاسَ مِنْ قَوْمِهِ؛ فَقَدْ يَتَغَيَّرُ الْحَالُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَظُنُّ فِيهَا الْجَمِيعُ أَنَّ النَّهَايَةَ قَدْ اقْتَرَبَتْ.

ثُمَّ يَأْتِي مَوْضِعُ آخَرٍ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، لِيُنْقَلَنَا مِنْ حَالِ الْأُمَّةِ إِلَى حَالِ الدَّاعِيَةِ نَفْسِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٧-٨٨].

فَهُنَا لَا يَكُونُ التَّزْكِيذُ عَلَى قَوْمِ يُونُسَ، بَلْ عَلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي لَحْظَةِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِنْكَسَارِ، لِيُبَيِّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ النَّجَاةَ تَبْدَأُ بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ لَا تَخْتَصُّ بِيُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ، بَلْ تَشْمَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَصْدُقُ فِي تَوْبَتِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الصَّافَّاتِ لِتَعْرِضَ لَنَا تَفَاصِيلَ الرِّحْلَةِ؛ مِنْ خُرُوجِهِ إِلَى السَّفِينَةِ، إِلَى ابْتِلَائِهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، ثُمَّ نَجَاتِهِ وَعَوْدَتِهِ إِلَى قَوْمِهِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٣٩-١٤٤].

ثُمَّ يُبَيِّنُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ نَهَايَةَ الْقِصَّةِ:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

[سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٤٧-١٤٨].

وَكَأَنَّ سُورَةَ الصَّافَّاتِ تَكْشِفُ لَنَا أَنَّ خُرُوجَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ نَهَايَةَ مِهْمَتِهِ، بَلْ كَانَ ابْتِلَاءً أَعَادَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَعْدَهُ إِلَى قَوْمِهِ، فَكَانَتِ النَّهَايَةُ إِيْمَانَ الْقَوْمِ وَرَحْمَةً اللَّهِ بِهِمْ.

ثُمَّ بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَأْتِي الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ: ﴿فَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْبِ﴾ [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٤٨].

وَهُنَا يَظْهَرُ جَانِبٌ آخَرُ مِنَ الْقِصَّةِ؛ فَالْمَقْصُودُ لَيْسَ قَوْمٌ يُؤْنَسُ، وَلَا تَفَاصِيلُ نَجَاتِهِ، وَإِنَّمَا مَوْقِفُ الدَّاعِيَةِ عِنْدَمَا يَشْتَدُّ عَلَيْهِ التَّكْذِيبُ وَالْأَذَى.

فَكَانَ يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَرْسًا لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنْ لَا يَسْتَعْجَلَ أَمْرَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا يَثْرَكَ مَيْدَانَ الدَّعْوَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْإِذْنُ، فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَعْلَمُ بِوَقْتِ الْفَتْحِ وَالْهِدَايَةِ.

وَبِذَلِكَ تَتَكَامَلُ صُورَةُ الْقِصَّةِ فِي سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

فِي سُورَةِ يُؤْنَسُ: نَرَى رَحْمَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْأُمَّةِ الَّتِي تَابَتْ، وَنَتَعَلَّمُ أَلَّا نَيَّاسُ مِنْ هِدَايَةِ النَّاسِ.

وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: نَرَى رَحْمَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْعَبْدِ عِنْدَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَنَتَعَلَّمُ أَنَّ الدَّعَاءَ الصَّادِقَ مِفْتَاحُ النَّجَاةِ.

وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ: نَرَى رَحْمَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالرَّسُولِ بَعْدَ الْإِبْتِلَاءِ، وَأَنَّ اللَّهَ يُعِيدُ عِبَادَهُ إِلَى مَوَاقِعِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُظْهِرَهُمْ بِالْإِخْتِبَارِ.

وَفِي سُورَةِ الْقَلَمِ: نَرَى تَرْبِيَةَ الدَّاعِيَةِ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَأَلَّا يَسْتَعْجَلَ نَتَائِجَ الدَّعْوَةِ.

وَهَكَذَا لَا يُكَرَّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قِصَّةَ يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا يَبْنِيهَا أَمَامَنَا مِنْ زَوَايَا مُتَعَدِّدَةٍ؛ مَرَّةً يَذْكُرُ الْأُمَّةَ، وَمَرَّةً يَذْكُرُ الدَّاعِيَةَ، وَمَرَّةً يَذْكُرُ الْإِبْتِلَاءَ وَالنَّجَاةَ، حَتَّى تُصْبِحَ الْقِصَّةُ مِنْهَا مُتَكَامِلًا فِي فَهْمِ طَرِيقِ الْهِدَايَةِ: رَحْمَةً لِلنَّاسِ، وَتَثْبِيثًا لِلدَّعَاةِ، وَتَرْبِيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثِّقَةِ بِحُكْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

سُورَةُ هُودٍ:

سُورَةُ هُودٍ تَنْقُلُنَا مِنَ الثَّقَةِ بِوَعْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
قُلْنَا إِنَّ سُورَةَ يُونُسَ خُتِمَتْ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. [يُونُسَ: ١٠٩].

فَالسُّوَالُ الَّذِي تَثْرُكُهُ خَاتِمَةُ سُورَةِ يُونُسَ هُوَ: ...كَيْفَ أَصْبِرُ؟
وَكَيْفَ أَعِيشُ زَمَنَ الْإِنْتِظَارِ بَيْنَ الْوَعْدِ، وَتَحَقُّقِ الْوَعْدِ؟

فَتَأْتِي سُورَةُ هُودٍ لِتُجِيبَنَا عَنْ هَذَا السُّوَالِ.

فَتَبْدَأُ هُودٌ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾. [هُود: ٢-١].

تَأْمَلُوا مَعِيَ هَذَا الْإِفْتِتَاحَ..... فِي سُورَةِ يُونُسَ رَأَيْنَا:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. [يُونُسَ: ١].

أَمَّا هُنَا فَهَنَّاكَ إِصَافَةً مُهِمَّةً: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتَ﴾.

كَأَنَّ السُّورَةَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ لَنَا:

إِنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي سَنَسِيرُ فِيهِ لَيْسَ مَبْنِيًّا عَلَى الطُّنُونِ، بَلْ عَلَى كِتَابٍ مُحْكَمٍ مُفَصَّلٍ.

لَأنَّ مَنْ سَيُظَلَبُ مِنْهُ الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى الْمَنْهَجِ، يَخْتِاجُ أَوَّلًا إِلَى الْيَقِينِ بِالْمَنْهَجِ.

وَبَعْدَ الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ يُبْقِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَابَ الرَّجَاءِ مَفْتُوحًا لِمَنْ تَأَخَّرَ، فَيَقُولُ تَعَالَى:

﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. [هُود: ٣].

لَا حِطُّوا أَنَّ سُورَةَ هُودٍ لَيْسَتْ سُورَةً شِدَّةً فَقَطْ، بَلْ مَا زَالَتْ تَحْمِلُ فِي آيَاتِهَا رُوحَ سُورَةِ يُونُسَ.

فَفِي سُورَةِ يُونُسَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾. [يُونُسَ: ٩٨].

وَفِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾. [هُود: ٣].

فَالرَّجَاءُ لَا يَزَالُ حَاضِرًا.

ثُمَّ تَأْتِي آيَةُ عَظِيمَةٍ جِدًّا، تَتَجَلَّى فِيهَا رِقَابَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَعْفِفُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

يُغْلِثُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}. [هُود: ٥].
هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تُمَهِّدُ لِمَحَوِّرِ مُهِمٍّ فِي السُّورَةِ.
فَالِاسْتِقَامَةُ لَا تَكُونُ بِسَبَبِ مُرَاقَبَةِ النَّاسِ لَكَ... بَلْ فِي اسْتِشْعَارِ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَكَ.
وَلِهَذَا خَتَمَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}. [هُود: ٥].

ثُمَّ يَضْمَنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنَا الرِّزْقَ، فَيَقُولُ:
{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}. [هُود: ٦].

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْقَرِئ: مَا عِلَاقَةُ الرِّزْقِ بِقَضِيَّةِ الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى الْمُنْهَجِ؟
الْعِلَاقَةُ عَمِيقَةٌ جِدًّا!! لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْحِرَافَاتِ سَبَبُهَا الْخَوْفُ عَلَى الرِّزْقِ.
وَكَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُظْمِنُ السَّائِرَ عَلَى الطَّرِيقِ:
قَبْلَ أَنْ تُفَكِّرَ فِي رِزْقِكَ، اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِهِ.

ثُمَّ تَبْدَأُ سُورَةُ هُودٍ فِي عَرْضِ مَوْكِبٍ طَوِيلٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ:
نُوحٌ... هُودٌ... صَالِحٌ... إِبْرَاهِيمُ... لُوطٌ... شُعَيْبٌ... مُوسَى.

وَهُنَا يَجِبُ أَنْ نَسْأَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ:
لِمَاذَا هَذَا التَّتَابُعُ الطَّوِيلُ؟

 **قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:** يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ}. [هُود: ٢٥].
ثُمَّ مَاذَا؟ ثُمَّ بَعْدَ دَعْوَةٍ طَوِيلَةٍ: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}. [هُود: ٣٨].
وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ قَوْمُهُ: {كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ}. [هُود: ٣٨].

مَا الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ؟ الْإِسْتِقَامَةُ لَا تَغْنِي أَنَّ النَّاسَ سَيُصَفِّقُونَ لَكَ.
بَلْ قَدْ تَسِيرُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً وَسَطَ الشُّخْرِيَّةِ!! وَمَعَ ذَلِكَ اسْتَمَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

 **قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:** يَقُولُ لِقَوْمِهِ: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}. [هُود: ٢٩].
ثُمَّ: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ} مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}. [هُود: ٥٦].
هَذِهِ مِنْ أَقْوَى آيَاتِ التَّوَكُّلِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَكَأَنَّ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لَهُمْ: أَنْتُمْ كَثِيرُونَ وَأَنَا وَاحِدٌ.
لَكِنَّ الَّذِي بِيَدِهِ نَوَاصِي الْجَمِيعِ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

📌 **قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:** مِنْ جَمِيلِ مَا فِي السُّورَةِ قَوْلُهُ:
{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ} وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هُود: ٨٨].
لَا حِطُّوا كَيْفَ تَتَكَرَّرُ الْفِكْرَةُ: إِصْلَاحٌ ... تَوَكَّلْ ... إِنَابَةٌ.
وَهَذِهِ هِيَ أَدَوَاتُ الْإِسْتِقَامَةِ.

📌 **ثُمَّ فِي قَلْبِ السُّورَةِ:** تَأْتِي الْآيَةُ الَّتِي قَالَ الْعُلَمَاءُ إِنَّهَا مِنْ أَشَدِّ الْآيَاتِ:
{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا} [هُود: ١١٢].
لَا حِطُّوا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: "فَاسْتَقِمْ قَدْرَ اسْتَطَاعَتِكَ"!! وَلَا: "فَاسْتَقِمْ أَحْيَانًا"!! بَلْ: {كَمَا أُمِرْتَ}..
أَيُّ: وَفَقَ الْمِيزَانَ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ.

📌 **لِمَاذَا شَيَّبَتْ هُودَ رَأْسَ النَّبِيِّ ﷺ؟** لِأَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ أَصْعَبُ مِنَ التَّوْبَةِ!! فَالتَّوْبَةُ قَدْ تَكُونُ
لَحْظَةً... أَمَّا الْإِسْتِقَامَةُ فَهِيَ عُمْرٌ كَامِلٌ!! وَلِهَذَا لَمْ تَقُلْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: تَبْ.
بَلْ قَالَتْ: {فَاسْتَقِمْ}..

📌 **خَاتِمَةُ السُّورَةِ:** فِي آخِرِ السُّورَةِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:
{وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} [هُود: ١٢٠].
هَذِهِ الْآيَةُ تَكْشِفُ سِرَّ السُّورَةِ كُلِّهَا.

لِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْقِصَصِ؟
الْجَوَابُ: {مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}... فَكَأَنَّ سُورَةَ هُودٍ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ قِصَصِ أَنْبِيَاءَ.
بَلْ هِيَ مَدْرَسَةُ التَّثْبِيتِ وَالْإِسْتِقَامَةِ.

📌 **الْخُلَاصَةُ:**

سُورَةُ يُونُسَ: ثِقْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبِوَعْدِهِ.
{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ} [يُونُس: ٦٢].
سُورَةُ هُودٍ: بَعْدَ أَنْ وَثِقْتَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، اسْتَقِمْ.
{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [هُود: ١١٢].

وَلِذَلِكَ أَرَى -وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ- أَنَّ سُورَةَ هُودٍ لَا تَتَحَدَّثُ عَنِ "النَّجَاةِ" بِقَدْرِ مَا تَتَحَدَّثُ عَنْ:
كَيْفَ تَبْقَى عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ حَتَّى تَأْتِيَ النَّجَاةُ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ الشُّورَةَ التَّالِيَةَ، وَهِيَ سُورَةُ يُوسُفَ، سَتُجِيبُ عَنْ سُؤَالٍ جَدِيدٍ:
إِذَا اسْتَقَمَّتْ عَلَى الْمَنْهَجِ، فَكَيْفَ سَتَتَعَامَلُ مَعَ الْإِبْتِلَاءَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي لَا تَأْتِي مِنْ قَوْمِي،
بَلْ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيَّ؟

وَهُنَا يَبْدَأُ لَوْنٌ آخَرٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:
لَا تَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ فَقَطْ، بَلْ تَرْبِيَةُ الْقَلْبِ الْفَرْدِيِّ.

سُورَةُ يُوسُفَ:

❖ سُورَةُ يُوسُفَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):

انتهت سورة هود بقول الله تعالى:

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ...﴾ [هُود: ١٢٠]

هذه الآية في غاية الأهمية!! فهي تكشف أن الهدف من القصص ليس التسلية، بل: تَثْبِيْتُ الْفُؤَادِ.

ثم تأتي سورة يوسف مباشرة... لكنَّ المفاجأة أن سورة يوسف تختلف عن سورة هود.

ففي سورة هود رأينا كوكبة من الأنبياء الكرام:

نوحًا... هودًا... صالحًا... لوطًا... شعيبًا... موسى.

أما سورة يوسف، فكلُّ السورة تقريبًا هي قصة واحدة.

فكأنَّ القرآن الكريم يقول لنا:

لقد رأيتُم نماذج كثيرةً للتثبيت، والآن سأريكم نموذجًا واحدًا كاملاً من أوَّله إلى آخره.

📌 تبدأ سورة يوسف بقول الله تعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يُوسُف: ١]

ثمَّ يقول جلَّ جلاله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُف: ٢]

ثمَّ يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يُوسُف: ٣]

لماذا "أَحْسَنَ الْقَصَصِ"؟ مع أنَّها قصة واحدة!!

لأنَّها ليست قصة نَجاةٍ من مشكلةٍ واحدة.

بل هي قصة إنسانٍ ينتقلُ عبر مراحلٍ متتابعةٍ من البلاء:

حَسَدُ الْإِخْوَةِ... الْجُبُّ... الرِّقُّ... الْفِتْنَةُ... السَّجْنُ... الْغُرْبَةُ... السُّلْطَةُ.

ثمَّ يخرجُ من كلِّ ذلك محافظًا على إيمانه بالله جلَّ جلاله.

📌 الرُّؤْيَا الْأُولَى: يقول يوسف:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يُوسُف: ٤]

هذه الرؤيا هي البذرة الأولى للقصة كلها.

لكن تأملوا شيئاً عجيباً:
الرؤيا تُبَشِّرُ بمستقبلٍ عظيم.
لكنَّ الواقع الذي سيأتي بعدها مباشرة هو:
🤔 غَيَابَةُ الْجُبِّ.

كم مرّة يرى الإنسان وعداً من الله جلّ جلاله، ثم يرى بعده مباشرة ما يبدو عكس الوعد؟
يوسف رأى السجود... ثم أُلقي في الجُبِّ.
فالقرآن الكريم يُعلّمنا هنا أنّ: الطريق إلى الوعد ليس دائماً مستقيماً في نظر البشر.

📌 **حَسَدُ الإِخْوَةِ:** يقول إخوة يوسف:
{يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَيْنَا مِنَّا}. [يُوسُفُ: ٨]
ثم قالوا: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ امْطُرُوهُ أَرْضًا يَخُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ}. [يُوسُفُ: ٩]
ماذا نتعلّم؟

أوّل بلاءٍ في حياة يوسف لم يأت من أعدائه!! بل من إخوته!!
وهنا فرق كبير بين سورة يوسف وسورة هود.

في سورة هود كان الصراع غالباً:
بين نبيٍّ وقومه.

أمّا في سورة يوسف:
فالصراع بدأ في داخل البيت نفسه.

📌 **كَلِمَةُ يَعْقُوبَ الْعَظِيمَةِ:** عندما جاء الأبناء بالقميص الملطّخ بالدم قال يعقوب:
{قَصْبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}. [يُوسُفُ: ١٨]
هذه أوّل مرّة تظهر فيها هذه العبارة في السورة، وستصبح فيما بعد مفتاحاً لفهمها.

ما هو الصبر الجميل؟
القرآن الكريم لم يُعرّفه مباشرة... لكن من سياق يعقوب نفهم أنّه:
صبرٌ لا يثبّم الله جلّ جلاله... صبرٌ لا يعترض على القضاء... صبرٌ لا يقطع الرجاء.

ولهذا أكمل بقوله: {وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}. [يُوسُفُ: ١٨]

📌 غِيَابَةُ الْجُبِّ: قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. [يُوسُف: ١٥]
هذه الآية الكريمة من جميل آيات السورة... لماذا؟
لأنَّ الوحي جاء في قاع الجُبِّ... ليس في القصر... ولا في التمكين.

كَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقُولُ:

قد تأتيك أعظمُّ بشاراتِ الله جلَّ جلاله وأنت في أضيقِّ ظروفك.

📌 امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: قال الله تعالى:

﴿وَرَأَوْدَتْهُ النَّبِيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. [يُوسُف: ٢٣]

ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾. [يُوسُف: ٢٣]

تأملوا... يوسف هنا:

شابٌ... غريبٌ... مملوكٌ... لا يراه أحدٌ... ومع ذلك رفض!! لماذا؟
الجوابُ في نفس الآية: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾!! أي أنَّ الرقيبَ الحقيقيَّ ليس الناس.
بل الله العظيمُ جلَّ جلاله.

وهنا عودةٌ إلى سورة هود: ﴿فَاسْتَخَفُّوا كَمَا أُخِذْتُ﴾. [هُود: ١١٢].

📌 الْبُرْهَانُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾. [يُوسُف: ٢٤]

ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾. [يُوسُف: ٢٤]
إِذْنًا، فَالنجاةُ ليستْ بِقُوَّةِ الْإِنْسَانِ وَحْدَهَا، بَلْ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: فَصَرَفَ الشُّوءَ عَنْ نَفْسِهِ، بَلْ قَالَ: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾.
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جلاله هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ عَبْدَهُ، وَيَصْرِفُ عَنْهُ مَوَاطِنَ الضَّلَالِ وَالْفِتَنِ.

📌 السَّجْنُ: ثُمَّ يَقُولُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. [يُوسُف: ٣٣]

هَذِهِ مِنْ عَظِيمِ آيَاتِ سُورَةِ يُوسُفَ... لِمَاذَا؟

لِأَنَّهَا تَكْشِفُ تَرْتِيبَ الْأَوَلَوِيَّاتِ... فَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَخْتَرْ السَّجْنَ لِأَنَّهُ يُحِبُّهُ.
بَلْ اخْتَارَهُ لِأَنَّ السَّجْنَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ جَلَّ جلاله.
فَقَدَّمَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَاحَةِ نَفْسِهِ.

📌 **الدَّعْوَةُ دَاخِلُ السَّجْنِ:** قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. [يُوسُفُ: ٣٩]
تَأْمَلُوا مَعِيَ... حَتَّى فِي السَّجْنِ، لَمْ يَنْسَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَظِيفَتَهُ وَرِسَالَاتَهُ.

وَهُنَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ:

مَنْ يَجْعَلُ الدِّينَ حَدَثًا طَارِئًا فِي حَيَاتِهِ... وَمَنْ يَجْعَلُ الدِّينَ هُوَ الْأَصْلَ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ حَيَاتُهُ.

📌 **التَّمَكِينُ:** بَعْدَ السَّجْنِ يَقُولُ الْمَلِكُ:

﴿اِثْنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾. [يُوسُفُ: ٥٤]

ثُمَّ يَقُولُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. [يُوسُفُ: ٥٥]

هَا هُوَ الْوَعْدُ يَقْتَرِبُ!! لَكِنْ بَعْدَ كَمْ مَرَحَلَةٍ؟

الْجُبُّ!! ثُمَّ الرُّقُّ!! ثُمَّ الْفِتْنَةُ!! ثُمَّ السَّجْنُ!! ثُمَّ التَّمَكِينُ.

فَالطَّرِيقُ إِلَى التَّمَكِينِ مَرَّ أَوَّلًا مِنْ طَرِيقِ الْإِبْتِلَاءِ.

📌 **لَحْظَةُ الْإِنْتِصَارِ:** يَلْتَقِي يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِخْوَتِهِ أَخِيرًا... وَيَسْتَطِيعُ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ.

لَكِنَّهُ يَقُولُ: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. [يُوسُفُ: ٩٢]

ثُمَّ يَقُولُ: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾. [يُوسُفُ: ٩٢]

هَذَا هُوَ الْإِنْتِصَارُ الْحَقِيقِيُّ!! لَيْسَ أَنْ تَهْزِمَ خَصْمَكَ!! بَلْ أَنْ تَنْتَصِرَ عَلَى حَقِّكَ!

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّرُوسِ الَّتِي تَعَلَّمَهَا رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ، الَّتِي نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ
أَيَّامَ الشَّدَّةِ وَالْمِحْنَةِ.

ثُمَّ لَمَّا عَادَ إِلَيْهَا فَاتِحًا لَهَا قَالَ لِأَهْلِهَا: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ».

📌 **اِكْتِمَالُ الرُّؤْيَا:** فِي نَهَايَةِ السُّورَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّا﴾. [يُوسُفُ: ١٠٠]

📌 **الْخَاتِمَةُ الْكُبْرَى:** لَاحِظُوا مَاذَا حَدَثَ؟

فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: رُؤْيَا.

وَفِي آخِرِ السُّورَةِ: تَتَحَقَّقُ الرُّؤْيَا.

وَبَيْنَهُمَا عَشْرَاتُ السِّنِينَ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الرِّسَالَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ لِسُورَةِ يُوسُفَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ الصَّبْرِ.

بَلْ: الثِّقَّةُ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ عِنْدَمَا لَا نَفْهَمُ الْأَحْدَاثَ.

وَلِهَذَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّهَايَةِ:
﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. [يُوسُفُ: ١٠٠]

هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ مَفَاتِيحِ سُورَةِ يُوسُفَ كُلِّهَا.
فَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ: إِنَّ رَبِّي قَوِيٌّ... مَعَ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ.
وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ رَبِّي قَادِرٌ... مَعَ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ.

بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.

أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ كَانَ يُدَبِّرُ الْأَحْدَاثَ كُلَّهَا بِلُطْفٍ خَفِيٍّ، حَتَّىٰ حِينَ كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ فِي الْجُبِّ، وَحِينَ كَانَ فِي السَّجْنِ، وَحِينَ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّ الْقِصَّةَ قَدْ انْتَهَتْ.
وَاللَّطِيفُ لَيْسَ فَقَطِ الرَّحِيمُ... بَلْ هُوَ الَّذِي يُوَصِّلُ الْخَيْرَ إِلَىٰ عَبْدِهِ بِطَرَقٍ خَفِيَّةٍ لَا يَرَاهَا.

انْظُرُوا إِلَى السَّلْسِلَةِ:
إِخْوَتُهُ أَرَادُوا التَّخْلَصَ مِنْهُ... فَالْتَقَطَتْهُ الْقَافِلَةُ... ثُمَّ بَاعَ عَبْدًا... ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَ الْعَزِيزِ... ثُمَّ دَخَلَ
السَّجْنَ... ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَلِكِ.

كُلُّ خُطْوَةٍ كَانَتْ تَبْدُو مُصِيبَةً!! لَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ كَانَتْ جُزْءًا مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي رَسَمَهُ اللَّهُ
جَلَّ جَلَالُهُ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.

وَبَعْدَ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ يَظْهَرُ سُؤَالٌ كَبِيرٌ:
هَلْ هَذَا التَّدْبِيرُ الْخَفِيُّ الَّذِي رَأَيْنَاهُ فِي حَيَاةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَالَةً اسْتِثْنَائِيَّةٌ؟
أَمْ أَنَّهُ قَانُونٌ عَامٌّ فِي سُنَنِ اللَّهِ؟

وَهُنَا تَبْدَأُ سُورَةُ الرَّعْدِ... فَسُورَةُ يُوسُفَ تُرِينَا لُطْفَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي قِصَّةِ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ،

وَتَأْتِي سُورَةُ الرَّعْدِ لِتَأْخُذَنَا إِلَى آفَاقٍ أَوْسَعٍ:
كَيْفَ تَظْهَرُ دَلَائِلُ هَذَا التَّدْبِيرِ الْإِلَهِيِّ فِي الْكُونِ كُلِّهِ، لَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهَا.

سُورَةُ الرَّعْدِ:

تُجِيبُنَا سُورَةُ الرَّعْدِ فِي أَوَّلِ صَفَحَاتِهَا:

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [الرَّعْد: ٢].

🔪 تَدْبِيرٌ بِلُطْفٍ، وَرَفَعٌ خَفِيٌّ لِلسَّمَاءِ.

تَأْمَلُوا مَعِيَ:

فِي سُورَةِ يُوسُفَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ} [يُوسُف: ١٠٠].

وَفِي سُورَةِ الرَّعْدِ: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [الرَّعْد: ٢].

كَأَنَّ سُورَةَ الرَّعْدِ تَقُولُ:

مَا رَأَيْتُهُ فِي حَيَاةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ نَمُودَجٌ مُّصَغَّرٌ لِّمَا يَجْرِي فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

🔪 يُوسُفُ وَالرَّعْدُ وَالسَّنَوَاتُ الطَّوِيلَةُ:

فِي سُورَةِ يُوسُفَ كَانَتْ الْأَحْدَاثُ تَمْتَدُّ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً.

الرُّؤْيَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَتَحَقُّقُهَا فِي آخِرِهَا، وَخِلَالِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَى النَّهَائِيَةَ.

وَفِي سُورَةِ الرَّعْدِ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

{كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الرَّعْد: ٢].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرَّعْد: ٨].

كَأَنَّ سُورَةَ الرَّعْدِ تَشْرَحُ مَا لَمْ يَكُنْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَاهُ.

كَانَ يُوسُفُ يَرَى يَوْمَهُ، أَمَّا اللَّهُ الْمَلِكُ جَلَّ جَلَالُهُ فَكَانَ يَرَى الْمَقَادِيرَ كُلَّهَا.

🔪 الْجُبُّ وَآيَةُ الزَّبَدِ:

مِنْ جَمِيلِ الرِّوَابِطِ الَّتِي تُلِفَتْ النَّظَرُ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ:

فِي أَوَّلِ سُورَةِ يُوسُفَ انْتَصَرَ الْبَاطِلُ ظَاهِرِيًّا، نَجَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأُلْقِيَ الطِّفْلُ فِي الْجُبِّ!! وَلَوْ نَظَرَ إِنْسَانٌ إِلَى الْمَشْهَدِ وَحْدَهُ لَقَالَ: انْتَهَتْ الْقِصَّةُ!! لَكِنَّهَا لَمْ تَنْتَهِ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الرَّعْدِ بِمَعْلَاهَا الْعَظِيمِ:

{فَاحْتَمَلَ السَّبِيلَ زَبَدًا رَابِيًا} [الرَّعْد: ١٧].

ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾. [الرَّعْدُ: ١٧].

وَكَانَ الشُّورَةُ تَقُولُ: إِخْوَةُ يُوسُفَ كَانُوا زَبَدًا، وَالْجُبُّ كَانَ زَبَدًا، وَالسَّجْنُ كَانَ زَبَدًا. أَمَّا مَشْرُوعُ اللَّهِ تَعَالَى لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَانَ هُوَ الَّذِي: ﴿يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾. [الرَّعْدُ: ١٧].

📌 السَّجْنُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ، وَقَائِلُونَ التَّغْيِيرِ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: فِي سُورَةِ يُوسُفَ لَمْ يَسْتَسْلِمِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلظُّرُوفِ.

فَفِي السَّجْنِ كَانَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. [يُوسُفَ: ٣٩]. لَمْ يَقُلْ: أَنَا مَظْلُومٌ وَسَأَنْتَظِرُ فَقَطْ، بَلْ عَمِلَ وَأَصْلَحَ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الرَّعْدِ بِقَائِلُونَهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. [الرَّعْدُ: ١١]. فَسُورَةُ الرَّعْدِ تَكْشِفُ سُنَّةَ عَامَّةٍ ظَهَرَتْ عَمَلِيًّا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

📌 يَغْفُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسُورَةُ الرَّعْدِ: مِنْ أَكْثَرِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ التَّأَمُّلَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ نَبِيُّ اللَّهِ يَغْفُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. [يُوسُفَ: ١٨]. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. [يُوسُفَ: ٨٦]. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾. [يُوسُفَ: ٨٧]. فَكَيْفَ بَقِيَ هَذَا الْقَلْبُ مُظْمِئًا؟

يَأْتِي الْجَوَابُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. [الرَّعْدُ: ٢٨]. فَكَأَنَّ يَغْفُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ التَّجْسِيدُ الْعَمَلِيُّ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

📌 مِنْ لُطْفٍ خَاصٍّ إِلَى نِظَامِ كَوْنِي: فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾. [يُوسُفَ: ١٠٠]. هَذَا لُطْفٌ رَبَّانِيٌّ فِي قِصَّةِ فَرْدٍ. أَمَّا سُورَةُ الرَّعْدِ فَتَفْتَحُ الْعَدَسَةَ إِلَى أَقْصَى مَدَى.

فَنَقْرَأُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾. [الرَّعْدُ: ٢].
﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾. [الرَّعْدُ: ٢].
﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾. [الرَّعْدُ: ٤].
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾. [الرَّعْدُ: ١٣].

وَكَانَ سُورَةُ الرَّعْدِ تَقُولُ:
لَا تَنْظُرْ إِلَى لُطْفِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ فَقَطْ، بَلْ انْظُرْ إِلَى الْكَوْنِ كُلِّهِ.
فَالَّذِي يُدَبِّرُ حَيَاةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾. [الرَّعْدُ: ٢].
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

📌 الْخُلَاصَةُ:

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُلَخِّصَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْنَا:
إِنَّ سُورَةَ يُوسُفَ تَكْشِفُ لَكَ لُطْفَ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ انْتِهَاءِ الْقِصَّةِ:
﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾. [يُوسُفَ: ١٠٠].

أَمَّا سُورَةُ الرَّعْدِ فَتَقُولُ:
هَذَا اللَّطْفُ الَّذِي رَأَيْنَاهُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ اسْتِثْنَاءً، بَلْ هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ
التَّدْبِيرِ الْإِلَهِيِّ الشَّامِلِ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾. [الرَّعْدُ: ٢].

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ كَلِمَةَ "التَّدْبِيرِ" هِيَ الْجِسْرُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَصِلُ سُورَةُ يُوسُفَ بِسُورَةِ الرَّعْدِ.
وَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾. [يُوسُفَ: ١٠٠]
يَكَادُ يَكُونُ الْمِفْتَاحُ الَّذِي نَدْخُلُ بِهِ إِلَى سُورَةِ الرَّعْدِ كُلِّهَا.

وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَعْلَمُ.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ:

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ السُّورِ الَّتِي إِذَا نُظِرَ إِلَيْهَا مُنْفَرِدَةً بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الرُّسُلِ وَالِدَّعْوَةِ وَالشُّكْرِ وَالْكَفْرِ وَدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَكِنْ إِذَا وُضِعَتْ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْبِنَاءِ الْقُرْآنِيِّ ظَهَرَتْ عَظَمَتُهَا بِشَكْلِ أَوْضَحَ.

لَقَدْ وَصَلْنَا فِي رِحْلَتِنَا إِلَى هَذَا التَّرْتِيبِ:

يُونُسُ: صِدْقُ الْوَحْيِ.

هُودُ: عَوَاقِبُ التَّكْذِيبِ.

يُوسُفُ: كَيْفَ يَنْتَصِرُ الْحَقُّ فِي الْخَفَاءِ.

الرَّعْدُ: الْحَقُّ قُوَّةَ كَوْنِيَّةٍ تَحْكُمُ الْوُجُودَ كُلَّهُ.

إِبْرَاهِيمُ: مَنْ الَّذِي جَسَدَ هَذَا الْحَقُّ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ؟ وَمَا جِذْرُهُ التَّارِيخِيُّ؟ وَمَنْ هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي حَمَلَهُ لِلْأُمَمِ؟

وَلِهَذَا جَاءَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ سُورَةِ الرَّعْدِ مُبَاشَرَةً.

❖ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ سُورَةِ الرَّعْدِ وَسُورَةِ إِبْرَاهِيمَ:

كَانَتْ سُورَةُ الرَّعْدِ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَقِّ بِوَصْفِهِ قَانُونًا كَوْنِيًّا يُشَبِّهُ نُزُولَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾. [الرَّعْدُ: 17].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾. [الرَّعْدُ: 17].

فَالْحَقُّ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ دِينِيَّةٍ، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ ثَابِتَةٌ.

لَكِنْ يَبْقَى السُّؤَالُ: مَنْ هُوَ النَّمُودَجُ الْبَشَرِيُّ الْأَعْظَمُ الَّذِي جَسَدَ هَذَا الْحَقُّ؟

هُنَا تَأْتِي سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ.

فَكَانَ سُورَةُ الرَّعْدِ تَحَدَّثُ عَنْ «الْحَقِّ»، وَجَاءَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ «إِمَامِ الْحَقِّ».

وَلِهَذَا خَتَمَتْ سُورَةُ الرَّعْدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. [الرَّعْدُ: 43].

ثُمَّ افْتَتَحَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: 1].

فَكَانَ السُّورَةُ الْجَدِيدَةُ تَرُدُّ مُبَاشَرَةً عَلَى خَاتِمَةِ السُّورَةِ السَّابِقَةِ.

📌 الآية الأولى: مَوْضُوعُ السُّورَةِ كُلُّهُ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: 2-1].
هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْحَقِيقَةِ تُلَخِّصُ كُلَّ مَا مَرَّ بِنَا مِنْذُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فِي الْبَقَرَةِ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: 2].

وَفِي يُونُسَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. [يُونُسَ: 57].

وَفِي الرَّعْدِ: ﴿أَقَمْنَ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾. [الرَّعْدِ: 19].

وَهُنَا: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: 1].

إِنَّهَا الْعَايَةُ الْجَامِعَةُ لِكُلِّ الرِّسَالَاتِ.

لَا حِطُّوا أَنَّهَا قَالَتْ: «الظُّلُمَاتِ» جَمْعًا، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ: «النُّورِ» مُفْرَدًا.

لِأَنَّ طُرُقَ الْبَاطِلِ كَثِيرَةٌ، أَمَّا طَرِيقُ الْحَقِّ فَهُوَ طَرِيقٌ وَاحِدٌ.

وَهَذَا الْمَعْنَى رَأَيْنَاهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾. [يُونُسَ: 32].

📌 قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا:

بَعْدَ الْمُقَدِّمَةِ بَدَأَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

[إِبْرَاهِيمَ: 5].

لَمَّاذَا بَدَأَتْ بِمُوسَى وَلَيْسَ بِإِبْرَاهِيمَ؟

لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُمَثِّلُ أَكْبَرَ تَجْرِبَةٍ تَارِيخِيَّةٍ لِخُرُوجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وَهَذَا يُعِيدُنَا إِلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَسُورَةُ الْبَقَرَةِ بَدَأَتْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَهَا هِيَ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ تَعُودُ إِلَيْهِمْ مِنْ جَدِيدٍ، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ كَبِيرٌ.

فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَانَ التَّرْكِيزُ عَلَى التَّشْرِيعِ.

أَمَّا هُنَا فَالتَّرْكِيزُ عَلَى التَّحْرِيرِ.

فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَمَّةٌ خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ.

وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ نَفْسُ الْأَمَّةِ، لَكِنَّ خُرُوجَهَا هُنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

فَسُورَةُ الْبَقَرَةِ تَسْتَأْنِفُ قِصَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مَرَحَلَةِ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ وَمِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ،

وَتَسْتَخْضِرُهَا أَمَامَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَدِيدَةِ.

أَنْظُرُوا إِلَى التَّسْلُسِلِ:

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ تُذَكِّرُنَا بِمَشْهَدِ الْخُرُوجِ نَفْسِهِ...

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}. [إِبْرَاهِيم: 5].

أَمَّا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يُرَكِّزُ عَلَى الْخُرُوجِ، بَلْ عَلَى مَا حَدَثَ بَعْدَهُ:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}. [البقرة: 40].

{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}. [البقرة: 50].

{وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}. [البقرة: 51].

{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}. [البقرة: 53].

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِثُ الْأَرْضُ}.

[البقرة: 61].

فَالْتَرَكِبُزُ انْتَقَلَ مِنَ النِّجَاةِ إِلَى التَّكْلِيفِ، وَمِنَ التَّخْرِيرِ إِلَى تَحْمُلِ الْأَمَانَةِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعْرِضُ لَنَا تَجْرِبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ زَاوِيَةِ إِخْرَاجِ

التَّائِسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ تَعْرِضُ لَنَا تَجْرِبَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ زَاوِيَةِ مَاذَا فَعَلُوا بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى النُّورِ،

وَكَيْفَ تَعَامَلُوا مَعَ الْكِتَابِ وَالْعَهْدِ وَالتَّشْرِيعِ.

وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مَعْنَى عَمِيقٌ يَتَكَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ!

فَالْخُرُوجُ مِنَ الظُّلْمَةِ لَيْسَ نَهَايَةَ الطَّرِيقِ، بَلْ بَدَايَتُهُ.

فَبَنُو إِسْرَائِيلَ نَجَوْا مِنْ فِرْعَوْنَ، وَلَكِنْ بَعْدَ النِّجَاةِ مُبَاشَرَةً وَقَعَ الْإِبْتِلَاءُ الْحَقِيقِيُّ:

{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}. [البقرة: 53].

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}. [البقرة: 63].

{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}. [البقرة: 63].

أَيُّ: إِنَّ التَّخْرِيرَ كَانَ تَفْهِيْدًا لِلتَّكْلِيفِ.

وَلَوْ أَرَدْنَا رَبْطَ السُّورَتَيْنِ ضَمْنَ مَشْرُوعِ «الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ» بِدِقَّةٍ أَكْبَرَ، لَقُلْنَا:

إِنَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ تُرَكِّزُ عَلَى لَحْظَةِ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ تُرَكِّزُ عَلَى كَيْفِيَّةِ الْعَيْشِ فِي هَذَا النُّورِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ جَعَلَ تَجْرِبَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَثَلًا تَارِيخِيًّا يُعَلِّمُ بِهِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا

يَنْبَغِي فِعْلُهُ، وَمَا يَنْبَغِي تَجَنُّبُهُ بَعْدَ أَنْ ثَوَّهَبَ الْهَدَايَةَ وَالْكِتَابَ.

وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ كِتَابَةِ الْحَدِيثِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مُطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

📌 **أَيَّامُ اللَّهِ:**

﴿وَذَكَرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾. [إبراهيم: 5].

هَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ أَعْجَبِ التَّعْبِيرَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
نَعَمْ، هَذَا الْكَلَامُ مُوجَّهٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَذَكِّرَ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِمْ، لِكَيْتَهُ
مُوجَّهٌ أَيْضًا لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِتَدَبُّرٍ وَتَعَقُّلٍ؛ فَقَدْ مَرَرْنَا فِي سُورِ الْأَعْرَافِ وَهُودٍ وَيُوسُفَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَيَّامِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ كُلِّهَا تَقْرِيْبًا.

يَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ... يَوْمُ عَادٍ... يَوْمُ ثَمُودَ... يَوْمُ فِرْعَوْنَ... يَوْمُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
كُلُّهَا «أَيَّامُ اللَّهِ» جَلَّ جَلَالُهُ.
وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَطْلُبُ مِمَّا مُرَاجَعَةَ الرِّحْلَةِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا.

📌 **سُنَّةُ الْإِسْتِغْنَاءِ وَالْكَفْرِ:**

ثُمَّ تَأْتِي الْآيَةُ الْمَحْوَريَّةُ:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. [إبراهيم: 8].
وَهُنَا يَعُودُ حَيْضُ سُورَةِ يُوسُفَ مِنْ جَدِيدٍ.
فِي سُورَةِ يُوسُفَ رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَخْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ.
إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ مَصِيرَ الْأَحْدَاثِ.
وَالْعَزِيزُ ظَنَّ ذَلِكَ!! وَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ ظَنَّتْ ذَلِكَ.

لَكِنَّ اللَّهَ اللَّطِيفَ نَقَذَ أَمْرَهُ دُونَ أَنْ يَخْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ.

📌 **مَوْكِبُ الرُّسُلِ:**

ثُمَّ تَبْدَأُ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بِاسْتِغْرَاضِ الرُّسُلِ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. [إبراهيم: 10].

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ... عَادٌ... ثَمُودٌ... وَمَنْ بَعْدَهُمْ.
وَهُنَا تَتَشَابَكُ السُّورَةُ مُبَاشَرَةً مَعَ الْأَعْرَافِ وَهُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
بَلْ يُمَكِّنُ اعْتِبَارُ هَذَا الْمَقْطَعِ تَلْخِيصًا مُرَكَّزًا لِمَا فَصَّلَ هُنَاكَ.
فَالْأَعْرَافُ وَهُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضْنَا الْقِصَصَ كَامِلَةً.
وَسُورَةُ إِبْرَاهِيمَ تَسْتَخْرِجُ مِنْهَا قَانُونًا وَاحِدًا:

كُلُّ الرُّسُلِ وَاجَهُوا الْاِغْتِرَاضَ نَفْسَهُ:
{إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}. [إبراهيم: 10].
وَهُوَ نَفْسُ اِغْتِرَاضِ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

📌 الصَّرَاغُ الْحَقِيقِيُّ:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا}. [إبراهيم: 13].
وَهُنَا نَعُودُ إِلَى سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
يُوسُفُ أُخْرِجَ.
وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُخْرِجَ.
وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُخْرِجَ.

لَكِنَّ التَّتَبُّعَ دَائِمًا كَانَتْ وَاحِدَةً:
{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}. [إبراهيم: 13].
وَهَذَا هُوَ الدَّرْسُ الْمَرْكَزِيُّ فِي سُورِ هُودٍ وَيُوسُفَ وَالرَّغْدِ.

📌 الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ:

نَصِلُ الْآنَ إِلَى قَلْبِ السُّورَةِ:
{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً}. [إبراهيم: 24].
هَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ الْاِمْتِدَادُ الطَّبِيعِيُّ لِمَثَلِ نُزُولِ الْمَاءِ فِي سُورَةِ الرَّغْدِ.

فِي الرَّغْدِ: الْمَاءُ يَنْزِلُ.
وَفِي إِبْرَاهِيمَ: الشَّجَرَةُ تُنْبِتُ.
هُنَاكَ... أَضَلُّ الْحَقِّ فِي الطَّبِيعَةِ.
وَهُنَا... نَمُودَجُ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ.
{أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ}. [إبراهيم: 24].
وَهَلْ هُنَاكَ وَصَفٌ أَدَقُّ لِمَا رَأَيْنَاهُ فِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟
كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَابِتَ الْأَصْلِ، رَغَمَ الْجَبِّ وَالسَّجْنِ.
ثُمَّ اِرْتَفَعَ قَرَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ.

📌 الشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ:

{وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ}.
هَذَا هُوَ الزَّبْدُ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ سُورَةُ الرَّغْدِ.

قَالَتْ سُورَةُ الرَّعْدِ: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾. [الرَّعْد: ١٧].
وَقَالَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ﴿اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٢٦].

الْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَلَكِنَّ الصُّورَةَ تَغَيَّرَتْ:
فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: زَبَدٌ يَطْفُو.....وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: شَجَرَةٌ بِلاَ جُذُورٍ.

📌 تَثْبِيثُ الْمُؤْمِنِينَ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ:
﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٢٧].
وَهَذَا هُوَ لُبُّ سُورَةِ هُودٍ.

أَتَذَكَّرُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾. [هُود: ١١٢].
فَالْتَّبَاتُ فِي سُورَةِ هُودٍ يَبْدَأُ مِنَ الْإِنْسَانِ...وَأَمَّا التَّثْبِيثُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ فَمِنْ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.
فَالثَّمَرَةُ وَاحِدَةٌ.

📌 مَشَاهِدُ الْقِيَامَةِ:

ثُمَّ تَنْتَقِلُ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ فَجَاءَتْ إِلَى الْآخِرَةِ! لِمَاذَا؟
لِأَنَّ سُورَةَ الرَّعْدِ أَثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَقَّ يَحْكُمُ الدُّنْيَا.
أَمَّا سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ فَتُثَبِّتُ لَنَا أَنَّ الْحَقَّ يَحْكُمُ الْآخِرَةَ أَيْضًا.

وَلِهَذَا نَرَى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٢١].
﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٢٢].
﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٢٣].
كَأَنَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ تُكْمِلُ مَا بَدَأَتْهُ سُورَةُ هُودٍ مِنْ بَيَانِ مَصَائِرِ الْأُمَمِ.

📌 الْوُضُولُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ:

بَعْدَ كُلِّ هَذَا التَّمْهِيدِ نَصِلُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَهُنَا تَظْهَرُ رَوْعَةُ تَرْتِيبِ السُّورَةِ، فَالسُّورَةُ لَمْ تَبْدَأْ بِإِبْرَاهِيمَ مُبَاشَرَةً، بَلْ مَرَّتْ بِمَوْكِبِ الرُّسُلِ
كُلِّهِ، ثُمَّ انْتَهَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ! لِمَاذَا؟
لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَيْسَ رَسُولًا بَيْنَ الرُّسُلِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ الْأَبُ الْجَامِعُ لِلرَّسَالَاتِ.
كَأَنَّهُ الْجَذْرُ الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ كُلُّهَا.

📌 دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٣٥].
هُنَا يَعُودُ بِنَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ.
فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾. [الْبَقَرَةِ: ١٢٦].

أَمَّا هُنَا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٣٥].
فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَانَ الْمَكَانُ قَبْلَ اكْتِمَالِ الْعُمْرَانِ.
وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ أَنْ صَارَ بَلَدًا مَعْرُوفًا.
وَهَذَا مِنَ الْطَفِ الرِّوَابِطِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ.

📌 الْقِصَّةُ الْكُبْرَى: الشُّكْرُ.

ثُمَّ يَقُولُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٣٩].
وَهُنَا نَصِلُ إِلَى سِرِّ السُّورَةِ كُلِّهِ... لَنَحْظُوا اسْمَهَا: إِبْرَاهِيمُ.
وَالآيَةُ الْمَحْوَريَّةُ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٧].
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ النَّمُودَجُ الْأَكْمَلُ لِلشُّكْرِ.

وَلِذَلِكَ وَصَفَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:
﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾. [النَّحْلُ: ١٢١].
فَإِذَا كَانَتْ سُورَةُ يُوسُفَ سُورَةُ الصَّبْرِ، فَإِنَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ تَكَادُ تَكُونُ سُورَةَ الشُّكْرِ.

📌 خَاتِمَةُ السُّورَةِ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٥٢].
تَأْمَلُوا النَّهَايَةَ.

لَقَدْ بَدَأَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.
[إِبْرَاهِيمَ: ١].

وَانْتَهَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾. [إِبْرَاهِيمَ: ٥٢].
بِدَايَةِ السُّورَةِ رِسَالَةٌ!! وَنَهَايَتُهَا تَبْلِيغٌ.
وَكَانَ السُّورَةُ دَائِرَةً كَامِلَةً.

أَمَّا إِذَا أَرَدْنَا تَلْخِيصَ مَوْضِعِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى الَّتِي نَبْنِيهَا، فَيُمْكِنُنَا الْقَوْلُ:
إِنَّ سُورَةَ يُوسُفَ أُثْبِتَتْ أَنَّ الْحَقَّ يَنْتَصِرُ.

وَسُورَةُ الرَّعْدِ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَقِّ مِنْ جِهَةٍ كَوْنِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.
وَسُورَةُ إِبْرَاهِيمَ تَعْرِضُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْضِفُهُ الْإِمَامَ الَّذِي جَسَّدَ الاسْتِجَابَةَ الْكَامِلَةَ
لِهَذَا الْحَقِّ بِالشُّكْرِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْاِسْتِسْلَامِ.

وَلِهَذَا سَنَجِدُ أَنَّ السُّورَةَ التَّالِيَةَ، وَهِيَ سُورَةُ الْحَجَرِ، سَتَنْتَقِلُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ أَصْلِ الرِّسَالَةِ:
{كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ}. [إِبْرَاهِيمَ: ١].

إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ حِفْظِ الرِّسَالَةِ:
{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. [الْحَجَرِ: ٩].
وَكَأَنَّ الْبِنَاءَ الْقُرْآنِيَّ يَصْعَدُ دَرَجَةً جَدِيدَةً بَعْدَ أَنْ ثَبَّتَ الْأَصْلَ وَالْجَذَرَ.

سُورَةُ الْحَجَرِ



إِذَا كَانَتْ سُورَةُ يُوسُفَ اثْبَتَتْ أَنَّ الْحَقَّ يَنْتَصِرُ وَلَوْ طَالَ الطَّرِيقُ، وَسُورَةُ الرَّعْدِ اثْبَتَتْ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ الْحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، وَسُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بَيَّنَّتْ أَنَّ أَضْلَ هَذَا الْحَقِّ هُوَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي أَخْرَجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...
فَإِنَّ سُورَةَ الْحَجَرِ تَأْتِي لِتُجِيبَ عَنْ سُؤَالٍ جَدِيدٍ:
🤔 إِذَا كَانَ هَذَا الْحَقُّ قَدْ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، فَمَنْ الَّذِي يَحْفَظُهُ مِنَ الضِّيَاعِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّكْذِيبِ؟

وَلِهَذَا تَبْدَأُ السُّورَةُ بِبِدَايَةٍ لَافِتَةٍ: ...{الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} [الحجر: ١].
ثُمَّ مُبَاشَرَةً: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

وَكَأَنَّ السُّورَةَ تُعْلِنُ مِنْذُ الْبِدَايَةِ:
إِنَّ الْحَقَّ الَّذِي تَكَلَّمْتُ عَنْهُ السُّورُ السَّابِقَةُ لَيْسَ مَتْرُوكًا لِلنَّاسِ لِيَحْفَظُوهُ، بَلِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي تَكْفَلُ بِحِفْظِهِ.
وَهَذِهِ أَوَّلُ قَضِيَّةٍ كُبْرَى فِي السُّورَةِ.

📌 حِفْظُ الْوَحْيِ:

فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ رَأَيْنَا الْوَحْيَ يَنْزِلُ: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} [إبراهيم: ١].
أَمَّا هُنَا فَنَرَى الضَّمَانَ الْإِلَهِيَّ لِاسْتِمْرَارِهِ: {إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].
وَهَذَا مُهِمٌّ جَدًّا فِي تَرْتِيبِ السُّورِ، فَإِنزَالُ الْكِتَابِ شَيْءٌ، وَحِفْظُ الْكِتَابِ شَيْءٌ آخَرُ.
فَكَأَنَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ تَحَدَّثُ عَنِ الرِّسَالَةِ وَأَضْلَ الرِّسَالَةِ، وَجَاءَتْ سُورَةُ الْحَجَرِ لِتَتَحَدَّثَ
عَنْ صِيَانَتِهَا.

📌 لِمَاذَا يُكَذِّبُ النَّاسُ الْحَقَّ؟

بَعْدَ إِعْلَانِ حِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُبَاشَرَةً، تَبْدَأُ السُّورَةُ بِعَرَضٍ ظَاهِرَةٍ قَدِيمَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ:
{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الحجر: ١١].
وَهُنَا تَفْتَحُ السُّورَةُ مَلَفًا مُهِمًّا جَدًّا.
فَالنَّاسُ لَا يَرْفُضُونَ الْحَقَّ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ عَلَيْهِ نَاقِصَةٌ.
بَلْ لِأَنَّ مَرَضَ الْإِسْتِكْبَارِ قَدِيمٌ.

وَلِهَذَا تَقُولُ السُّورَةُ: {كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} لا يُؤْمِنُونَ بِهِ [الحجر: ١٢-١٣].
لَا حِظَّ كَيْفَ انْتَقَلَ الْحَدِيثُ مِنَ الْخَارِجِ إِلَى الدَّاخِلِ.

فَالْمُشْكَلَةُ لَيْسَتْ فِي الْآيَاتِ، بَلْ فِي الْقُلُوبِ!! وَهَذَا امْتِدَادٌ طَبِيعِيٌّ لِسُورَةِ الرَّعْدِ.
فَفِي الرَّعْدِ كَانَتْ الْأَدِلَّةُ الْكُونِيَّةُ كُلُّهَا تَشْهَدُ لِلْحَقِّ، وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَ الْمُكَذِّبُونَ مُكَذِّبِينَ.
وَالْحِجْرُ تَوْضُحٌ لَنَا السَّبَبُ: الْمَرَضُ فِي الْقَلْبِ، لَا فِي الْبَرْهَانِ.

✍️ حِفْظُ الْوَحْيِ يُقَابِلُهُ حِفْظُ الْكَوْنِ:

ثُمَّ تَأْتِي نَقْلَةُ مُدْهِشَةٍ!! بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى حِفْظِ السَّمَاءِ:
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.
[الحجر: ١٦-١٧].

كَأَنَّ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ تَقُولُ:
كَمَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْفَظُ كِتَابَهُ فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ يَحْفَظُ السَّمَاءَ فِي الْكَوْنِ.
ثُمَّ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَنَّاهَا﴾. [الحجر: ١٩].
﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾. [الحجر: ١٩].
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾. [الحجر: ٢١].
فَالْكَوْنُ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَى الْحِفْظِ وَالتَّقْدِيرِ.
وَمَنْ يَحْفَظُ الْمَجَرَّاتِ وَالنُّجُومَ وَالرِّيَّاحَ وَالْمَطَرَ، لَا يَعْجِزُ عَنْ حِفْظِ كِتَابِهِ.

✍️ أَصْلُ الْإِنْجِرَافِ الْبَشَرِيِّ:

ثُمَّ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى أخطرِ قِصَّةٍ فِيهَا!! قِصَّةُ إِبْلِيسَ.
وَهُنَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَوَقَّفَ طَوِيلًا... فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ رَأَيْنَا كَيْفَ يَرْفُضُ الْبَشَرُ الْحَقَّ.
أَمَّا هُنَا فَالسُّورَةُ تَرْجِعُ بِنَا إِلَى الْجَذْرِ الْأَوَّلِ لِهَذَا الرَّفْضِ.
لِمَاذَا يَرْفُضُ الْمَخْلُوقُ أَمْرَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ؟
الْجَوَابُ: الْإِسْتِكْبَارُ.

قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾. [الحجر: ٣٣].
وَقَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. [الأعراف: ١٢].
وَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ أَوَّلَ مَعْرَكَةٍ فِي التَّارِيخِ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ مِنْ جِهَةِ الْأَدِلَّةِ، بَلْ بَيْنَ
الطَّاعَةِ وَالْكِبرِ، وَلِهَذَا فَإِبْلِيسُ هُوَ النَّمُودَجُ الْأَوَّلُ لِكُلِّ مَنْ يَرُدُّ الْحَقَّ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَهُ.

✍️ الرَّحْمَةُ وَالْعَوَايَةُ:

ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ مِنْ أَعْجَبِ آيَاتِ السُّورَةِ:
﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾. [الحجر: ٤٩-٥٠].
بَعْدَ قِصَّةِ إِبْلِيسَ مُبَاشَرَةً.

وَكَانَ الشُّورَةُ تَقُولُ: الْبَابُ مَا زَالَ مَفْتُوحًا... فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَدَ الرَّحْمَةَ. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ إِبْلِيسَ وَجَدَ الْعَذَابَ. وَلِهَذَا تَأْتِي بَعْدَهَا قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ قِصَّةُ لُوطَ، ثُمَّ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ، ثُمَّ ثَمُودُ.

أَمْثِلَةٌ مُتَتَابِعَةٌ عَلَى الْمَصِيرَيْنِ:
رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعُقُوبَةٌ لِلْمُكَذِّبِينَ.

📌 ثَمُودُ فِي وَصْفٍ جَدِيدٍ:

هُنَا تَظْهَرُ لِمَسَّةٌ دَقِيقَةٌ... ثَمُودُ ذُكِرُوا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. لَكِنَّ الْحَجَرَ تَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾. [الحجر: ٨٠]. لِمَاذَا أَصْحَابُ الْحَجَرِ؟ لِأَنَّ الشُّورَةَ اسْمُهَا الْحَجَرُ، وَالْحَجَرُ هُوَ الْمَكَانُ الْمَنْحُوتُ فِي الْجِبَالِ. ثُمَّ تَقُولُ: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾. [الحجر: ٨٢]. كَأَنَّ الشُّورَةَ تَعْرِضُ ثَمُودَاجَ إِنْسَانٍ ظَنَّ أَنَّ الْحِجَارَةَ تَحْفَظُهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ. بَيْنَمَا الْحَقِيقَةُ أَنَّ الْحِفْظَ لِلَّهِ وَخَدَهُ. وَهَذَا يَنْسَجِمُ مَعَ مَوْضُوعِ الشُّورَةِ كُلِّهِ. فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالسَّمَاءُ مَحْفُوظَةٌ بِأَمْرِهِ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُ مَحْفُوظٌ بِتَقْدِيرِهِ. أَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا اعْتَمَدَ عَلَى قُوَّتِهِ وَخَدَهَا هَلَكَ.

📌 الْخَاتِمَةُ الْعَظِيمَةُ:

بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ الْحِفْظِ وَالتَّكْذِيبِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ، يُخَاطَبُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ نَبِيَّهُ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾. [الحجر: ٩٧]. وَهَذِهِ خَاتِمَةٌ شَدِيدَةُ الْجَمَالِ. فَبَعْدَ أَنْ عَرَضَتِ الشُّورَةُ تَارِيخَ الْمُكَذِّبِينَ كُلَّهُ، تَعُودُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، تَعُودُ إِلَى الدَّاعِيَةِ. كَأَنَّهَا تَقُولُ لَهُ: لَا تَحْزَنْ... مَا يَحْدُثُ لَكَ حَدَثٌ لِكُلِّ الرُّسُلِ.

ثُمَّ يَأْتِي الْعِلَاجُ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. [الحجر: ٩٨]. ثُمَّ آخِرُ آيَةٍ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. [الحجر: ٩٩]. وَهُنَا تَبْلُغُ الشُّورَةُ ذِرْوَتَهَا... فَالْحَقُّ مَحْفُوظٌ، وَالْوَحْيُ مَحْفُوظٌ، وَالذَّعْوَةُ مَحْفُوظَةٌ. أَمَّا وَظِيفَةُ الدَّاعِيَةِ فَلَيْسَتْ ضَمَانِ النَّتَائِجِ، بَلِ الثَّبَاتُ عَلَى الْعِبَادَةِ حَتَّى النَّهَايَةِ.

📌 مَوْقِعُ الْحَجَرِ فِي السَّلْسِلَةِ كُلِّهَا:

إِذَا جَمَعْنَا مَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ حَتَّى الْآنَ ظَهَرَ لَنَا خَيْطٌ بَدِيعٌ:

يُوسُفُ: الْحَقُّ قَدْ يُبْتَلَى، لَكِنَّهُ يَنْتَصِرُ.

الرَّعْدُ: الْحَقُّ هُوَ الْحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ فِي الْكَوْنِ.

إِبْرَاهِيمُ: هَذَا الْحَقُّ مَضَرُهُ الْوَحْيُ الَّذِي أُنْزِلَ لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ.

الْحَجَرُ: وَهَذَا الْوَحْيُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، مَهْمَا كَثُرَ الْمُسْتَهْزِئُونَ وَالْمُكَذِّبُونَ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ سُورَةَ الْحَجَرِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ سُورَةٍ عَنْ تَكْذِيبِ الْأُمَمِ، بَلْ هِيَ سُورَةُ الطَّمَأْنِينَةِ عَلَى مَصِيرِ الْوَحْيِ.

فَالرَّسَالَةُ الَّتِي بَدَأَتْ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَأُعْلِنَ حَقُّهَا فِي سُورَةِ الرَّعْدِ، وَجُرِّبَتْ فِي سُورَةِ يُوسُفَ، تَأْتِي سُورَةَ الْحَجَرِ لِتَقُولَ:

لَا تَخَافُوا عَلَى هَذَا الْحَقِّ؛ فَصَاحِبُهُ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهُ.

سُورَةُ النَّحْلِ:

تُرِيدُ سُورَةُ النَّحْلِ أَنْ تَنْقُلَ الْإِنْسَانَ مِنْ رُؤْيِيَةِ النِّعْمَةِ إِلَى شُكْرِ الْمُنْعَمِ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْآيَاتِ لَا تَسِيرُ عَشَوَائِيًّا، بَلْ تَبْنِي هَذَا الْمَعْنَى طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ.

أَوَّلًا: لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الاسْتِعْرَاضِ لِلنِّعَمِ؟

بَعْدَ ذِكْرِ الْخَلْقِ وَالْوَحْيِ تَقُولُ السُّورَةُ:

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [النحل: ٤].

تَأْمَلُوا: بَدَأَتْ بِذِكْرِ نِعْمَةِ الْخَلْقِ نَفْسَهَا.

ثُمَّ مُبَاشَرَةً تُشِيرُ إِلَى مُفَارَقَةٍ عَجِيبَةٍ:

الْإِنْسَانُ الَّذِي خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ، أَصْبَحَ يُجَادِلُ خَالِقَهُ جَلَّ جَلَالُهُ!

ثُمَّ يَأْتِي ذِكْرُ الْأَنْعَامِ: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [النحل: ٥].

لَمْ تَقُلِ السُّورَةُ: خَلَقَ الْأَنْعَامَ... بَلْ قَالَتْ: {خَلَقَهَا لَكُمْ}.

وَكَأَنَّ السُّورَةَ تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مُسَخَّرٌ لَهُ.

ثُمَّ: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ} [النحل: ٧].

ثُمَّ: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} [النحل: ٨].

ثُمَّ الْمَاءُ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النحل: ١٠].

ثُمَّ النَّبَاتُ: {يُنْبِثُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [النحل: ١١].

ثُمَّ الزَّمَنُ نَفْسُهُ: {وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [النحل: ١٢].

ثُمَّ الْبَحْرُ: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [النحل: ١٤].

فَالسُّورَةُ هُنَا كَأَنَّهَا تَجْمَعُ مِلَفَّ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْيشُ دَاخِلَ بَحْرِ مِنَ النِّعَمِ.

ثَانِيًا: لِمَاذَا جَاءَتْ آيَةُ النَّحْلِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟

بَعْدَ عَرْضِ الْكَوْنَ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى مَشْهَدٍ صَغِيرٍ جَدًّا:

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل: ٦٨].

الْإِنْتِقَالُ هُنَا مُدْهِشٌ!! مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْبِحَارِ وَالْأَنْعَامِ إِلَى نَحْلَةٍ صَغِيرَةٍ.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ السُّورَةَ لَا تُرِيدُ أَنْ تُرِيكَ عَظَمَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْخَلْقِ الصَّخِمِ فَقَطْ.

بَلْ فِي الْخَلْقِ الدَّقِيقِ أَيْضًا!! ثُمَّ انْظُرْ إِلَى التَّغْيِيرِ الْجَمِيلِ:
 ﴿فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾. [النحل: ٦٩]... فَالْخَلَّةُ تَسِيرُ فِي طُرُقٍ هَذَاهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهَا.
 ثُمَّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. [النحل: ٦٩].
 مَخْلُوقٌ صَغِيرٌ، عِنْدَمَا يَلْتَزِمُ بِالْمَنْهَجِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ، يَتَحَوَّلُ إِلَى آيَةٍ عَظِيمَةٍ
 عَلَى الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّسْخِيرِ.

ثَالِثًا: بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ تَأْتِي الصَّدْمَةُ:
 ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. [النحل: ٨٣].
 لَا حِطَّوَا... لَمْ يَقُلْ: يَجْهَلُونَ!! بَلْ: ﴿يَعْرِفُونَ﴾!! أَيْ أَنَّ الْمَشْكِلَةَ لَيْسَتْ فِي غِيَابِ النِّعْمَةِ.
 وَلَا فِي غِيَابِ الدَّلِيلِ عَلَى النِّعْمَةِ!! بَلْ فِي جُحُودِ الْقَلْبِ لِلنِّعْمَةِ!

رَابِعًا: مَثَلُ الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ... يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
 ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ
 سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾. [النحل: ٧٥].
 الْمَثَلُ فِي ظَاهِرِهِ عَنْ شَخْصَيْنِ... لَكِنَّ الْمَقْصُودَ أَعَمُّ.
 السُّورَةُ تَسْأَلُ: هَلْ يَسْتَوِي الْعَاجِزُ وَالْقَادِرُ؟
 إِذَا كَيْفَ يَسْتَوِي الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ؟
 وَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ شُرَكَاءَ وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا؟
 فَالْمَثَلُ فِي حَقِيقَتِهِ صَرْبَةٌ لِلتَّصَوُّرِ الشَّرَكِيِّ كُلِّهِ.

خَامِسًا: مَثَلُ الْأُبْكَمِ... ثُمَّ يَأْتِي مَثَلٌ آخَرُ:
 ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾. [النحل: ٧٦].
 ثُمَّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [النحل: ٧٦].
 وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: كَمَا لَا يَسْتَوِي هَذَانِ فِي الْجَسِّ، لَا يَسْتَوِي الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فِي الْمَعْنَى.

سَادِسًا: آيَةُ النِّعَمِ الْجَامِعَةِ... ثُمَّ تَأْتِي الْآيَةُ الَّتِي تُلْخِصُ مَقْصِدَ السُّورَةِ:
 ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. [النحل: ٧٨]... هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تُلْخِصُ السُّورَةَ كُلَّهَا.
 فَالْعَايَةُ النَّهَائِيَّةُ مِنْ تَعْدَادِ النِّعَمِ هِيَ الشُّكْرُ.

سَابِعًا: مَثَلُ الْقَرْيَةِ... ثُمَّ يَأْتِي الْمَثَلُ الْعَظِيمُ:
 ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ
 اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. [النحل: ١١٢].

تأمل كم من نعمة اجتمعت فيهم:

الأمن... الطمأنينة... الرزق.

ثم ماذا حدث؟ ﴿فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾!!

لَمْ يَقُلْ: كَفَرْتُ بِاللَّهِ!! بَلْ: ﴿بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾!! لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَوْضُوعُ السُّورَةِ، نِعَمُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ

عَلَى عِبَادِهِ!! ثُمَّ جَاءَتِ النَّتِيجَةُ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾..

لَا حِطُّوا الْمُقَابَلَةَ الْبَدِيعَةَ: كَانَتْ آمِنَةً، فَجَاءَهَا الْخَوْفُ... وَكَانَ رِزْقُهَا رَغَدًا، فَجَاءَهَا الْجُوعُ.

وَكَانَ السُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ تَعَلَّمْنَا قَانُونًا قَرَأْنِيًّا:

🔪 النِّعْمَةُ إِذَا لَمْ تُقَابَلْ بِالشُّكْرِ أَصْبَحَتْ مُعْرِضَةً لِلزَّوَالِ.

ثَامِنًا: لِمَاذَا ذَكَرَ الْإِمَامُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نِهَايَةِ السُّورَةِ؟

بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْبِنَاءِ يَأْتِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾. [النحل: ١٢٠-١٢١].

هَذَا تَنْكِشُفُ الْحِكْمَةُ... السُّورَةُ عَرَضَتْ نُمُودَجِينَ:

قَرِيبَةً كَفَرَتْ بِالنِّعَمِ!! وَرَجُلًا وَاحِدًا شَكَرَ النِّعَمَ، فَكَانَ أُمَّةً!! فَكَانَتِ الْقَرِيبَةُ مِثَالُ الْفَشَلِ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثَالُ النَّجَاحِ!! وَلِهَذَا جَاءَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ السُّورَةِ، لَا

فِي أَوَّلِهَا، لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ النَّتِيجَةَ الَّتِي تُرِيدُ السُّورَةُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ تَأْتِي الذُّرُوءُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. [النحل: ٩٠].

كَانَ السُّورَةُ تَقُولُ: إِذَا عَرَفْتُمُ النِّعَمَ، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْعِمَ، وَشَكَرْتُمُ رَبَّكُمْ كَمَا شَكَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ

السَّلَامُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي أَخْلَاقِكُمْ:

عَدْلًا... وَإِحْسَانًا... وَرَحْمَةً... وَوَفَاءً.

وَلِهَذَا أَرَى، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، أَنَّ سُورَةَ النَّحْلِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ "سُورَةِ النِّعَمِ" كَمَا يُشَاعُ.

بَلْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ: سُورَةُ تَحْوِيلِ النِّعْمَةِ إِلَى شُكْرِ الْمُنْعِمِ، وَتَحْوِيلِ الشُّكْرِ إِلَى سُلُوكِ عَمَلِيٍّ.

وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ لِمَاذَا جَاءَتْ سُورَةُ النَّحْلِ بَعْدَ سُورَةِ الْحَجْرِ مُبَاشَرَةً؛

فَسُورَةُ الْحَجْرِ قَالَتْ: إِنَّ الْوَحْيَ مَحْفُوظٌ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. [الحجر: ٩].

ثُمَّ جَاءَتْ سُورَةُ النَّحْلِ لِتَقُولَ:

وَهَذَا الْوَحْيُ الْمَحْفُوظُ جَاءَ لِيُعَلِّمَكَ كَيْفَ تَرَى نِعَمَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ مِثْلَ

الْقَرِيبَةِ الْجَا حِدَةٍ، بَلْ كُنْ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الشَّاكِرِ.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ:

لِمَاذَا افْتِتِحَتِ السُّورَةُ بِقِصَّةِ الْإِسْرَاءِ؟

إِذَا تَأَمَّلْنَا مَطْلَعَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ وَجَدْنَا أَمْرًا يَدْعُو إِلَى التَّدَبُّرِ.

افْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. [الإسراء: ١].

وَاللَّافِتُ لِلنَّظَرِ أَنَّ السُّورَةَ لَمْ تَتَوَسَّعْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِسْرَاءِ، وَلَمْ تَذْكُرْ تَفَاصِيلَ مَا أَرَى النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ اكْتَفَتْ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ الْمَوْجِزَةِ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِنُرِيَهُ﴾. يَعُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَيَّ إِنَّ مَا أَرَى كَانَ تَشْبِيهًا لَهُ، أَمَّا الْأُمَّةُ فَقَدْ وَجَّهَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى مَا هُوَ أَبْقَى وَأَدْوَمُ.

فَمَا إِنْ انْتَهَتْ الْآيَةُ الْأُولَى حَتَّى انْتَقَلَتِ السُّورَةُ مُبَاشَرَةً إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْكِتَابِ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾. [الإسراء: ٢].

فَكَانَ السُّورَةُ تَنْقُلُ أَنْظَارَنَا مِنْ آيَةٍ أَرَاهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى كِتَابٍ أَنْزَلَهُ هُدًى لِلْبَشَرِ.

ثُمَّ تَبَدَّأَ بِعَرْضِ تَجَرِبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ هَذَا الْكِتَابِ، فَتَقُولُ:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾. [الإسراء: ٤].

لَقَدْ كَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ كِتَابُ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ حِينَ أُعْرِضُوا عَنْ هِدَايَتِهِ، وَانْتَشَرَ الْفَسَادُ بَيْنَهُمْ، سَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ يُعَاقِبُهُمْ، ثُمَّ إِذَا رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَادَ إِلَيْهِمُ التَّمَكُّيْنُ، وَإِذَا عَادُوا إِلَى الْفَسَادِ عَادَ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ.

وَلِهَذَا قَدَّرَتِ السُّورَةُ قَائِدًا لَا يَخْتَصُّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَحَدَهُمْ، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. [الإسراء: ٧].

وَبَعْدَ أَنْ عَرَضَتِ السُّورَةُ قِصَّةَ أُمَّةٍ أَضَاعَتْ كِتَابَ رَبِّهَا، أَغْلَثَتْ مُبَاشَرَةً طَرِيقَ النَّجَاةِ لِلْأُمَّةِ الْخَائِفَةِ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [الإسراء: ٩].

وَكَانَ الرِّسَالَةُ وَاضِحَةً: لَقَدْ كَانَ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كِتَابٌ يَهْدِيهِمْ، فَلَمَّا أُعْرِضُوا عَنْهُ حَلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ، وَهَا هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، فَلَا تُكَرِّرُوا التَّجَرِبَةَ نَفْسَهَا؛ فَإِنَّ حَيَاتَكُمْ وَعِزَّتَكُمْ وَنَجَاتَكُمْ مُرْتَبِطَةٌ بِهَذَا الْكِتَابِ.

وَلِهَذَا تَكَرَّرَ الْحَدِيثُ عَنِ الْقُرْآنِ فِي السُّورَةِ:
 ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [الإِسْرَاءُ: ٩].
 ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. [الإِسْرَاءُ: ٨٢].
 ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾. [الإِسْرَاءُ: ٨٨].

بَلْ حَتَّى عِنْدَمَا سَأَلُوا عَنِ الرُّوحِ، لَمْ يَنْشَغِلِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِتَفْصِيلِ حَقِيقَتِهَا، وَإِنَّمَا قَالَ:
 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. [الإِسْرَاءُ: ٨٥].
 وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنَ السُّؤَالِ عَنْ سِرِّ الْحَيَاةِ فِي الْجَسَدِ إِلَى سِرِّ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ،
 وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْوَحْيُ فِي الْقَلْبِ.

وَيُوكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّورَى:
 ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا
 نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾. [الشُّورَى: ٥٢].
 فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رُوحٌ؛ لِأَنَّهُ يُخَيِّي الْقُلُوبَ، وَنُورٌ؛ لِأَنَّهُ يَهْدِيهَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.
 وَمِنْ هُنَا تَتَضَحُّ الْحِكْمَةُ فِي افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِالإِسْرَاءِ.

فَالِإِسْرَاءُ كَانَ آيَةً أَرَاهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، أَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فَهُوَ الْآيَةُ الَّتِي أَبْقَاهَا اللَّهُ
 جَلَّ جَلَالُهُ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا.

وَلِذَلِكَ لَمْ تَشْغَلْنَا السُّورَةَ بِتَفَاصِيلِ مَا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ، وَإِنَّمَا شَغَلْنَا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا لِنَحْيَا بِهِ.
 وَلَعَلَّ هَذَا يَدْعُونَا إِلَى مُرَاجَعَةِ أَنْفُسِنَا، فَكَمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَنْشَغِلُونَ بِتَفَاصِيلِ الإِسْرَاءِ،
 وَيَكْثُرُونَ الْحَدِيثَ عَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَيْنَمَا تَمُرُّ عَلَيْهِمْ سُورَةُ الإِسْرَاءِ دُونَ أَنْ
 يَقِفُوا عِنْدَ وَصَايَاهَا، وَلَا عِنْدَ سُنَنِهَا، وَلَا عِنْدَ رِسَالَتِهَا الْكُبْرَى.

إِنَّ السُّورَةَ نَفْسَهَا لَمْ تَجْعَلْ مِخْوَرَ الْحَدِيثِ تَفَاصِيلَ الإِسْرَاءِ، بَلْ جَعَلَتْ مِخْوَرَهَا الْكِتَابَ.

افْتَتَحَتْ بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ، ثُمَّ ذَكَرَتْ كِتَابًا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَيَّعَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ،
 فَكَانَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ الْفَسَادَ وَالذُّلَّ، ثُمَّ أَغْلَنْتْ لِلْأُمَّةِ الْخَاتِمَةَ الْكِتَابَ الَّذِي لَنْ تَقُومَ لَهَا حَيَاةٌ وَلَا
 هَدَايَةٌ إِلَّا بِهِ:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [الإِسْرَاءُ: ٩].

فَكَأَنَّ مَطْلَعَ السُّورَةِ يُعْلِنُ حَقِيقَةً خَالِدَةً:

الْأُمَمُ لَا تَرْتَفِعُ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَإِنَّمَا تَرْتَفِعُ بِالْوَحْيِ، وَلَا تَسْقُطُ بِفَقْدِ الْآيَاتِ، وَإِنَّمَا تَسْقُطُ حِينَ
 تَهْجُرُ كِتَابَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رُوحَ الْإِنْسَانِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَنُورَ قَلْبِهِ، وَسِرَّ حَيَاتِهِ؛ فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ أَحْيَاهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرَ الْحَيَاةَ وَإِنْ كَانَ يَفْشِي بَيْنَ النَّاسِ.

رُتَبَةُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {بِعَبْدِهِ}... هِيَ ثَمَرَةُ رِحْلَةِ بِنَاءِ الْعُبُودِيَّةِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُطْلَعِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ١]

لَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «بِنَبِيِّهِ» أَوْ «بِرَسُولِهِ»، مَعَ أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ تَكْرِيمٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، بَلْ اخْتَارَ وَصَفَ الْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هِيَ أَعْلَى مَقَامٍ يَبْلُغُهُ الْإِنْسَانُ. وَلَمْ يَأْتِ هَذَا الْوَصْفُ مُنْفَرِدًا عَنْ سِيَاقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بَلْ جَاءَ بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْبِنَاءِ الْإِلَهِيِّ لِشَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: تَعَلَّمَ الصَّبْرَ أَمَامَ التَّكْذِيبِ، وَرَأَى سُنْنَ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ. وَفِي سُورَةِ يُوسُفَ: تَرَسَّخَ مَعْنَى أَنَّ مَهْمَةَ الرَّسُولِ هِيَ الْبَلَاغُ، وَأَنَّ النَّصْرَ وَالْهِدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَفِي سُورَةِ هُودٍ: جَاءَ مَعْنَى الْاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ أَمَامَ ثِقَلِ الرِّسَالَةِ: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ}. [سُورَةُ هُودٍ: ١١٢]

وَفِي سُورَةِ يُوسُفَ: ظَهَرَ نُمُودُجُ الْعَبْدِ الَّذِي لَا تُغَيِّرُهُ الْمِحْنُ وَلَا النِّعَمُ. وَفِي سُورَةِ النَّحْلِ: ظَهَرَ مَقَامُ الشُّكْرِ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}. [سُورَةُ النَّحْلِ: ١٨]

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ مِنَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالشُّكْرِ، يَأْتِي التَّكْرِيمُ الْعَظِيمُ: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ}. فَكَرَامَةُ الْإِسْرَاءِ لَمْ تَصْنَعْ عُبُودِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، بَلْ إِنَّ عُبُودِيَّةَ النَّبِيِّ كَانَتْ مَنَزِلَةً بَلَغَهَا النَّبِيُّ بِتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ وَطَوَّلِ تَكْذِيبٍ؛ مَقَامِ عَبْدٍ اضْطَفَّاهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، فَكَانَ أَكْثَرُ شَرَفٍ لَهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ.

فَفِي مِيزَانِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَيْسَتْ الرُّفْعَةُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، بَلْ فِي تَحْقِيقِ أَكْمَلِ مَعَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا لِلَّهِ وَحْدَهُ.

👉 قَضِيَّةُ الرُّوحِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ... حِينَ يَنْقُلُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْإِنْسَانَ مِنْ سُؤَالٍ عَنِ الْجَسَدِ إِلَى سُؤَالِ الْهِدَايَةِ:

إِذَا تَأَمَّلْنَا سُورَةَ الْإِسْرَاءِ وَجَدْنَا أَنَّهَا لَا تُجِيبُ عَنِ الْأَسْئَلَةِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَوَقَّعُهَا النَّاسُ، بَلْ تَزْتَقِي بِهِمْ مِنْ ظَاهِرِ السُّؤَالِ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَبْحَثُوا عَنْهَا.

وَمِنْ أَوْضَحِ الْأَمْثِلَةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. [الإِسْرَاءُ: ٨٥].
وَقَدْ ثَبَتَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَنَّ سُؤَالَ الرُّوحِ كَانَ امْتِحَانًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَمَّا تَغْيِينُ مَا كَانَ يَدُورُ فِي أَذْهَانِ السَّائِلِينَ فَهُوَ مَجَالٌ لِلتَّدَبُّرِ، لَا لِلجَزْمِ.

وَمِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي يَنْسَجِمُ مَعَهَا سِيَاقُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُمُ الرُّوحُ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْإِنْسَانِ؛ ذَلِكَ السِّرُّ الْخَفِيُّ الَّذِي يُفَارِقُ الْجَسَدَ فَيَمُوتُ، وَيَكُونُ فِيهِ فَيَحْيَا.

أَرَادُوا مَعْرِفَةَ حَقِيقَتِهَا وَكَيْفِيَّةَ وُجُودِهَا، كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي طَلَبِ إِدْرَاكِ الْعَيْبِ بِالْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ، حَتَّى قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. [البَقَرَةُ: ٥٥].

لَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِي تَفَاصِيلَ لَا يَمْلِكُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ الْإِحَاطَةَ بِهَا، وَإِنَّمَا وَجَّهَهُمْ إِلَى الْقَضِيَّةِ الْأَعْظَمِ:
﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. [الإِسْرَاءُ: ٨٥].

فَالْعَايَةُ لَيْسَتْ كَشَفِ كَيْفِيَّةِ الرُّوحِ، وَإِنَّمَا تَرْسِيخُ أَنَّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَحْدُودُ الْعِلْمِ مَهْمَا بَلَغَ، غَيْرَ أَنَّ جَمَالَ السُّورَةِ لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ.

فَالْإِسْرَاءُ قَبْلَ أَنْ تَذْكَرَ سُؤَالَ الرُّوحِ أَغْلَثَتْ حَقِيقَةً كُبْرَى:
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [الإِسْرَاءُ: ٩].

وَكَأَنَّهَا تَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ سُؤَالٍ: كَيْفَ يَحْيَا الْجَسَدُ؟ إِلَى سُؤَالٍ أَعْظَمَ: كَيْفَ يَحْيَا الْإِنْسَانُ الْحَيَاةَ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ؟

فَالرُّوحُ الَّتِي فِي الْجَسَدِ تَمْنَحُ الْإِنْسَانَ حَيَاةً زَمَنِيَّةً مَحْدُودَةً، أَمَّا رُوحُ الْوَحْيِ فَتَهْبُهُ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَعِيشُ بِهَا قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ وَرُوحُهُ، وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْوَحْيَ رُوحًا، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. [الشُّورَى: ٥٢].

وَسَمَّاهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نُورًا، فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾. [الشُّورَى: ٥٢]... فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رُوحٌ لِأَنَّهُ يُحْيِي الْقُلُوبَ، وَنُورٌ لِأَنَّهُ يَهْدِيهَا إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾. [الْأَنْعَامُ: ١٢٢].

فَالْحَدِيثُ لَيْسَ عَنْ مَوْتِ الْأَجْسَادِ، وَإِنَّمَا عَنْ مَوْتِ الْقُلُوبِ بِالْغَفْلَةِ، ثُمَّ إِحْيَائُهَا بِالْإِيمَانِ وَالْوَحْيِ، وَهَذَا يُفَسِّرُ أَيْضًا قَوْلَهُ تَعَالَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلْتَجِدْنَهُمْ أُخْرِصَ النَّاسُ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

فَقَدْ يَخْرِصُ الْإِنْسَانُ عَلَى طُولِ الْعُمُرِ، وَعَلَى سَلَامَةِ الْجَسَدِ، وَعَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ مَخْرُومًا مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَلِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٢]... فَلَيْسَتْ كُلُّ حَيَاةٍ حَقِيقَةً، وَإِنَّمَا الْحَيَاةُ الْحَقِيقَةُ هِيَ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْوَحْيُ فِي الْقَلْبِ.

وَمِنَ اللَّطَائِفِ الْبَدِيعَةِ أَنَّ سُورَةَ النَّحْلِ مَهَّدَتْ لِهَذَا الْمَعْنَى قَبْلَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]. فَالرُّوحُ هُنَا هِيَ الْوَحْيُ.

ثُمَّ جَاءَتْ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ فَقَالَتْ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. ثُمَّ جَاءَ الْبَيَانُ الْكَامِلُ فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]... فَتَكَرَّرَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ وَ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وَ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾. يَزِيْطُ هَذِهِ الْآيَاتِ جَمِيعًا، وَيَكْشِفُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُرِيدُ أَنْ يَلْفِتَ الْأَنْظَارَ إِلَى الرُّوحِ الَّتِي تُحْيِي الْقُلُوبَ قَبْلَ الْحَدِيثِ عَنِ الرُّوحِ الَّتِي تُحْيِي الْأَجْسَادَ.

وَهَكَذَا يَبْدُو جَوَابُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي غَايَةِ الْحِكْمَةِ. فَهُمْ - عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ التَّدَبُّرِ - يَسْأَلُونَ عَنْ سِرِّ الْحَيَاةِ فِي الْجَسَدِ، بَيْنَمَا يَفْتَحُ لَهُمُ الْقُرْآنُ بَابَ الْحَيَاةِ الْأَعْظَمِ: الْحَيَاةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِنْسَانُ حَيًّا عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ. فَالرُّوحُ الَّتِي فِي الْإِنْسَانِ تَحْفَظُ وَجُودَهُ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا رُوحُ الْوَحْيِ فَتُغْطِي هَذَا الْوُجُودَ مَعْنَاهُ وَوَجْهَتُهُ.

وَمِنْ هُنَا تَتَكَامَلُ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي هَذَا الْبَابِ: فِي الْفَاتِحَةِ يَدْعُو الْمُؤْمِنُ رَبَّهُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وَفِي الْإِسْرَاءِ يَأْتِي الْجَوَابُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وَفِي الْأَنْعَامِ يُبَيِّنُ ثَمَرَةَ هَذِهِ الْهَدَايَةِ:

﴿فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ لَيْسَ مُجَرَّدَ طَرِيقٍ يَسْلُكُهُ الْإِنْسَانُ، بَلْ هُوَ طَرِيقُ الْحَيَاةِ الْحَقِيقَةِ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الرُّوحُ الَّتِي تُحْيِي الْقَلْبَ، وَالتُّورُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ الطَّرِيقَ، وَمَنْ اغْتَصَمَ بِهِ

انْتَقَلَ مِنْ مُجَرَّدِ الْحَيَاةِ الْبَيُولُوجِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِعِبَادِهِ.

➡ هَلْ تَفُوقُ الْيَهُودَ الْيَوْمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دَلِيلٌ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ؟

هَذَا مِنَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرَةٍ قُرْآنِيَّةٍ هَادِيَّةٍ، تَتَجَرَّدُ عَنِ الْعَاطِفَةِ وَرُدُودِ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يَجْعَلُ مِيزَانَ الْحَقِّ هُوَ مِقْدَارُ الْقُوَّةِ الَّتِي يَمْلِكُهَا الْإِنْسَانُ، وَلَا مِقْدَارَ الضَّعْفِ الَّذِي يَمُرُّ بِهِ.

فَهَلْ تَفُوقُ بَعْضُ الْأُمَمِ فِي مَجَالَاتِ الْعِلْمِ وَالْاِقْتِصَادِ وَالْقُوَّةِ يَغْنِي أَنَّهَا عَلَى الْحَقِّ؟ وَهَلْ تَرَاجُعُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ يَغْنِي أَنَّ دِينَهُمْ بَاطِلٌ؟
يُجِيبُنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِوُضُوحٍ: ... لَا ...

فَالْقُوَّةُ الدُّنْيَوِيَّةُ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ شَهَادَةً عَلَى صِحَّةِ الْعَقِيدَةِ، كَمَا أَنَّ الضَّعْفَ الدُّنْيَوِيَّ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى بُطْلَانِ الْحَقِّ.
فَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ أُمَّمِ امْتَلَكَتْ مِنَ الْقُوَّةِ مَا أَبْهَرَ النَّاضِرِينَ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ عَادٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [سُورَةُ الْفَجْرِ: ٦-٨].
لَمْ تَكُنْ مُشْكِلَةً عَادٍ فِي نَقْصِ الْقُوَّةِ، بَلْ فِي انْجِرَافِ الْقَلْبِ عَنِ الْحَقِّ؛ فَالْقُوَّةُ حِينَ تَنْفَصِلُ عَنِ الْهَدَايَةِ لَا تَصْنَعُ نَجَاةً.

وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ قَارُونَ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ [سُورَةُ الْقَصَصِ: ٧٦].

فَلَمْ يَكُنْ كَثْرَةُ الْمَالِ دَلِيلًا عَلَى رِضَا اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَمْ تَكُنْ الْقُدْرَةُ الْمَادِّيَّةُ بُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ الطَّرِيقِ.

وَفِي الْمَقَابِلِ، كَانَ أَصْحَابُ الْحَقِّ فِي بَدَايَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ضِعْفَاءَ مُسْتَضْعَفِينَ فِي مَكَّةَ، يُعَذَّبُونَ وَيُحَاصِرُونَ، وَلَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ عَلَى الْحَقِّ لِأَنَّهَا كَانَتْ أَقْوَى.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٣٩].

فَالْعُلُوُّ الَّذِي يَمْدَحُهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ عُلُوِّ الْقُوَّةِ وَالْمَادَّةِ، بَلْ هُوَ عُلُوُّ الْإِيمَانِ وَالْقِيَمِ وَالرَّسَالَةِ.

وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يَدْعُ الْمُسْلِمِينَ يَتَّخِذُونَ هَذَا مَحَرَجًا لِتَبْرِيرِ الضَّعْفِ. فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَضَعَ سُنَّتًا فِي هَذَا الْكُونِ؛ مَنْ أَحَذَ بِأَسْبَابِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْإِثْقَانِ وَالْعَدْلِ

أَخَذَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا، وَمَنْ أَهْمَلَهَا حُرِمَ مِنْ آثَارِهَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. [سُورَةُ الرَّعْدِ: ١١].

فَضَعُفُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى بُطْلَانِ الْإِسْلَامِ، بَلْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأُمَّمَ تُحَاسِبُ
بِسُنَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْأَرْضِ؛ فَمَنْ أَهْمَلَ أَسْبَابَ التُّهُوسِ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَلُومَ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ تَفَوُّقَ بَعْضِ الْأُمَمِ الْيَوْمَ لَا يَغْنِي أَنَّهَا عَلَى الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ ضَعْفَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ لَا
يَغْنِي أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ خَطَأٌ أَوْ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَاطِلٌ.
فَالْحَقُّ لَا يُقَاسُ بِقُوَّةِ أَصْحَابِهِ، وَلَا بِكَثْرَةِ أَعْدَائِهِمْ، بَلْ يُعْرَفُ بِمِيزَانِ الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ
جَلَّ جَلَالُهُ.

وَقَدْ أَنْصَفَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَهْلَ الْكِتَابِ، فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ صَفًّا وَاحِدًا، بَلْ قَالَ:
﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.
[سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١١٣].

فَالْمِيزَانُ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَيْسَ اسْمًا، وَلَا نَسَبًا، وَلَا قُوَّةً، بَلْ إِيْمَانٌ وَصِدْقٌ وَعَمَلٌ.

وَهُنَا تَظْهَرُ رِسَالَةُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ:

فَقَدْ ذَكَرْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ كِتَابُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَلَمَّا أَفْسَدُوا وَأَعْرَضُوا عَنْ
هَذِهِ جَرَتْ عَلَيْهِمْ سُنَنُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ثُمَّ وَجَّهَتِ السُّورَةُ الرِّسَالَةَ إِلَى الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي
لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٩].

فَلَيْسَ الْمُسْلِمُونَ أَهْلُ الْعِزَّةِ بِمَجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بَلْ حِينَ يَكُونُونَ أَهْلًا لَهُ:
فَهُمَا وَعَمَلًا وَعَدْلًا وَإِحْسَانًا.

وَتَبَقِيَ الْقَاعِدَةُ الْقُرْآنِيَّةُ: مَنْ أَخَذَ بِأَسْبَابِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ آثَارِهَا، وَمَنْ تَرَكَهَا
حُرِمَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا، أَمَّا الْحَقُّ فَلَا يُعْرَفُ بِقُوَّةِ أَصْحَابِهِ أَوْ ضَعْفِهِمْ، بَلْ بِمَدَى قُرْبِهِمْ مِنْ وَحْيِ
اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

حِينَ يُفْصَلُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْهُجَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ:

إِذَا كَانَتْ سُورَةُ النَّحْلِ قَدْ جَمَعَتْ مِنْهُجَ الْحَيَاةِ فِي جُمْلَةٍ عَظِيمَةٍ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. [النَّحْلِ: ٩٠]

فَإِنَّ سُورَةَ الْإِسْرَاءِ تَأْتِي وَكَأَنَّهَا تُفْصَلُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْكُبْرَى بَنْدًا بَنْدًا، فَتُخْرِجُ الْعَدْلَ

وَالْإِحْسَانَ مِنْ كَوْنِهِمَا مَعْنَى مُجْمَلًا إِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ كَامِلٍ.
وَتَبْدَأُ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٣]

لَفْتَةٌ عَظِيمَةٌ فِي كَلِمَةٍ: ﴿وَقَضَىٰ﴾... فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَصِيَّةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ، بَلْ هِيَ حُكْمٌ إِلَهِيٌّ مُحْكَمٌ، يَبْدَأُ بِأَصْلِ كُلِّ إِصْلَاحٍ:

تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٣]

ثُمَّ يَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إِلَى أَوَّلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ:

الإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٣]

ثُمَّ تَبْلُغُ الدَّقَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ غَايَتَهَا، فَلَا يَبْدَأُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْعُقُوقِ الْكَبِيرِ، بَلْ يَبْدَأُ بِأَضْعَفِ مَظَاهِرِهِ: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٣].

فَالِإِصْلَاحُ فِي مَنْهَجِ اللَّهِ جَلٌّ جَلَالُهُ لَا يَبْدَأُ بِعِلَاجِ النَّتَاجِ، بَلْ بِمَنْعِ الْبِدَايَاتِ.

ثُمَّ تَتَسَّعُ دَائِرَةُ الْمَسْئُولِيَّةِ:

حَقُّ الْمُجْتَمَعِ وَصَلَةُ الرَّحِمِ: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٦]

وَالْعَدْلُ فِي الْمَالِ وَالِاِقْتِصَادِ: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٦]

ثُمَّ يَأْتِي التَّغْلِيلُ الْقَوِيُّ: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٢٧]

فَالِإِفْسَادُ فِي الْمَالِ لَيْسَ مُجَرَّدَ خَطَاٍ اِقْتِصَادِيٍّ، بَلْ هُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ إِفْسَادِ الْإِنْسَانِ.

ثُمَّ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى حِفْظِ الْحَيَاةِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣١]

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣٣]

ثُمَّ حِمَايَةُ الْأَخْلَاقِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣٢]

وَلَمْ يَقُلْ: لَا تَزْنُوا، بَلْ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾.

لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يَمْنَعُ الْجَرِيمَةَ فَقَطْ، بَلْ يَمْنَعُ الطَّرِيقَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهَا.

ثُمَّ تَأْتِي حِمَايَةُ أَمْوَالِ الضُّعَفَاءِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

[الإِسْرَاءُ: ٣٤]

ثُمَّ الْعَدْلُ فِي الْمَعَامَلَاتِ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣٥]

ثُمَّ نَزَاهَةُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣٦]

وَهِيَ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ، لَوْ التَزَمَتْ بِهَا الْبَشَرِيَّةُ لَانْحَسَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُذِبِ وَالِإِسْآَاعَاتِ وَالطُّنُونِ.

ثُمَّ يَأْتِي عِلَاجُ الْكِبَرِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾. [الإسراء: ٣٧]

فَبَعْدَ أَنْ أَصْلَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِرَبِّهِ، وَبِأَسْرَتِهِ، وَبِمُجْتَمَعِهِ، وَبِمَالِهِ، وَبِفِكْرِهِ، أَصْلَحَ عِلَاقَتَهُ بِنَفْسِهِ أَيْضًا.

وَلِمَاذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْأَوَامِرُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ؟

لِأَنَّ السُّورَةَ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْأُمَّةِ الَّتِي سَتَحْمِلُ رِسَالَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَامْتِلَاكِ الْكِتَابِ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي؛ فَقَدْ أُوتِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، وَلَكِنَّ الْمَطْلُوبَ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْكِتَابُ إِلَى سُلُوكٍ، وَأَخْلَاقٍ، وَحَضَارَةٍ.

ثُمَّ تَعُودُ السُّورَةُ إِلَى أَصْلِ الصَّرَاعِ: ﴿قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. [الإسراء: ٦١]
فَعَدَاوَةُ إِبْلِيسَ لَيْسَتْ حَادِثَةً مَاضِيَةً، بَلْ هِيَ مَعْرَكَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ مَعَ الْإِنْسَانِ.

وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ رَأَيْنَا إِغْلَانَ الْعَدَاوَةِ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾  إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾. [الحجر: ٤٠-٤١]

أَمَّا فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ فَتَرَى أَنَّ هَذِهِ الْعَدَاوَةَ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَمُحَاوَلَاتِ إِبْعَادِهِ عَنْ مَنَهِجِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ!! فَمَا الْعِلَاجُ؟

لَيْسَ مُجَرَّدَ الْمَعْرِفَةِ، بَلْ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُظَهِّرُ الْإِنْسَانَ وَيُعِيدُ بِنَاءَهُ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. [الإسراء: ٨٢]

فَالْإِنْسَانُ عَجُولٌ، وَضَعِيفٌ، وَجَدَلِيٌّ، وَيَتَعَرَّضُ لَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الثُّورُ الَّذِي يَهْدِيهِ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي يُصْلِحُ قَلْبَهُ وَسُلُوكَهُ.

فَسُورَةُ الْإِسْرَاءِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ رِحْلَةٍ نَبِيٍّ، بَلْ هِيَ رِحْلَةُ بِنَاءِ إِنْسَانٍ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوَامِرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، انْتَقَلَتِ السُّورَةُ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَفْسِهِ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾. [سورة الإسراء: ٣٩].

وَالْحِكْمَةُ هُنَا هِيَ وَصْفٌ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَمَهِّدُ لِمَعْنَى كَلِمَةِ ﴿الْحِكْمَةِ﴾. الَّتِي

سَيَرِدُ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، فِي قَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَإِذَا دُكِّرْنَا مَا يَتْلُو فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾. [سورة الأحزاب: ٣٤].

ثُمَّ تَبْدَأُ السُّورَةُ بِالْحَدِيثِ عَنْ مَوْقِفِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَحْيِ، فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْبَرِّهِمْ ثُغُورًا﴾. [سورة الإسراء: ٤٦].

فَالْمُشْكِلَةُ لَيْسَتْ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَا فِي بَيَانِهِ، وَلَا فِي الْأَدِلَّةِ الَّتِي تُثَبِّتُ صِدْقَ الْوَحْيِ وَصِدْقَ الرَّسُولِ الْحَامِلِ لِهَذَا الْوَحْيِ، بَلْ فِي مَدَى قُدْرَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ.

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ، كَلِمَةُ {وَحْدَهُ}، أَوَّلُ ظُهُورِ لَهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، فِي قَوْلِ قَوْمٍ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [سورة الأعراف: ٧٠].
فَالنَّاسُ كَانُوا، وَمَا زَالَ أَغْلَبُهُمْ، يُطِيعُونَ سَادَتَهُمْ وَكِبَرَاءَهُمْ طَاعَةً عَمِيَاءَ مُطْلَقَةً.

وَالطَّاعَةُ الْمُطْلَقَةُ الَّتِي لَا نِقَاشَ فِيهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ.

فَإِنْ أَطَعْتَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ طَاعَةً مُطْلَقَةً، فَقَدْ جَعَلْتَهُ مَوْضِعًا لِلْعِبَادَةِ.
وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ} [سورة الأحزاب: ٦٧].
وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة يونس: ١٨].

وَلِهَذَا فَإِنَّ أَغْلَبَ النَّاسِ، حِينَ يَأْمُرُهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِطَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ، يَنْفِرُونَ.
بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ هُمْ فِي مَرْتَبَةِ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عِنْدَمَا تُنَاقِشُهُمْ فِي قَضِيَّةِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الْمَصْدَرُ الْوَحِيدُ لِلتَّشْرِيعِ، وَلَيْسَ كَمَا يَشْبَعُ مِنْ أَنَّ مَصَادِرَ التَّشْرِيعِ هِيَ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ فَإِنَّ أَغْلَبَ هَؤُلَاءِ يَكُونُ لِسَانُ خَالِهِمْ:

{أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ}؟

وَتَشْرُكُ الْأَحَادِيثَ، وَالصَّحَاحَ، وَالسَّادَةَ، وَالْعُلَمَاءَ، وَالْمَرَاجِعَ؟

وَهَذَا يُعِيدُنَا إِلَى أَوَّلِ الْأَوَامِرِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، حَيْثُ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ:
{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [سورة الإسراء: ٢٣].

أَيُّ: لَا تُطِيعُوا أَحَدًا طَاعَةً مُطْلَقَةً إِلَّا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ، وَلَوْ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ،
إِلَّا فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَهَذَا الْفَهْمُ نَرَاهُ حَاضِرًا جَلِيًّا فِي مَوْقِفِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ الْحَبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ، حِينَ أَشَارَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِتَغْيِيرِ مَوْقِعِ نُزُولِ الْجَيْشِ إِلَى مَا بَعْدَ آبَارِ بَدْرٍ.

فَقَضِيَّةُ طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ مَا زَالَتْ هِيَ مَخَوَرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾. [سورة الإسراء: ٩٠].
ثُمَّ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾. [سورة الإسراء: ٩١].
ثُمَّ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾. [سورة الإسراء: ٩٢].
ثُمَّ: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾. [سورة الإسراء: ٩٣].

هَذَا نَلَا حُطَّ شَيْئًا مُهِمًّا!! فَهَذِهِ لَيْسَتْ مَطَالِبُ بَاحِثٍ عَنِ الْحَقِّ، بَلْ هِيَ مَطَالِبُ مُرَاوِعٍ.
فَكُلَّمَا تَحَقَّقَ شَرْطُ انْتِقَالٍ إِلَى غَيْرِهِ!! وَلِهَذَا لَمْ تَكُنِ الْمُسْكِلةُ نَقْصَ الْأَدِلَّةِ، بَلْ رَفْضُ التَّسْلِيمِ
لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ.

لِمَاذَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْمَطَالِبُ بَعْدَ الْأَوَامِرِ؟
لِأَنَّ الشُّورَةَ تُرِيدُ أَنْ تَكْشِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ النَّاسِ:
صِنْفٌ يَبْحَثُ عَنِ الْهَدَايَةِ، وَصِنْفٌ يَبْحَثُ عَنِ الْأَعْذَارِ.
فَالْأَوَّلُ تَكْفِيهِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ... وَالثَّانِي، لَوْ جَاءَتْهُ آيَاتُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، فَلَنْ يُؤْمِنَ.

ثُمَّ تَعُودُ الشُّورَةُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآيَاتِهِ، قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. [سورة الإسراء: ١٠١].

لِمَاذَا عَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَا؟
لِأَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تُطَالِبُ بِالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، فَكَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقُولُ:
لَيْسَتْ الْمُسْكِلةُ فِي نَقْصِ الْآيَاتِ... انْظُرُوا إِلَى فِرْعَوْنَ... لَقَدْ جَاءَتْهُ الْآيَاتُ!! وَمَعَ ذَلِكَ كَذَّبَ!
وَلَمْ تَفْصَلْ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ هَذِهِ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ لَيْسَ تَفَاصِيلُهَا، بَلْ الْعِبْرَةُ الْمُسْتَخْلَصَةُ
مِنْهَا!! فَقَدْ رَأَى فِرْعَوْنُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَكْفِي وَيَزِيدُ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾. [سورة الإسراء: ١٠١].
إِذَنْ، فَالْمُسْكِلةُ لَيْسَتْ فِي الْبُرْهَانِ، بَلْ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ الْبُرْهَانَ.

تَثْبِيثُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ثُمَّ نَصِلُ إِلَى مَقْطَعٍ مِنْ أَعْمَقِ مَقَاطِعِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ:
﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾.
[الإسراء: ٧٣]. هَذِهِ الْآيَةُ عَظِيمَةٌ جِدًّا فِي سِيَاقِ السُّورَةِ.

فَبَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ ضِيَاعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْكِتَابِ، وَعَنْ مَسْئُولِيَّةِ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ، يَأْتِي السُّؤَالُ:
مَنْ يَضْمَنُ بَقَاءَ هَذَا الْوَحْيِ صَافِيًا؟
الْجَوَابُ: اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ نَفْسُهُ.

وَلِهَذَا يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَا لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾. [الإسراء: ٧٤].

تَأَمَّلُوا هَذَا الْكَلَامَ جَيِّدًا... لَمْ يَنْسُبِ الثَّبَاتَ إِلَى قُوَّةِ النَّبِيِّ الذَّاتِيَّةِ، بَلْ نَسَبَهُ إِلَى تَثْبِيَتِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ.

وَهَذَا يَنْسَجِمُ مَعَ مَا رَأَيْنَاهُ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ:
﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. [الحجر: ٩].

فَحِفْظُ الْوَحْيِ يَشْمَلُ حِفْظَ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ التَّنَازُلِ عَنِ الْوَحْيِ.
وَهُنَا عَوْدَةٌ سَرِيعَةٌ إِلَى سُورَةِ النَّسَاءِ، عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. [النساء: ١١٣].

أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَيْسَ الْعَكْسُ.

إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَقُرْآنُ الْفَجْرِ:

يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. [الإسراء: ٧٨].

لَا حِطُّوا جَمَالَ التَّرْتِيبِ... فَبَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ صُغُوطِ الْمُشْرِكِينَ، وَمُحَاوَلَاتِ التَّأْثِيرِ فِي الرَّسُولِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَأْتِي الصَّلَاةُ مُبَاشَرَةً.

وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْكَ الصُّغُوطُ، فَارْجِعْ إِلَى الصَّلَاةِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ.
وَلِهَذَا يَأْتِي بَعْدَهَا مُبَاشَرَةً: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾. [الإسراء: ٧٩].
فَالطَّاقَةُ الرُّوحِيَّةُ اللَّازِمَةُ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ تَأْتِي مِنْ هُنَا.

دُعَاءُ حَامِلِ الرِّسَالَةِ:

ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ كَرِيمَةٌ مِنْ أَجْمَلِ آيَاتِ السُّورَةِ:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.
[الإسراء: ٨٠]، هَذَا لَيْسَ دُعَاءً عَابِرًا.

فَحَامِلُ الرِّسَالَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ دُخُولُهُ وَخُرُوجُهُ وَعَمَلُهُ وَحَرَكَتُهُ كُلُّهَا قَائِمَةً عَلَى الصِّدْقِ مَعَ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلًا، ثُمَّ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا، دُونَ تَفْظِيرٍ أَوْ تَخْصِصٍ.
وَلَا يَكُونُ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ دَمَّهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:
{وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ
إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٥].

ثُمَّ تَعُودُ السُّورَةُ إِلَى شَعَارِهَا الْكَبِيرِ:
{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١].
هَلْ تَلَا حُطُونَ شَيْئًا؟ هَذَا هُوَ الْخَيْطُ الَّذِي يَزْبِطُ سُورَ: يُوسُفَ، وَالرَّغْدَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَالْحَجَرَ،
وَالْإِسْرَاءَ!! إِنَّهُ الْحَقُّ... الْحَقُّ مُسْتَمِرٌّ فِي الثَّقَدَمِ!! وَالْبَاطِلُ زَائِلٌ، مَهْمَا بَدَأَ قُوِيًّا.

ثُمَّ يَأْتِي مَقْطَعٌ مُؤَثِّرٌ جَدًّا: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا} [الإسراء: ١٠٧].
ثُمَّ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ}.
هَؤُلَاءِ عَلَى التَّقْيِضِ مِنْ قُرَيْشٍ!! فَقُرَيْشٌ تَطْلُبُ الْآيَاتِ.

أَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ الصَّادِقُونَ، فَبِمَجَرَّدِ سَمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ:
{يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا} [الإسراء: ١٠٧]، لِمَاذَا؟
لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ عِنْدَمَا رَأَوْهُ... وَهُنَا تَكْتَمِلُ الصُّورَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَمْ يَدْمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ فَرَّقَ بَيْنَ:
مَنْ صَيَّعَ الْكِتَابَ... وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ الْكِتَابِ.

ثُمَّ تَخْتِمُ السُّورَةُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى:
{قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠].
هَذِهِ الْخَاتِمَةُ لَيْسَتْ مُنْفَصِلَةً عَنِ السُّورَةِ... بَلْ هِيَ عَوْدَةٌ إِلَى أَصْلِ الْقَضِيَّةِ.

فَبَعْدَ الْإِسْرَاءِ، وَكِتَابِ مُوسَى، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَوَامِرِ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،
وَالصَّلَاةِ، وَالصَّرَاحِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ... تَعُودُ السُّورَةُ كُلُّهَا إِلَى الْمَضَرِّ الْأَوَّلِ:

اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ..... ثُمَّ يَأْتِي الْخِتَامُ الْمَهِيبُ: 
{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ
وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١١].

وَكَانَ الشُّورَةُ الَّتِي ابْتَدَأَتْ بِالتَّسْبِيحِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾. [الإسراء: ١]،
تَنْتَهِي بِالحَمْدِ وَالتَّكْبِيرِ: ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾. [سورة الإسراء: 111].

وَلَعَلَّ أَجْمَلَ مَا نَرَاهُ بَعْدَ هَذَا السَّرْدِ الْجَمِيلِ أَنَّ سُورَةَ الْإِسْرَاءِ لَيْسَتْ فَقَطْ «سُورَةُ الْأُمَّةِ الْوَارِثَةِ
لِلْكِتَابِ»، بَلْ هِيَ أَيْضًا: سُورَةٌ تَثْبِيَتْ لِحَامِلِ الْكِتَابِ.
فَفِي أَوَّلِهَا عَرَضٌ لِتَجْرِبَةِ أُمَّةٍ حَمَلَتْ الْوَحْيَ ثُمَّ صَعُفَتْ، وَفِي آخِرِهَا عَرَضٌ لِكَيْفِيَّةِ حِفْظِ
الرَّسَالَةِ الْجَدِيدَةِ:

بِتَثْبِيَتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالِاغْتِصَامِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَعَدَمِ الْإِنْخِدَاعِ
بِالْمَطَالِبِ التَّعْجِيزِيَّةِ، وَالْيَقِينِ بِأَنَّ الْحَقَّ سَيَبْقَى حَقًّا، وَلَوْ اجْتَمَعَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا عَلَى مُقَاوَمَتِهِ.
وَهَذَا هُوَ الْجِسْرُ الَّذِي تَعْبُرُ عَلَيْهِ الشُّورَةُ إِلَى سُورَةِ الْكَهْفِ؛ لِأَنَّ مَنْ ثَبَّتَ عَلَى الْحَقِّ فِي سُورَةِ
الْإِسْرَاءِ سَيَحْتَاجُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ إِلَى أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُحَافِظُ عَلَى هَذَا الثَّبَاتِ وَسَطَ الْفِتَنِ.

ثُمَّ تَأَمَّلُوا مَعِيَ... آخِرُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ:
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ،
وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾. [سورة الإسراء: 111].

ثُمَّ أَوَّلُ سُورَةِ الْكَهْفِ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾. [سورة الكهف: 1-2].
كَأَنَّ الشُّورَتَيْنِ لَمْ يَفْصِلْ بَيْنَهُمَا فَاصِلٌ.
فَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ أَمَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَحْنُ مِنْ بَعْدِهِ أَيْضًا، بِأَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ،
ثُمَّ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي يَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.
أَلَا وَهُوَ: إِنْزَالُ الْكِتَابِ... فَالْحَمْدُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ لِلْمُنْعِمِ.
وَالْحَمْدُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ عَلَى النُّعْمَةِ.

ثُمَّ إِنَّ آخِرَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ يُرَكِّزُ عَلَى صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾.

فَلَهُ الْمُلْكُ الْمُطْلَقُ.

إِنَّ، فَالْحَمْدُ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى ذَاتِ الْإِلَهِ الَّذِي هَذِهِ هِيَ صِفَاتُهُ، وَهَذَا هُوَ جَلَالُهُ وَكَمَالُهُ.
إِنَّهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

أَمَّا سُورَةُ الْكَهْفِ فَالْحَمْدُ هُنَا عَلَى فِعْلٍ وَاحِدٍ مِنْ أَفْعَالِهِ الْكَرِيمَةِ:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}.. [سورة الكهف: 1].
الْحَمْدُ عَلَى أَكْثَرِ نِعْمَةٍ أُعْطَاهَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْبَشَرِ، وَهِيَ... الْوَحْيِ.

مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ فِي الْأَمْرِ إِلَى الْوَحْيِ:

لَا حِظُّوا أَيْضًا أَنَّ آخِرَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ يَدُورُ حَوْلَ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَرُّدِهِ بِالْمَلِكِ
وَالْأَمْرِ: {لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}... {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ}... ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الْكَهْفِ مُبَاشَرَةً بِالْوَحْيِ.
وَكَأَنَّ التَّزْيِيبَ يَقُولُ: إِذَا عَرَفْتُمْ مَنْ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ حَقًّا، فَاسْتَمِعُوا إِلَى كَلَامِهِ مُبَاشَرَةً.
فَتَأْتِي سُورَةُ الْكَهْفِ مُبَاشَرَةً لِتُجِيبَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ فِي ذَاتِهِ نِعْمَةٌ تَسْتَحِقُّ
الْحَمْدَ.

الْعُبُودِيَّةُ فِي السُّورَتَيْنِ:

وَهُنَاكَ رَابِطٌ لَطِيفٌ جَدًّا... فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ:
{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}.. [سورة الإسراء: 1].
وَفِي أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ: {الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}.. [سورة الكهف: 1].
فِي السُّورَتَيْنِ مَعًا لَمْ يَقُلْ: بِرَسُولِهِ... وَلَا بِنَبِيِّهِ.
بَلْ قَالَ: {بِعَبْدِهِ}... {عَلَى عَبْدِهِ}..
وَكَأَنَّ السُّورَتَيْنِ تَتَعَانَقَانِ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ!!
فَأَعْظَمُ مَنَحَةٍ نَالَهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ.

فَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ رَأَى أَكْثَرُ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
{لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}.. [سورة الإسراء: 1].
وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ نَزَلَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ كِتَابٍ؛ لِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ يَأْخُذُ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِقُوَّةٍ، كَمَا أَخَذَهُ نَبِيُّ اللَّهِ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَعْمَلُ بِهِ
فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ حَيَاتِهِ، فَإِنَّهُ يَرْتَقِي إِلَى رُتْبَةِ الْعَبْدِ، عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
وَسَيَرَى بِنُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ مِمَّنْ زَهَدَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،
وَأَدْخَلَ مَعَهُ كُتُبًا أُخْرَى تُنَافِسُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي حَقِّهِ كَمَرْجِعِيَّةٍ عُلْيَا لِإِدَارَةِ الْحَيَاةِ، بِحُجَّةٍ
أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَصْحَحُ كِتَابٍ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَلِكَ الْكِتَابُ أَصْحَحُ كِتَابٍ
بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَخُطُوبَاتِهِ.

انتقال بديع من: ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾. إلى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾:
في ختام سورة الإسراء: ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾. [سورة الإسراء: 111].
أي: عَظِمَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ.

ثُمَّ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾. [سورة الكهف: 1].
وَكَأَنَّ مِنْ مَظَاهِرِ تَعْظِيمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تُوقِنَ بِأَنَّ كَلَامَهُ كَامِلٌ مُسْتَقِيمٌ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.
لَا كَمَا يَعْتَقِدُ الْبَعْضُ وَيَقُولُ بِأَنَّ السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ مُكَمَّلَةٌ لِلْقُرْآنِ.
فَالْتَكْبِيرُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ يَقُودُ إِلَى الثِّقَةِ الْمُطْلَقَةِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ.

الرَّابِطُ الْأَعْمَقُ فِي الْخَرِيطَةِ الْكُبْرَى:

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ تَنْتَهِي بِالْحَدِيثِ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ، وَسُورَةُ الْكَهْفِ تَبْدَأُ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْكَلَامِ.
فَإِذَا عَرَفْتَ عَظَمَةَ الْمُتَكَلِّمِ، وَهُوَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، دَخَلْتَ إِلَى سُورَةِ
الْكَهْفِ مُسْتَعِدًّا لِتَلْقَى كَلَامَهُ الَّذِي ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾. [سورة الكهف: 1].

سُورَةُ الْكَهْفِ:

هِيَ سُورَةٌ تُرْشِدُنَا إِلَى الْكَهْفِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُلْتَجَى إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ؛ لِيَحْتَمِيَ فِيهِ مِنْ فِتْنِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، وَلِذَلِكَ لَا أَرَى أَنَّ السُّؤَالَ الْأَوَّلَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ هُوَ: مَنْ هُمْ أَصْحَابُ الْكَهْفِ؟

بَلِ السُّؤَالَ هُوَ:

كَيْفَ يَحْفَظُ الْمُؤْمِنُ إِيْمَانَهُ عِنْدَمَا يَعْيشُ فِي عَالِمٍ مُلِيٍّ بِالْفِتَنِ؟ وَهَذَا يَظْهَرُ مَوْقِعُهَا الْمَذْهَبُ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

العَلَاقَةُ بَيْنَ سُورَتَيْ الْإِسْرَاءِ وَالْكَهْفِ:

فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ: الْأُمَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ الْكِتَابَ. مَسْئُولِيَّةَ الْهَدَايَةِ وَتَبْلِيغِ الدِّينِ. الْوَصَايَا الْكُبْرَى.

الصَّرَاعُ مَعَ إِبْلِيسَ.

الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الَّذِي يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

لَكِنَّ سُؤَالَ يَبْقَى مُعَلَّقًا:

كَيْفَ يَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ عَمَلِيًّا عَلَى هَذِهِ الْهَدَايَةِ؟

فَسُورَةُ الْإِسْرَاءِ رَسَمَتِ الْمَنْهَجَ.

وَسُورَةُ الْكَهْفِ تَعْرِضُ الْإِحْتِبَارَاتِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا حَامِلُ الْمَنْهَجِ.

فَسُورَةُ الْإِسْرَاءِ قَالَتْ:

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}. [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٩].

وَسُورَةُ الْكَهْفِ تَأْتِي لِتَقُولَ: حَسَنًا...

مَاذَا سَتَفْعَلُ عِنْدَمَا تَتَعَرَّضُ لِلْفِتْنَةِ؟

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ تَحَدَّثُ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي...}.

وَسُورَةُ الْكَهْفِ تَبْدَأُ بِالْكِتَابِ نَفْسِهِ:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا}. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١-٢].

وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ:

إِنَّ النِّجَاةَ مِنَ الْفِتَنِ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا... مِنَ الْكِتَابِ.

ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

{وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا}.

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ مِفْتَاحُ السُّورَةِ كُلِّهَا.

فَالْفِتْنُ كُلُّهَا تَنْشَأُ مِنَ الْإِعْوِجَاجِ.

أَمَّا الْقِزَازُ الْكَرِيمُ فَهُوَ: ... قَيِّمٌ... مُسْتَقِيمٌ... هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي تُقَاسُ بِهِ الْأَشْيَاءُ.

وَمِنْ جَمِيلِ مَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ أَنَّهَا لَيْسَتْ مَجْمُوعَةٌ قِصَصٍ مُتَفَرِّقَةٍ، بَلْ هِيَ أَرْبَعُ قِصَصٍ

كُبْرَى، وَكُلُّ قِصَّةٍ تُعَالِجُ نَوْعًا مِنَ الْفِتْنَةِ.

فَكَانَ السُّورَةُ تَبْنِي حِصْنًا مُتَكَامِلًا لِلْمُؤْمِنِ.

🚫 **الْفِتْنَةُ الْأُولَى:** فِتْنَةُ الدِّينِ... قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

{إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٣].

هَذِهِ أَوَّلُ فِتْنَةٍ!! مَاذَا لَوْ أَصْبَحَ الْإِيمَانُ نَفْسُهُ خَطَرًا عَلَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ؟

مَاذَا لَوْ أَصْبَحَ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ ضِدًّا؟ مَاذَا لَوْ أَصْبَحَتِ الطَّاعَةُ مُكَلِّفَةً؟

هَؤُلَاءِ الشَّبَابُ اخْتَارُوا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ.

وَلِهَذَا قَالُوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٤].

ثُمَّ جَاءَهُمُ التَّوْجِيهُ الرَّبَّانِيُّ:

{فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٦].

وَهُنَا يَطْهَرُ أَوَّلُ مَعْنَى لِاسْمِ السُّورَةِ... فَالْكَهْفُ لَيْسَ حَجَرًا فَقَطْ... بَلْ كُلُّ مَكَانٍ يَحْفَظُ الْإِيمَانَ.

🤔 لِمَاذَا بَدَأَتِ السُّورَةُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ؟

لِأَنَّ حِفْظَ الدِّينِ أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ... فَإِذَا صَاعَ الدِّينُ، لَمْ تَعُدْ بَقِيَّةُ الْفِتَنِ مُهِمَّةً.

🚫 **الْفِتْنَةُ الثَّانِيَّةُ:** فِتْنَةُ الْمَالِ... ثُمَّ تَأْتِي قِصَّةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ.

{وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا رَجُلَيْنِ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٣٢].

أَحَدُهُمَا يَمْلِكُ: {جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٣٢].

وَأُتَاهُمَا... وَثِمَارًا... وَهُوَ غَنِيٌّ... لَكِنَّ الْمُسْكَلَةَ لَيْسَتْ فِي الْمَالِ.

إِنَّمَا الْمُسْكَلَةُ فِيمَا فَعَلَهُ الْمَالُ بِقَلْبِهِ!! فَقَالَ: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٣٤].

فَتَكَبَّرَ عَلَى صَاحِبِهِ الْمُؤْمِنِ!! ثُمَّ قَالَ: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٣٦].

فَتَكَبَّرَ عَلَى الْمَنْهَجِ!!

لَا حِطُّوا كَيْفَ بَدَأَ الْإِنْحِرَافُ بِالْمَالِ، وَانْتَهَى بِالْعَقِيدَةِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ذُرُوسِ السُّورَةِ.

فَالْمَالُ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِتْنَةٍ افْتِصَادِيَّةٍ.

بَلْ قَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فِتْنَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ.

هَلْ تَذَكَّرْتَ مَثَلَ الْقَرْيَةِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ؟

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً...} [سُورَةُ النَّحْلِ: ١١٢].

ثُمَّ كَفَرَتْ بِإِنْعَمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهُنَا نَرَى نُسخَةَ قُرْدِيَّةٍ مِنَ الْمَشْهَدِ نَفْسِهِ.

رَجُلٌ أُعْطِيَ النُّعْمَةَ، فَاعْتَرَّ بِهَا، فَضَاعَتْ مِنْهُ.

❌ **الْفِتْنَةُ الثَّالِثَةُ:** فِتْنَةُ الْعِلْمِ... ثُمَّ تَأْتِي قِصَّةُ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ.

وَهُنَا تَرْتَفِعُ السُّورَةُ إِلَى مُسْتَوَى آخَرَ، مُوسَى نَبِيٌّ كَرِيمٌ.

وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ:

اذهَبْ وَتَعَلَّمْ... فَيَعْتَرِضُ عَلَى أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

حَرْقِ السَّفِينَةِ... قَتْلِ الْعَلَامِ... إِقَامَةِ الْجِدَارِ... وَفِي النِّهَايَةِ يَكْتَشِفُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ أَوْسَعُ مِمَّا رَأَى.

هُنَا تُعَالِجُ السُّورَةُ فِتْنَةً خَطِيرَةً جِدًّا... وَهِيَ: أَنْ يَظُنَّ الْإِنْسَانُ أَنَّ مَا يَعْلَمُهُ هُوَ كُلُّ الْحَقِيقَةِ.

وَلِذَلِكَ تَتَكَرَّرُ الْكَلِمَةُ: {لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٦٧، ٧٢، ٧٥].

لِأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا لَا نَفْهَمُهُ مِنْ أَضْعَابِ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ.

عَلَاقَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ بِسُورَةِ الْإِسْرَاءِ:

فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ قَرَأْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٣٦].

وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ نَرَى تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا لِهَذَا الْمَبْدَأِ.

❌ **الْفِتْنَةُ الرَّابِعَةُ:** فِتْنَةُ السُّلْطَةِ... ثُمَّ تَأْتِي قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ.

مَلِكٌ عَظِيمٌ... قَوِيٌّ... مُمَكِّنٌ... لَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ.

فَصَاحِبُ الْجَنَّتَيْنِ قَالَ: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٣٤].

أَمَّا ذُو الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ: {فَاعْيُنُونِي بِقُوَّةٍ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٩٥].

وَقَالَ: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٩٨].

فَنَسَبَ الْفَضْلَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ... هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُتَكَبِّرِ وَالشَّاكِرِ.

وَهُنَا نَعُودُ إِلَى مَشَاهِدِ سُورَةِ النَّحْلِ؛ مَشْهَدِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَفَرَتْ بِإِنْعَمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمَشْهَدِ

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الشَّاكِرِ لِإِنْعَمِ رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

📌 **لِمَاذَا** خُتِمَتِ السُّورَةُ بِذِي الْقُرَيْنَيْنِ؟ لِأَنَّهُ التَّمُودُجُ الْكَامِلُ لِلنَّجَاحِ فِي فِتْنَةِ الْقُوَّةِ.
كَمَا أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ نَجَّحُوا فِي فِتْنَةِ الدِّينِ... وَصَاحِبُ الْجَنَّتَيْنِ فَشَلَ فِي فِتْنَةِ الْمَالِ.
وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعَلَّمَ التَّوَاضُّعَ فِي فِتْنَةِ الْعِلْمِ.

📌 **الْحَيْطُ** الَّذِي يَجْمَعُ الْقِصَصَ الْأَرْبَعَ:

فِتْنَةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: الدِّينُ.

فِتْنَةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ: الْمَالُ.

فِتْنَةُ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ: الْعِلْمُ.

فِتْنَةُ ذِي الْقُرَيْنَيْنِ: السُّلْطَةُ.

وَهَذِهِ تَقْرِيبًا أَعْظَمُ الْقَوَى الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ.
وَكَأَنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ تَقُولُ: مَهْمَا كَانَ نَوْعُ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَوَاجِهْكَ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَقُودَكَ خِلَالَهَا.

وَلَكِنَّ السُّورَةَ أَيْضًا تُرْشِدُنَا إِلَى مَعِينٍ آخَرَ، وَرَدَّ ذِكْرُهُ بَيْنَ الْقِصَصِ تَقْرِيبًا: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٢٨].

هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ عَابِرَةً... بَلْ كَأَنَّهَا الْجَوَابُ عَنِ الْفِتَنِ الْأَرْبَعِ كُلِّهَا.

فَالصُّحْبَةُ الصَّالِحَةُ تَحْفَظُ الدِّينَ، فَأَصْحَابُ الْكَهْفِ كَانُوا غَضِبَةً.

وَتَكْسِرُ فِتْنَةَ الْمَالِ، فَالصَّدِيقُ الْمُؤْمِنُ لِصَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ بَذَلَ لِصَاحِبِهِ الْجُهْدَ فِي النَّصِيحَةِ.

وَتَضْبِطُ الْعِلْمَ، فَالْعَبْدُ الصَّالِحُ بَيَّنَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَجَمَ عِلْمِهِ، وَعَلَّمَهُ دَرْسًا عَظِيمًا،

مُفَادُهُ: لَا تَتَعَجَّلْ أَبَدًا فِي إِضْدارِ الْحُكْمِ.

وَتَمْنَعُ طُغْيَانَ السُّلْطَةِ، فَالْمَلِكُ الصَّالِحُ اسْتَعَانَ بِمَنْ حَوْلَهُ لِتَحْقِيقِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ.

📌 ثُمَّ تَخْتِمُ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١١٠].

ثُمَّ: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١١٠].

الآن يَأْتِي الْعِلَاجُ النَّهَائِي: {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}.

{وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}.

وَكَأَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا تَعُودُ إِلَى نُقْطَةِ الْبِدَايَةِ:

حِفْظُ الْإِيمَانِ.

❖ ❖ **مَوْقِعُ** سُورَةِ الْكَهْفِ فِي الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى:

الآن إِذَا جَمَعْنَا مَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ:

يُوسُفُ: الْحَقُّ يَنْتَصِرُ.

الرَّعْدُ: الْحَقُّ ثَابِتٌ.

إِبْرَاهِيمُ: الْحَقُّ نَزَلَ وَحِيًّا.

الْحِجْرُ: الْوَحْيُ مَحْفُوظٌ.

النَّحْلُ: الْوَحْيُ يُعَلِّمُ النَّاسَ الشُّكْرَ.

الْإِسْرَاءُ: الْأُمَّةُ مُكَلَّفَةٌ بِحَمْلِ الْوَحْيِ.

الْكَهْفُ: كَيْفَ تُحَافِظُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى إِيْمَانِهَا وَسَطَ الْفِتَنِ؟

وَلِهَذَا أَرَى أَنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ هِيَ: سُورَةُ النَّجَاةِ مِنَ الْفِتَنِ.

فَبَعْدَ أَنْ حَمَلْتِكَ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ مَسْئُولِيَّةَ الرِّسَالَةِ، جَاءَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ لِتُبْنِي لَكَ الْكَهْفَ الَّذِي يَحْمِي قَلْبَكَ مِنْ أَنْ تَضَيَّعَ مِنْكَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ وَسَطَ فِتَنِ الدِّينِ وَالْمَالِ وَالْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ.

📌 **الْعَلَاقَةُ** بَيْنَ قِصَّةِ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ وَسُورَةِ الْإِسْرَاءِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٣٦].

مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ فَقَطْ: «لَا تَتَكَلَّمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُ»... وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ مَعْنَاهَا.

لَكِنَّ الْمَعْنَى أَوْسَعُ بِكَثِيرٍ: لَا تُضِدِرْ حُكْمًا نَهَائِيًّا عَلَى شَيْءٍ لَمْ تُحِظْ بِهِ عِلْمًا.

لَا تَبْنِ مَوْقِفًا عَلَى جُزْءٍ صَغِيرٍ مِنَ الصُّورَةِ... لَا تَظُنَّ أَنَّ مَا تَرَاهُ هُوَ كُلُّ الْحَقِيقَةِ.

فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَى الْعَبْدَ الصَّالِحَ يَخْرِقُ السَّفِينَةَ.

فَيَقُولُ: ﴿أَخْرَقْتَهَا لِثَغْرِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧١].

وَهَلْ كَانَ اغْتِرَاضُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْطِقِيًّا بِحَسَبِ مَا رَأَى؟... نَعَمْ.

لِأَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يُعِيبُ سَفِينَةً لِأَناسٍ فَقَرَاءَ، لَكِنْ هَلْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْلِكُ كُلَّ

الْمَعْلُومَاتِ؟... لَا... كَانَ يَمْلِكُ جُزْءًا مِنَ الصُّورَةِ فَقَطْ.

ثُمَّ يَظْهَرُ لَهُ لَاحِقًا: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧٩].

فَإِذَا بِالْخَرَقِ الَّذِي بَدَأَ شَرًّا هُوَ عَيْنُ الرَّحْمَةِ.

📌 ثُمَّ الْمَشْهَدُ الثَّانِي: ﴿فَقَتَلَهُ﴾!! فَيَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧٤].

وَهَذَا اغْتِرَاضٌ أَعْظَمُ.

لَكِنْ مَرَّةً أُخْرَى: كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْكُمُ عَلَى مَا يَرَى.

أَمَّا الْحَقِيقَةُ الْكَامِلَةُ فَلَمْ تَكُنْ أَمَامَهُ!! ثُمَّ يَظْهَرُ لَاحِقًا:

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ...} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٨٠].

ثُمَّ الْجِدَارُ: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧٧].

فَيَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧٧].

وَهَذَا رَأْيِي مِنْطَقِيٍّ أَيْضًا... لَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ تَحْتَ الْجِدَارِ كَثْرًا لِيَتَيَّمِينَ.

هُنَا يَظْهَرُ الرَّابِطُ الْعَجِيبُ مَعَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: فَكَأَنَّ سُورَةَ الْإِسْرَاءِ وَضَعَتْ الْقَاعِدَةَ النَّظَرِيَّةَ:

{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}.

[سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٣٦].

ثُمَّ جَاءَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ لِتُجَسِّدَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فِي قِصَّةِ حَيَّةٍ، فَأَنْتَ تَرَى الْحَدَثَ، وَتُظَنُّ أَنَّكَ

فَهِمَّتُهُ... ثُمَّ يَكْشِفُ لَكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّكَ لَمْ تَرَ إِلَّا ظَاهِرَهُ.

 وَلَكِنْ هُنَاكَ مُسْتَوًى أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ:

لَا حِطُّوا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ لِمُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ: {...} {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٦٨].

هَذِهِ الْآيَةُ تَكَادُ تَكُونُ شَرْحًا عَمَلِيًّا لِآيَةِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ... فَلِمَاذَا يَتَعَجَّلُ الْإِنْسَانُ الْأَحْكَامَ؟

لِأَنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْجَهْلِ الْمُؤَقَّتِ!! يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ كُلَّ شَيْءٍ فَوْرًا!! وَيُرِيدُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ فَوْرًا! بَيْنَمَا تُعَلِّمُنَا سُورَةُ الْكَهْفِ:

لَيْسَ كُلُّ مَا لَا تَفْهَمُهُ الْآنَ خَطَأٌ... وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَبْدُو الْآنَ شَرًّا هُوَ شَرٌّ فِعْلًا... وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَبْدُو

الْيَوْمَ ظُلْمًا هُوَ ظُلْمٌ... وَلِهَذَا فَإِنَّ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ لَيْسَتْ قِصَّةً عَنِ

الْعِلْمِ فَقَطْ، كَمَا يُشَاعُ غَالِبًا... بَلْ هِيَ قِصَّةٌ عَنِ حُدُودِ الْعِلْمِ الْبَشَرِيِّ.

 هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ:

أَنْ تَعْلَمَ شَيْئًا... وَبَيْنَ أَنْ تَعْلَمَ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ مَا رَأَاهُ... لَكِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَا وَرَاءَهُ.

وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى تَفْسِيرِهِ تَفْسِيرًا صَحِيحًا... وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ اتِّصَالُ عَجِيبٍ بِالْخَرِيطَةِ

الَّتِي نَتَّبَعُهَا.

فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ قَرَأْنَا: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الْإِسْرَاءِ: ٣٦].

وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ نَرَى إِنْسَانًا عَظِيمًا كَتَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَعَلَّمُ عَمَلِيًّا أَنَّ الْحَقِيقَةَ

قَدْ تَكُونُ أَوْسَعَ مِنْ مَدَارِكِهِ الْحَالِيَّةِ.

وَكَانَ السُّورَةُ تَقُولُ:

بَعْدَ أَنْ حَمَلَتْ الْكِتَابَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، اخْذَرْ مِنْ آفَةِ حَفِيَّةٍ: أَنْ تَنْظُرَ أَنَّكَ أَحْطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَلِهَذَا جَاءَتْ قِصَّةُ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ بَيْنَ فِتْنَةِ الْمَالِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَفِتْنَةِ السُّلْطَانِ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ.

لِأَنَّ أخطرَ فِتْنَةٍ قَدْ تُصِيبُ طَالِبَ الْحَقِّ لَيْسَتْ الْمَالُ، وَلَا الْقُوَّةُ، بَلْ أَنْ يَنْظُرَ أَنَّ عِلْمَهُ الْكَامِلَ قَدْ أَغْنَاهُ عَنِ التَّوَاضُّعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الَّذِي عَلَّمَهُ مَا عَلِمَ.

وَهَذَا يُشَبِّهُ تَمَامًا مَا يَقَعُ فِيهِ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ... يَقَعُ لَهُ أَمْرٌ يَكْرَهُهُ.

فَيَقُولُ: لِمَاذَا حَدَثَ هَذَا؟ ثُمَّ بَعْدَ سِنَوَاتٍ يَكْتَشِفُ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ كَانَ فِيهِ.

أَوْ يُحَرِّمُ مِنْ شَيْءٍ فَيُظَنُّ شَرًّا!! ثُمَّ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ كَانَ نَجَاةً.

وَكَانَ قِصَّةُ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ لَيْسَتْ قِصَّةً تَارِيخِيَّةً فَقَطْ، بَلْ هِيَ مِرَاةٌ لِحَيَاةِ كُلِّ إِنْسَانٍ.

بَلْ إِنَّ هُنَاكَ لَطِيفَةً جَمِيلَةً فِي سِيَاقِ السُّورِ الَّتِي نَتَّبَعُهَا.

فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ١١].

ثُمَّ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ تَأْتِي قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِشَرِيكَ نَتِيجَةَ الْعَجَلَةِ عَمَلِيًّا.

فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ لَكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فَقَطْ: «إِنَّ الْعَجَلَةَ مُشْكِلَةٌ».

يَعْرِضُ لَكَ نَبِيًّا عَظِيمًا يَتَعَلَّمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحِيطَ بِحِكْمَةِ الْأَحْدَاثِ كُلِّهَا فِي لَحْظَتِهَا... وَهُنَاكَ لَطِيفَةٌ أُعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ.

فِي بَدَايَةِ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٣].

وَفِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَجْدٌ مَعْنَى آخَرٍ.

لَيْسَ زِيَادَةُ هُدًى بِكَثْرَةِ الْمَعْلُومَاتِ فَقَطْ، بَلْ زِيَادَةُ تَوَاضُّعٍ بِاكتِشافِ حُدُودِ الْعِلْمِ.

وَكَانَ سُورَةُ الْكَهْفِ تُعَلِّمُنَا أَنَّ النِّجَاةَ مِنَ الْفِتَنِ لَا تَكُونُ بِكَثْرَةِ الْمَعْلُومَاتِ فَقَطْ، بَلْ بِمَعْرِفَةِ حَجْمِ

مَا لَا نَعْلَمُهُ... وَلِهَذَا فَإِنَّ الدَّرْسَ الَّذِي خَرَجَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رِحْلَتِهِ لَيْسَ:

«تَعَلَّمْتُ مَعْلُومَاتٍ جَدِيدَةً»... بَلْ: تَعَلَّمْتُ أَنَّ وَرَاءَ ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ حِكْمًا لَا أَرَاهَا جَمِيعَهَا.

وَهَذَا هُوَ عَيْنُ الْعِلَاجِ لِلْعَجَلَةِ الَّتِي تَحْدَثُ عَنْهَا سُورَةُ الْإِسْرَاءِ.

فَالْإِنْسَانُ الْعَجُولُ يُرِيدُ تَفْسِيرَ كُلِّ شَيْءٍ فَوْرًا، أَمَّا سُورَةُ الْكَهْفِ فَتُعَلِّمُهُ أَنَّ بَعْضَ الْحِكْمَةِ لَا

تُفْهَمُ إِلَّا بَعْدَ اكْتِمَالِ الْمَشْهَدِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ هُنَاكَ جِسْرًا رَائِعًا بَيْنَ الْآيَتَيْنِ:

فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. [الْإِسْرَاءِ: ١١].

وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾. [الْكَهْفِ: ٦٨].

فَالأُولَى تُحَذِّرُ مِنْ عَجَلَةِ الْحُكْمِ، وَالثَّانِيَّةُ تُعَلِّمُ مَنَهِجَ الصَّبْرِ حَتَّى يَظْهَرَ مَا خَفِيَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ!! فَكَأَنَّ السُّورَةَ الثَّانِيَةَ تُفَسِّرُ الأُولَى، وَكَأَنَّ قِصَّةَ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ هِيَ تَدْرِيبٌ عَمَلِيٌّ لِلإِنْسَانِ عَلَى تَرْكِ العَجَلَةِ حَتَّى تَكْتَمِلَ لَهُ الرُّؤْيَةُ.

وَأُظِنُّ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُخْطِئُونَ فِي فَهْمِ سُورَةِ الْكَهْفِ، فَلَوْ كَانَتْ رِسَالَةُ السُّورَةِ هِيَ: «اهْزُبُوا إِلَى كُهُوفِ الْجِبَالِ وَاتْرَكُوا النَّاسَ»... لَكَانَتِ السُّورَةُ كُلُّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فَقَطْ! لَكِنْ لِمَاذَا وَضَعَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَعْدَهَا قِصَّةَ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ؟ ثُمَّ قِصَّةَ مُوسَى وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ؟ ثُمَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ الَّذِي يَجُوبُ الْأَرْضَ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَيُخَالِطُ الْأُمَمَ، وَيَبْنِي السُّدُودَ؟ هَذَا وَحْدَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّورَةَ لَا تَدْعُو إِلَى الْعُزْلَةِ الدَّائِمَةِ.

دَعْوَانَا نَنْظُرُ إِلَى التَّمَاذِجِ الأَرْبَعَةِ:

أَوَّلًا: أَصْحَابُ الْكَهْفِ... هَؤُلَاءِ اغْتَرَلُوا قَوْمَهُمْ فِعْلًا.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذْ اغْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٦].

لَكِنْ لِمَاذَا اغْتَرَلُوا؟ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَمَامَ حَالَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ:

سُلْطَةُ تَضْطَهُدُ الْإِيمَانَ... وَمُجْتَمَعٌ يَفْرِضُ الشَّرْكَ... وَعَجَزٌ عَنِ إظهارِ الدِّينِ.

فَكَانَ الْكَهْفُ وَسِيلَةً لِحِفْظِ أَصْلِ الْإِيمَانِ... إِذَنْ فَالْكَهْفُ هُنَا لَيْسَ هَدَفًا، بَلْ وَسِيلَةً مُوقَّتَةً لِحَالَةٍ خَاصَّةٍ.

ثَانِيًا: صَاحِبُ الْجَنَّتَيْنِ... لَمْ يَدْخُلْ كَهْفًا... بَلْ عَاشَ وَسَطَ الْحَيَاةِ، وَالْمَالِ، وَالزَّرَاعَةِ، وَالنَّاسِ. وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ فِتْنَتُهُ أَعْظَمَ!! فَلَمْ يَسْقُطْ لِأَنَّهُ خَالَطَ النَّاسَ، بَلْ سَقَطَ لِأَنَّ قَلْبَهُ اغْتَرَّ.

ثَالِثًا: مُوسَى وَالْعَبْدُ الصَّالِحُ... لَمْ يَغْتَرِلَا النَّاسَ... بَلْ سَافَرَا بَيْنَ النَّاسِ... وَرَكِبَا السَّفِينَةَ... وَدَخَلَا الْقَرْيَةَ... وَتَعَامَلَا مَعَ الْبَشَرِ... فَالْنَّجَاةُ هُنَا لَمْ تَكُنْ بِالْعُزْلَةِ... بَلْ بِالتَّوَاضُّعِ، وَالصَّبْرِ، وَالتَّسْلِيمِ لِحِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

رَابِعًا: ذُو الْقَرْنَيْنِ... وَهَذَا أَهَمُّ دَلِيلٍ.

فَلَوْ كَانَتْ رِسَالَةُ السُّورَةِ هِيَ الْهَرُوبُ مِنَ الْمُجْتَمَعِ، فَلِمَاذَا تَخْتِمُ السُّورَةُ بِشَخْصٍ هُوَ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُزْلَةِ؟

قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٨٤]. يُسَافِرُ... وَيَحْكُمُ... وَيُعَالِجُ مُشْكَلاتِ الْأُمَمِ... وَيَبْنِي السُّدُودَ... وَيُخَالِطُ النَّاسَ... وَمَعَ ذَلِكَ يَنْجَحُ فِي الْفِتْنَةِ!! إِذَنْ مَا هُوَ الْكَهْفُ الْحَقِيقِيُّ؟

الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَفْسُهُ يُجِيبُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾.
[سُورَةُ الْكَهْفِ: ١]... وَلَمْ تَبْدَأِ السُّورَةُ بِقَوْلِ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْكَهْفَ... بَلْ بَدَأَتْ بِالْكِتَابِ... وَهَذَا لَيْسَ عَبَثًا.
فَكَأَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةٍ فِي السُّورَةِ: أَنَّ الْكَهْفَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ الْوَحْيِ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ لـ «الْكَهْفِ» فِي السُّورَةِ مَعْنَيْنِ:

المَعْنَى الْأَوَّلُ: الْكَهْفُ الْمَادِّي... وَهُوَ كَهْفُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.
وَهَذَا عِلَاجٌ اسْتِثْنَائِيٌّ لِحَالَةِ اسْتِثْنَائِيَّةٍ.

المَعْنَى الثَّانِي: الْكَهْفُ الْمَعْنَوِي... وَهُوَ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ السُّورَةُ كُلُّهَا.

أَنْ يَكُونَ لِلْمُؤْمِنِ مَلْجَأٌ يَحْتَمِي بِهِ مِنْ فِتْنِ الدِّينِ، وَالْمَالِ، وَالْعِلْمِ، وَالسُّلْطَانِ.
وَهَذَا الْمَلْجَأُ هُوَ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ... وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَالصُّحْبَةُ الصَّالِحَةُ.

وَلِهَذَا جَاءَتْ الْآيَةُ الْعَجِيبَةُ فِي وَسْطِ السُّورَةِ:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٢٨].
لَا حِظُّوْا: لَمْ يَقُلِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ فِي الْكَهْفِ» بَلْ قَالَ: ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

فَكَأَنَّ السُّورَةَ تَتَقَلَّبُ مِنَ الْكَهْفِ الْحَجَرِيِّ إِلَى الْكَهْفِ الْبَشَرِيِّ؛ أَيِ: جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ.
وَهُنَا يَظْهَرُ رَابِطٌ جَمِيلٌ جِدًّا مَعَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٩].
ثُمَّ تَبْدَأُ سُورَةُ الْكَهْفِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١].

وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: إِذَا أَرَدْتَ كَهْفًا يَحْمِيكَ مِنْ فِتْنَةِ الدِّينِ، وَالْمَالِ، وَالْعِلْمِ، وَالسُّلْطَانِ، فَلَيْسَ
الْكَهْفُ الْحَقِيقِيُّ صَخْرَةً فِي جَبَلٍ، بَلْ هُوَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ.

بَلْ إِنَّ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَمْرًا أَدَقَّ مِنْ ذَلِكَ... فَهُمْ لَمْ يَنْجُوا بِسَبَبِ الْكَهْفِ نَفْسِهِ.
فَكَمُ مِنْ إِنْسَانٍ يَدْخُلُ كَهْفًا وَيَمُوتُ فِيهِ!! وَلَكِنَّ الَّذِي أَنْجَاهُمْ هُوَ اللَّهُ اللَّطِيفُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ أَنَّ السُّورَةَ تُصَفِّ عِنَايَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِهِمْ:

﴿وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾. [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٨].

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾.

[سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٧].

فَالْتَجَاءُ لَمْ تَكُنْ فِي الصُّخُورِ... بَلْ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ... وَالْكَهْفُ إِنَّمَا كَانَ سَبَبًا.
وَهَذَا الْمَشْهُدُ يُعِيدُنَا إِلَى قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ، حِينَ قَالَ:
{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}. [سُورَةُ يُوسُفَ: ١٠٠].
فَعُدْنَا إِلَى قِصَّةِ اللُّطْفِ الإِلَهِيِّ.

وَلِذَلِكَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُلَخِّصَ رِسَالَةَ سُورَةِ الْكَهْفِ فِي نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْنَا:
إِنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ لَا تُعَلِّمُ الْمُؤْمِنَ أَنْ يَهْزُبَ مِنَ النَّاسِ، بَلْ تُعَلِّمُهُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ «كَهْفَهُ
الدَّاخِلِيَّ» أَيْنَمَا ذَهَبَ.

فَقَدْ يَكُونُ فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ مِثْلَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.
وَقَدْ يَكُونُ تَاجِرًا فِي السُّوقِ.
أَوْ فَلَّاحًا بَيْنَ الْبَسَاتِينِ.

وَلَكِنَّ التَّجَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ أَنْ يَبْقَى قَلْبُهُ مُعَلِّقًا بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، مُهْتَدِيًا بِنُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
وَقَدْ يَكُونُ طَالِبَ عِلْمٍ فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ.
وَقَدْ يَكُونُ حَاكِمًا يَمْلِكُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا.

لَكِنَّ الَّذِي يَحْفَظُهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ:
الاعْتِصَامُ بِاللَّهِ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِوَاسِطَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ الْابْتِعَادِ الْجَسَدِيِّ عَنِ
النَّاسِ.

وَلِهَذَا فَاسْمُ السُّورَةِ «الْكَهْفُ» لَيْسَ لِأَنَّ الْكَهْفَ هُوَ بَطْلُ الْقِصَّةِ، بَلْ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُرِيدُ
أَنْ يَسْأَلَ كُلَّ مُؤْمِنٍ:

عِنْدَمَا تَهْجُمُ عَلَيْكَ الْفِتْنُ، أَيْنَ كَهْفُكَ الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ؟

سُورَةُ مَرْيَمَ:

مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَسُورَةِ مَرْيَمَ؟

سُورَةُ الْكَهْفِ تُعَالِجُ سُؤَالَ وَاحِدًا: كَيْفَ يَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْحَقِّ وَسَطَ الْفِتَنِ؟

ثُمَّ عَرَضَتْ لَنَا نَمَازِجَ:

أَصْحَابُ الْكَهْفِ: (فِتْنَةُ الدِّينِ).

صَاحِبُ الْجَنَّتَيْنِ: (فِتْنَةُ الْمَالِ).

مُوسَى وَالْعَبْدُ الصَّالِحُ: (فِتْنَةُ الْعِلْمِ).

ذُو الْقَرْنَيْنِ: (فِتْنَةُ السُّلْطَانِ).

ثُمَّ خَتَمَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾. [الْكَهْفِ: ١١٠].

أَيُّ: إِنَّ النَّجَاةَ مِنَ الْفِتَنِ تَكُونُ بِالْوَحْيِ فَقَطْ، وَإِلَّا فَإِنِّي فِي النَّهَايَةِ - أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ مَرْيَمَ لِتَقُولَ لَنَا: هَذَا هُوَ أَثَرُ الْوَحْيِ فِي الْبَشَرِ.

فَتَعْرِضُ لَنَا نَمَازِجَ مِنَ الَّذِينَ عَاشُوا بِالْوَحْيِ وَعَاشُوا لَهُ:

زَكَرِيَّا... يَحْيَى... مَرْيَمَ... عِيسَى... إِبْرَاهِيمَ... مُوسَى... إِسْمَاعِيلَ... إِدْرِيسَ.

فَإِذَا كَانَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ تَتَحَدَّثُ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى الْوَحْيِ، فَإِنَّ سُورَةَ مَرْيَمَ تَتَحَدَّثُ عَنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الْوَحْيِ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ.

﴿كَهْيَعَصْ﴾. [مَرْيَمَ: ١]: الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ تَأْتِي غَالِبًا قَبْلَ الْحَدِيثِ عَنِ الْوَحْيِ وَالْكِتَابِ.

مِثْلُ: ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. [البَقَرَةُ: ٢-١].

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. [يُونُسَ: ١].

﴿حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾. [الدُّخَانِ: ٢-١].

وَكَانَ الْمَعْنَى الْعَامَّ:

أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الْمُؤَلَّفَ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي تَعْرِفُونَهَا، هُوَ نَفْسُهُ الْمُعْجَزَةُ الَّتِي

عَجَزْتُمْ عَنِ الْإِثْيَانِ بِمِثْلِهَا.

وَلَكِنْ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ تُوْجَدُ لَطِيفَةٌ إِضَافِيَّةٌ... فَالْقِصَصُ كُلُّهَا تَدُورُ حَوْلَ أُمُورٍ يَرَاهَا النَّاسُ مُسْتَحِيلَةً:

شَيْخٌ يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ... عَذْرَاءٌ تَلِدُ... نَجَاةٌ إِبْرَاهِيمَ مِنْ قَوْمِهِ... اضْطِغَاءُ مُوسَى.

وَكَانَ الشُّورَةُ مُنْذُ أَوَّلِ حَرْفٍ فِيهَا تَقُولُ:
 كَمَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُنْزِلُ كَلَامًا مُعْجَزًا مِنْ حُرُوفٍ عَادِيَّةٍ، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ أَحْدَاثًا خَارِقَةً مِنْ
 أَسْبَابٍ عَادِيَّةٍ أَوْ حَتَّى بِلَا أَسْبَابٍ.
 فَالْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ فِي أَوَّلِ الشُّورَةِ تُشَبِّهُ الْمُعْجَزَاتِ الْمَذْكُورَةَ فِيهَا:
 حُرُوفٌ مَأْلُوفَةٌ تُعْطِينَا قُرْآنًا كَرِيمًا مُعْجَزًا.
 وَأَسْبَابٌ مَأْلُوفَةٌ أَوْ مَعْدُومَةٌ أَحْيَانًا تُعْطِينَا أَقْدَارًا وَمُعْجَزَاتٍ عَظِيمَةً.

📌 مَا الْقَضِيَّةُ الرَّئِيسِيَّةُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ؟
 يُفَكِّنُ تَلْخِيصُهَا فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ:
 نُزُولُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَجَلِّي قُدْرَتِهِ فِي عِبَادِهِ الَّذِينَ التَّزَمُوا بِمَنْهَجِ الْوَحْيِ.

وَلِذَلِكَ افْتَتَحَتِ الشُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ بِقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
 ﴿ذِكْرٌ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيًا﴾. [مَرْيَمَ: ٢].
 وَلِسَعَةِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ وَعَظَمِهَا، وَلِخُرُوجِهَا عَنْ مَأْلُوفِ نَوَامِيسِ الْكُونِ، جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿رَحْمَتِ﴾
 فِي رِسْمِ الْمُصْحَفِ بِالنَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ، فَأَوَّلُ مَوْضُوعٍ فِي الشُّورَةِ هُوَ: الرَّحْمَةُ.

📌 ثُمَّ تَسِيرُ بِنَا الشُّورَةُ وَسَطَ مَشَاهِدَ كَثِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ:
 نَمَازِجُ الرَّحْمَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ:
 زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾. [مَرْيَمَ: ٥].
 لِمَاذَا؟ لِيَحْمِلَ الْوَحْيَ بَعْدَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ.
 فَيُزَرِّقُ بِيَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَغَمَ كِبَرِ سِنِّ زَكْرِيَّا وَعَقْمِ زَوْجِهِ.
 ثُمَّ مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾. [مَرْيَمَ: ٢٠].
 فَيَخْلُقُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِلَا أَبٍ.
 ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

📌 مَا هِيَ الرِّسَالَةُ؟
 اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَصْنَعُ الْهِدَايَةَ حَيْثُ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهَا مُسْتَحِيلَةٌ.

📌 خُلَاصَةُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا:
 بَعْدَ ذِكْرِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ، يَقُولُ تَعَالَى:
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾. [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥٨] هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ حَصِيلَةُ الْقِسْمِ
 الْأَوَّلِ كُلِّهِ.

📌 وَلَكِنْ، مَاذَا حَدَّثَ بَعْدَهُمْ؟

هَنا تَأْتِي نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥٩]
وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَسْأَلُ: مَاذَا يَحْدُثُ إِذَا ضَاعَتْ رِسَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ؟
فَيَأْتِي الْجَوَابُ: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥٩]
وَهَذَا تَحْذِيرٌ مُهِمٌّ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ كُلِّهَا.

📌 لِمَاذَا بَدَأَتِ السُّورَةُ بِزَكَرِيَّا ثُمَّ مَرْيَمَ؟ لِإِظْهَارِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ بِالتَّدرُّجِ.
زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَزَوْجَتُهُ عَاقِرٌ!! وَمَعَ ذَلِكَ يُوَلَّدُ لَهُ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
ثُمَّ تَأْتِي مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: لَا زَوْجَ أَضَلَّا، وَمَعَ ذَلِكَ يُوَلَّدُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
فَالسُّورَةُ تَنْتَقِلُ مِنْ: حَرْقِ بَغْضِ الْأَسْبَابِ... إِلَى حَرْقِ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ.

📌 لِمَاذَا تَكَرَّرَتْ قِصَّةُ الْوَلَدِ؟ لِحِطْوَةِ التَّسْلُسِلِ:
فِي الْبِدَايَةِ: زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطْلُبُ وَلَدًا... فَيُوَلَّدُ لَهُ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
ثُمَّ: عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَلَّدُ بِدُونِ سُؤَالٍ مِنْ أَحَدٍ، وَبِدُونِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ النَّاسِ.
ثُمَّ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٨٨]
فَتَرَدُّ عَلَيْهِمُ السُّورَةُ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٢]
فَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُعْطِي الْأَوْلَادَ... اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَخْلُقُ الْأَوْلَادَ.
وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ.

📌 مَا دَلَالَةُ تَكَرُّارِ اسْمِ "الرَّحْمَنُ" فِي سُورَةِ مَرْيَمَ؟
اسْمُ "الرَّحْمَنُ" يَتَكَرَّرُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ بِصُورَةٍ لَافِتَةٍ... لِأَنَّ الرِّسَالَةَ الْأَسَاسِيَّةَ هِيَ:
أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ قُدْرَةٍ، بَلْ هِيَ رَحْمَةٌ... رَحْمَةٌ بِزَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَرَحْمَةٌ بِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ... وَرَحْمَةٌ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ... وَرَحْمَةٌ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَرَحْمَةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا.
وَلِهَذَا تَخْتِمُ سُورَةُ مَرْيَمَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٦]

📌 مَنْ هُمْ؟ هُمُ الَّذِينَ التَّزَمُوا بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

📌 مَا دَلَالَةُ مَوْقِعِ سُورَةِ مَرْيَمَ بَيْنَ سُورَتَيْ الْكَهْفِ وَطِهْ؟

يُمْكِنُ تَلْخِيصُ السُّورِ الثَّلَاثِ هَكَذَا:

سُورَةُ الْكَهْفِ: كَيْفَ يَحْفَظُ الْمُؤْمِنُ دِينَهُ؟

سُورَةُ مَرْيَمَ: كَيْفَ يَرْحَمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَوْلِيَاءَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ؟
سُورَةُ طه: كَيْفَ يُوَاجِهُ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ طُغْيَانَ الطُّغَاةِ بَعْدَ أَنْ اضْطَفَاهُمْ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
بِرَحْمَتِهِ؟

وَلِهَذَا تَأْتِي قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُخْتَصَرَةً فِي سُورَةِ مَرْيَمَ:
{وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى} [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥١]
ثُمَّ تُفَصِّلُ قِصَّتَهُ فِي سُورَةِ طه الَّتِي تَلِي سُورَةَ مَرْيَمَ مُبَاشَرَةً.

📌 الْخُلَاصَةُ النَّهَائِيَّةُ فِي سَطْرَيْنِ:
سُورَةُ الْكَهْفِ تُعَلِّمُكَ أَنْ تَتَّقَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا خَفِيتَ عَلَيْكَ الْأَحْدَاثُ:
{وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ} [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٨٢]

وَسُورَةُ مَرْيَمَ تُعَلِّمُكَ أَنْ تَتَّقَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا اسْتَحَالَ السَّبَبُ:
{هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٢١]

وَلِهَذَا جَاءَتَا مُتَجَاوِرَتَيْنِ: الْكَهْفُ تَقُولُ لَكَ... لَا تَغْتَرِضْ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.
وَمَرْيَمُ تَقُولُ لَكَ... لَا تَسْتَبِعِدْ قُدْرَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْإِيمَانُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَقُدْرَتِهِ، سَهَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ إِلَى
مَا بَعْدَهُمَا فِي سُورَةِ طه، حَيْثُ يَبْدَأُ التَّكْلِيفَ وَالِدَّعْوَةَ وَمُوَاجَهَةَ فِرْعَوْنَ.

سُورَةُ طه:



سُورَةُ طه مِنْ السُّورِ الْمِفْصَلِيَّةِ جِدًّا فِي الْبِنَاءِ الْقُرْآنِيِّ، وَلَا يُمَكِّنُ فَهْمَهَا حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا إِذَا رَأَيْنَا مَوْقِعَهَا بَيْنَ سُورَتَيْ مَرْيَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَرَأَيْنَا كَيْفَ تَتَقَدَّمُ الْخَارِطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ خُطْوَةً جَدِيدَةً بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ سُورَةُ مَرْيَمَ.

أَوَّلًا: أَيْنَ نَحْنُ فِي الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى؟

إِذَا نَظَرْنَا إِلَى السَّلْسِلَةِ: الْإِسْرَاءُ... الْكَهْفُ... مَرْيَمُ... طه... الْأَنْبِيَاءُ.

وَجَدْنَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَسِيرُ فِي خَطِّ مُتَدَرِّجٍ:

الْإِسْرَاءُ: إِبْلَاقُ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾. [الْإِسْرَاءُ: ١٠٥]

الْكَهْفُ: كَيْفَ يَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ عَلَى هَذَا الْحَقِّ وَسَطَ الْفِتَنِ.

فِتْنَةُ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْقَالَ، وَفِتْنَةُ الْعِلْمِ، وَفِتْنَةُ السُّلْطَانِ.

مَرْيَمُ: عَرَضَتْ نَمَازِجَ الْبَشَرِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِحَمْلِ هَذَا الْحَقِّ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾. [مَرْيَمُ: ٥٨]

طه: كَيْفَ يَصْنَعُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ حَامِلَ الرِّسَالَةِ نَفْسَهُ؟

كَيْفَ يُرَبِّي؟ كَيْفَ يُوَاجِهُ الطُّغْيَانَ؟ كَيْفَ يَحْمِلُ الْوَحْيَ إِلَى النَّاسِ؟ كَيْفَ يَثْبُتُ أَمَامَ التَّكْذِيبِ؟

وَلِهَذَا فَإِنَّ سُورَةَ طه هِيَ سُورَةُ: صِنَاعَةِ الدَّاعِيَةِ وَحَامِلِ الرِّسَالَةِ.

انْظُرُوا إِلَى نِهَايَةِ سُورَةِ مَرْيَمَ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾. [مَرْيَمُ: ٩٧]

الْحَدِيثُ هُنَا عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ لِسَانِ النَّبِيِّ.

فَتَأْتِي سُورَةُ طه مُبَاشَرَةً: ﴿طه ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. [طه: ٢-١]

كَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ لِلدَّاعِيَةِ: لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِلِسَانِكَ... وَالْآنَ سَنُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَحْمِلُ هَذَا الْقُرْآنَ.

📌 الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رَحْمَةٌ وَلَيْسَ عِثًّا... افْتَتَحَتْ سُورَةُ طه بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾. [طه: ٢-٣]

وَهَذَا مِنْهُمْ جِدًّا... لِأَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَتَأَلَّمُ بِسَبَبِ إِغْرَاضِ قَوْمِهِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاجِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا

الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. [الْكَهْفُ: ٦]

أَي: إِنَّكَ سَتُهْلِكُ نَفْسَكَ حُزْنًا عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ!! فَجَاءَتْ سُورَةُ طه لَتَقُولَ لَهُ: لَا تَحْمِلْ مَا لَيْسَ عَلَيْكَ... مُهْمَّتُكَ هِيَ الْبَلَاغُ فَقَطْ.

✂ قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْتَعْرَقَتْ مُعْظَمَ السُّورَةِ.

وَالسُّؤَالُ: لِمَاذَا مُوسَى بِالذَّاتِ؟

لِأَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَاجِهُهُ وَضْعًا يُشْبِهُ وَضْعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَمَامًا. مُوسَى: وَاجِهَ طَاغِيَةً... أَوْذِي... كَذَّبَ... خَرَجَ مِنْ وَطَنِهِ... حَمَلَ رِسَالَةً ثَقِيلَةً. وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمُرُّ بِالْمَسَارِ نَفْسِهِ.

وَلِهَذَا بَدَأَتِ الْقِصَّةُ مِنْ لَحْظَةِ نِدَاءِ مُوسَى:

{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه: ١٢]

وَلَمْ تَبْدَأِ السُّورَةُ مِنْ لَحْظَةِ وَلَادَتِهِ، كَمَا فِي قِصَّةِ يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، لِمَاذَا؟

لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا لَيْسَ تَارِيخُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بَلْ مَا حَدَثَ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ لَحْظَةِ بَعَثْتِهِ؛ لِإِعْدَادِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

✂ عَنَاصِرُ الْإِعْدَادِ الرَّسَالِيِّ:

١- تَعْرِيفُهُ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤] قَبْلَ مُوَاجَهَةِ الطَّاغِيَةِ، لَا بُدَّ مِنْ تَرْسِيخِ عَقِيدَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

٢- تَعْرِيفُ الدَّاعِيَةِ بِالْآخِرَةِ: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِشُجْزَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه: ١٥] لِأَنَّ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ لَا يَصْبِرُ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

٣- تَسْلِيخُ الدَّاعِيَةِ بِالْمُعْجَزَاتِ: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} [طه: ١٧]

٤- تَعْلِيمُ الدَّاعِيَةِ طَلَبِ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

{وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي} هَارُونَ أَخِي ○ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ○ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ○ [طه: ٢٩-٣٢]

فَلَا بُدَّ لِلدَّاعِيَةِ مِنْ مُعِينٍ يُعِينُهُ فِي دَعْوَتِهِ.

٥- تَعْلِيمُ الدَّاعِيَةِ أَسْلُوبِ الدَّعْوَةِ: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا} [سُورَةُ طه: ٤٤]، حَتَّى مَعَ فِرْعَوْنَ.

✂ عِنَايَةُ اللَّهِ الْخَفِيَّةُ: هَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ قَضَايَا السُّورَةِ.

تَأَمَّلُوا مَعِيَ: {وَالْقَبِيتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [سُورَةُ طه: ٣٩]

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾. [سُورَةُ طه: ٤٠]
 ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾. [سُورَةُ طه: ٤٠]
 هَذِهِ الْآيَاتُ لَيْسَتْ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطَّ.
 بَلْ هِيَ رِسَالَةٌ لِّمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِكُلِّ دَاعِيَةٍ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

مَقَادُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ: كُلُّ مَا مَرَرْتَ بِهِ كَانَ إِعْدَادًا لَكَ.
 وَلِذَلِكَ يُمَكِّنُ اعْتِبَارُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِفْتَاحَ السُّورَةِ:
 ﴿وَلِتُضْنَعْ عَلَىٰ عَيْنِي﴾. [سُورَةُ طه: ٣٩]

📌 الصَّرَاعُ مَعَ الطُّغْيَانِ: بَعْدَ الْإِعْدَادِ تَأْتِي الْمُوَاجَهَةُ.
 ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. [سُورَةُ طه: ٢٤]، وَلَا حِظُّوْا أَنَّ الْمُسْكِلَةَ لَيْسَتْ فِي الْكُفْرِ فَقَطَّ.
 بَلْ: فِي الطُّغْيَانِ!! وَلِهَذَا تَتَكَرَّرُ صُورَةُ فِرْعَوْنَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
 لِأَنَّهُ التَّمُودُجُ الْأَبَدِيُّ لِلِاسْتِكْبَارِ.

📌 فِتْنَةُ النَّجَاحِ بَعْدَ النَّصْرِ: بَعْدَ غَرَقِ فِرْعَوْنَ نَتَوَقَّعُ نِهَايَةَ الْقِصَّةِ!!
 لَكِنَّ السُّورَةَ تَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إِلَى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾. [سُورَةُ طه: ٨٥]
 وَكَأَنَّهَا تَقُولُ: إِنَّ الطُّغْيَانِ لَيْسَ هُوَ الْخَطَرُ الْوَحِيدُ.
 بَلْ قَدْ تَأْتِي الْفِتْنَةُ بَعْدَ النَّصْرِ.

📌 لِمَاذَا جَاءَتْ قِصَّةُ السَّامِرِيِّ هُنَا؟ هَذِهِ مِنْ أَلْطَفِ أَسْرَارِ السُّورَةِ.
 فِي الْبِدَايَةِ وَاجَهَةٌ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَاغِيَةٌ خَارِجِيًّا: فِرْعَوْنُ.
 وَفِي النِّهَايَةِ وَاجَهَةٌ طَاغِيَةٌ دَاخِلِيًّا: الْهَوَىٰ وَالْإِنْجِرَافُ دَاخِلَ الْأُمَّةِ.
 فَالرِّسَالَةُ تُوَاجِهُ دَائِمًا خَطَرَيْنِ: عَدُوٌّ مِنَ الْخَارِجِ... وَفَسَادٌ مِنَ الدَّاخِلِ.

📌 الْعُودَةُ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بَعْدَ قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَأْتِي قِصَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
 ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِ الْيَسَّىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. [سُورَةُ طه: ١١٥]

وَهُنَا تَصِلُ السُّورَةُ قِمَّتَهَا الْفِكْرِيَّةَ، كَأَنَّهَا تَقُولُ لَنَا:
 إِنَّ مُشْكِلَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَتْ جَدِيدَةً... وَلَا مُشْكِلَةُ قُرَيْشٍ.
 بَلْ هِيَ الْمُسْكِلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْأُولَى!! مَا هِيَ؟
 النَّسْيَانُ!!

لَا حِطَّوْا: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. [سُورَةُ طه: ١١٥]
وَمِنْ هُنَا يَتَكَرَّرُ الْحَدِيثُ عَنْ: الذِّكْرِ... وَالتَّذْكِيرَةِ... وَالتَّذْكَرِ.
لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الْعِلَاجُ لِذَاءِ النَّسْيَانِ الْقَدِيمِ.

✿ سُورَةُ طه هِيَ سُورَةُ "الذِّكْرِ":

لَوْ تَتَبَعْنَا السُّورَةَ جَيِّدًا سَنَجِدُ أَنَّ كَلِمَةَ الذِّكْرِ وَالتَّذْكِيرَةِ وَالتَّذْكَرِ تَدُورُ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهَا.
افْتِتَاحُ السُّورَةِ: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾. [سُورَةُ طه: ٣]
عِنْدَ الْوَحْيِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. [سُورَةُ طه: ١٤]
عِنْدَ إِرسَالِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَلَا تَبْيًا فِي ذِكْرِي﴾. [سُورَةُ طه: ٤٢]
عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾. [سُورَةُ طه: ٩٩]
ثُمَّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾. [سُورَةُ طه: ١٢٤]

فَالسُّورَةُ كُلُّهَا تَتَحَرَّكُ بَيْنَ قُطْبَيْنِ: الذِّكْرِ... وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الذِّكْرِ.
وَلِهَذَا انْتَهَتْ بِقِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْمَشْكِلَةِ الْبَشَرِيَّةِ هُوَ الْغَفْلَةُ وَالنَّسْيَانُ.

✿ الرَّاِبِطُ الْخَفِيُّ بَيْنَ مُوسَى وَآدَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

وَهَذِهِ مِنْ أَجْمَلِ الْوَشَائِحِ فِي السُّورَةِ... فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. [سُورَةُ طه: ١٤]
وَفِي قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾. [سُورَةُ طه: ١٢٠]
أَيُّ: إِنَّ السُّورَةَ تَبْدَأُ بِالْوَحْيِ وَتَنْتَهِي بِالْوَسْوَسَةِ.
وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَنَا: إِنَّ الْإِنْسَانَ بَيْنَ صَوْتَيْنِ:
صَوْتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ... وَصَوْتِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ... وَالنَّجَاةُ فِي التَّمَسُّكِ بِالْوَحْيِ.

✿ أَهَمِّيَّةُ الْعِلْمِ: ... لَا حِطَّوْا أَنَّ السُّورَةَ لَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِيمَانِ الْمَجَرَّدِ فَقَطْ.

بَلْ عَنِ الْعِلْمِ.

عِنْدَمَا أَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى سِحْرَ السَّحَرَةِ قَالُوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾. [طه: ٧٠]
لِمَاذَا؟... لِأَنَّهُمْ أَهْلُ خَبْرَةٍ!! فَعَرَفُوا الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَبَيْنِ السَّحْرِ.

فَجَاءَتِ الْخَاتِمَةُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. [طه: ١١٤]، وَهَذِهِ الْآيَةُ فَرِيدَةٌ جَدًّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَوَامِرِ الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَطْلُبَ فِيهَا الْمَزِيدَ مِنْهَا.

لَمْ يَقُلْ: زِدْنِي مَالًا... وَلَا سُلْطَانًا... وَلَا أَتْبَاعًا.
بَلْ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ:
طَرِيقُ الرِّسَالَةِ يَبْدَأُ بِالْوَحْيِ وَيَسْتَمِرُّ بِالْعِلْمِ.

📌 الصَّلَاةُ هِيَ الْعَمُودُ الْخَفِيُّ لِلسُّورَةِ... لَا حِطُّوا كَيْفَ تَتَكَرَّرُ:
فِي أَوَّلِ الْوَحْيِ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. [طه: ١٤]
وَفِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. [طه: ١٣٢]
فَالسُّورَةُ بَدَأَتْ بِالصَّلَاةِ وَانْتَهَتْ بِالصَّلَاةِ.
وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَنَا: إِذَا أَرَدْتُمْ حَمْلَ الرِّسَالَةِ فَالصَّلَاةُ هِيَ مَصْدَرُ الطَّاقَةِ الرُّوحِيَّةِ.

📌 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ هُوَ بَطَلُ الْقِصَّةِ الْحَقِيقِيِّ:
غَالِبُ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ بَطْلَ السُّورَةِ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ فِرْعَوْنُ.
لَكِنَّ الْمُتَأَمِّلَ يَرَى أَنَّ الْحُضُورَ الْأَقْوَى فِيهَا هُوَ: التَّدْبِيرُ الْإِلَهِيُّ.
تَأَمَّلُوا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾. [طه: ٣٩]
﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. [طه: ٤١]
هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ أَعْظَمِ مَا قِيلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنِ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ.
وَلِذَلِكَ فَالْقِصَّةُ لَيْسَتْ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَدْرِ مَا هِيَ قِصَّةُ:
كَيْفَ يُدَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى أُمْرَ أَوْلِيَائِهِ.

📌 لِمَاذَا اخْتِيرَتْ عِبَارَةٌ: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»؟
هَذِهِ مِنْ أَثْمَنِ جَوَاهِرِ السُّورَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. [طه: ٤١]
وَلَمْ يَقُلْ: وَاخْتَرْتُكَ... أَوْ اصْطَفَيْتُكَ... أَوْ أَعَدَدْتُكَ.
فَالْاصْطِنَاعُ يُوجِي بِالْتَرْبِيَةِ الطَّوِيلَةِ الْمُتَدَرِّجَةِ، وَلِهَذَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةٌ:
﴿وَفَتَّنَاكَ فُتُونًا﴾. [طه: ٤٠]
﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾. [طه: ٤٠]
أَيُّ: أَنَّ كُلَّ مَرَاحِلِ حَيَاتِكَ كَانَتْ جُزْءًا مِنْ هَذَا الْاصْطِنَاعِ.

📌 سُورَةُ طه وَسُورَةُ الْكَهْفِ: وَهَذَا رَابِطٌ لَا يَنْتَبِهُ لَهُ كَثِيرُونَ.
فِي سُورَةِ الْكَهْفِ رَأَيْنَا أَرْبَعَ فِتَنٍ:
فِتْنَةُ الدِّينِ... فِتْنَةُ الْمَالِ... فِتْنَةُ الْعِلْمِ... فِتْنَةُ السُّلْطَانِ.
وَفِي سُورَةِ طه نَرَى هَذِهِ الْفِتَنَ مُجْتَمِعَةً:

فِرْعَوْنُ: فِتْنَةُ السُّلْطَانِ.

السَّامِرِيُّ وَالْعَجَلُ: فِتْنَةُ الدِّينِ.

وَقَارُونُ ذَكَرَ فِي السِّيَاقِ التَّارِيخِيَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ خَارِجَ السُّورَةِ: فِتْنَةُ الْمَالِ.

السَّحَرَةُ وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِتْنَةُ الْعِلْمِ.

وَأَرَى أَنَّ هُنَاكَ إِضَافَةً أُخِيرَةً بِالْعَلَّةِ الْأَهْمِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ مَفَاتِيحِ تَفَاسِكِ سُورَةِ طه كُلِّهَا كَوَحْدَةٍ وَاحِدَةٍ.

✂ سُورَةُ طه تَنْهَى عَنْ «الاسْتِعْجَالِ»: هَذَا الْخَيْطُ يَمُرُّ فِي السُّورَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَعْجَلَ لِقَاءَ رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، قَالَ تَعَالَى:

{وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}.

[طه: ٨٣-٨٤]

وَمَعَ أَنَّ بَاعَثَ الاسْتِعْجَالَ هُنَا هُوَ الشُّوقُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِلَّا أَنَّ اسْتِعْجَالَه أَدَّى إِلَى وَقُوعِ فِتْنَةِ الْعَجَلِ فِي غِيَابِهِ.

وَهُنَا عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ لَا يُفَارِقَ قَوْمَهُ، وَأَنْ لَا يَحْرِمَهُمْ نُصْحَهُ وَتَوْجِيهِه.

فَكَانَ السُّورَةُ تُعَلِّمُنَا أَنَّ النِّيَّةَ الْحَسَنَةَ لَا تُغْفِي مِنْ ضَرُورَةِ الْإِلْتِزَامِ بِمِيزَانِ الْحِكْمَةِ وَالتَّوْقِيتِ.

✂ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَعْجَلَ الثَّمَرَةَ:

لَمْ يَرِدْ لَفْظُ الْعَجَلَةِ صَرَاحَةً، لَكِنْ جَوَّ الْقِصَّةِ قَائِمٌ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي تَحْصِيلِ شَيْءٍ قَبْلَ أَوَانِهِ:

{هَلْ أَذْكَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: ١٢٠]

أَرَادَ الْخُلُودَ فَوْرًا، فَوَقَعَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ، وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَلَّا يَسْتَعْجَلَ الْوَحْيِ.

فَفِي وَسْطِ السُّورَةِ يَأْتِي تَوْجِيهٌ يَبْدُو لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مُنْفَصِلًا عَنِ السِّيَاقِ:

{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه: ١١٤]

وَهُنَا تَتَضَحُّ الصُّورَةُ:

مُوسَى اسْتَعْجَلَ... آدَمُ اسْتَعْجَلَ... وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ أَلَّا يَسْتَعْجَلَ.

وَكَانَ السُّورَةُ كُلُّهَا تَقُولُ:

إِنَّ السَّيْرَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ عَلَى تَوْقِيتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

✂ سُورَةُ طه: سُورَةُ الْقَدْرِ أَوْ سُورَةُ التَّوْقِيتَاتِ

لَا حِظُّوا هَذَا التَّغْيِيرَ الْعَجِيبَ: {ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} [طه: ٤٠]

هَذِهِ الْآيَةُ وَحْدَهَا تَكَادُ تَكُونُ تَلْخِيصًا لِحَيَاةِ مُوسَى:

أَلْقِيَ فِي الْيَمِّ... تَزَبَّى فِي بَيْتٍ فِرْعَوْنَ... خَرَجَ إِلَى مَدْيَنَ... عَادَ إِلَى مِصْرَ.
كُلُّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْمُتَفَرِّقَةِ لَمْ تَكُنْ فَوْضَى، بَلْ كَانَتْ تَسِيرُ بِمُوسَى نَحْوَ لَحْظَةٍ مُعَيَّنَةٍ:
{ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}. [طه: ٤٠]

وَلِهَذَا فَإِنَّ السُّورَةَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تُزَيِّ الدَّاعِيَةَ عَلَى الثَّقَةِ فِي التَّذْيِيرِ الْإِلَهِيِّ.

📌 لِمَاذَا سُورَةُ طه مَحْبُوبَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَذَبِّرِينَ؟

لِأَنَّهَا مِنْ أَكْثَرِ السُّورِ الَّتِي تَكْشِفُ جَانِبَ الرَّعَايَةِ فِي الْعَلَاَقَةِ بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبَيْنَ عِبَادِهِ، وَفِيهَا عِبَارَاتٌ لَا تَكَادُ تَجِدُ نَظَائِرَ لَهَا مُجْتَمِعَةً فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ:

{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}. [طه: ٣٩]

{وَلِئُضْنَعَ عَلَى عَيْنِي}. [طه: ٣٩]

{وَاضْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}. [طه: ٤١]

{إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى}. [طه: ٤٦]

هَذِهِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَوْامِرٍ وَتَشْرِيعَاتٍ، بَلْ خِطَابٌ رَبَّانِيٌّ عَظِيمٌ يَفِيضُ بِالرَّعَايَةِ وَالْقُرْبِ وَالتَّثْبِيَتِ، وَلِهَذَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ:

إِنَّ سُورَةَ مَزِيمٍ هِيَ سُورَةُ الرَّحْمَةِ... وَسُورَةُ طه هِيَ سُورَةُ الرَّعَايَةِ.

فِي سُورَةِ مَزِيمٍ نَرَى رَحْمَةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَوَّلِيَّائِهِ، وَفِي سُورَةِ طه نَرَى كَيْفَ تَتَجَلَّى تِلْكَ الرَّحْمَةُ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ وَالْحِفْظِ خُطْوَةً خُطْوَةً، حَتَّى يَبْلُغَ الْعَبْدُ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ.

وَمِنْ هُنَا تَأْتِي الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي أَرَاهَا مِفْتَاحًا خَفِيًّا لِلْسُّورَةِ كُلِّهَا:

{ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}. [طه: ٤٠]

فَبَعْدَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلِئُضْنَعَ عَلَى عَيْنِي}. [طه: ٣٩]

يَأْتِي بَيَانُ النَّتِيْجَةِ: {ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}. [طه: ٤٠]

أَيُّ: إِنَّ الْأَضْطِنَاعَ الْإِلَهِيَّ يَنْتَهِي دَائِمًا إِلَى قَدَرٍ إِلَهِيٍّ، وَمَهَمَّةٍ إِلَهِيَّةٍ، وَمَوْضِعٍ أَرَادَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِصَاحِبِهِ مِنْذُ الْبِدَايَةِ.

📌 خَاتِمَةُ السُّورَةِ... بَعْدَ كُلِّ هَذَا تَأْتِي الْوَصَايَا لِلدَّاعِيَةِ:

{فَاضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}. [طه: ١٣٠]

ثُمَّ: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاضْطَبِرْ عَلَيْهَا}. [طه: ١٣٢]

فَبَعْدَ قِصَّةِ مُوسَى الطَّوِيلَةِ يَعُودُ الْخِطَابُ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَاشَرَةً.

وَكَاَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ لَهُ: لَقَدْ رَأَيْتَ طَرِيقَ الْأَنْبِيَاءِ... فَسِرَ فِيهِ.

📌 العَلَاقَةُ بَيْنَ سُورَةِ طه وَسُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ

تَنْتَهِي سُورَةُ طه بِقِصَّةِ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا:
{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}. [طه: ١٣٠]

وَتَنْتَهِي بِالْحَدِيثِ عَنْ انْتِظَارِ تَحَقُّقِ الْوَعْدِ: {وَتَرَبَّصُوا فَسْتَغْلَمُونَ}. [طه: ١٣٥]
ثُمَّ تَبْدَأُ سُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ مُبَاشَرَةً: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ}. [الأَنْبِيَاءِ: ١]

فَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّتْ سُورَةُ طه كَيْفَ يُرَبَّى الدَّاعِيَةُ لِيَحْمِلَ الرِّسَالَةَ، جَاءَتْ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ لِتَعْرِضَ
مَوْكِبَ الرُّسُلِ كُلَّهُ عِبْرَ التَّارِيخِ، وَتُغْلِنَ أَنَّ الْقِصَّةَ وَاحِدَةً مِنْذُ آدَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَالِي آخِرِ دَاعِيَةٍ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى هَذَا الْكُوكِبِ:
{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}. [الأَنْبِيَاءِ: ٩٢]

📌 خُلَاصَةُ سُورَةِ طه فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ:

إِذَا كَانَتْ سُورَةُ مَرْيَمَ تَعْرِضُ نَمَازِجَ الْمُصْطَفِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَإِنَّ سُورَةَ طه
تَكْشِفُ كَيْفَ يَصْنَعُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفِينَ، وَكَيْفَ يُرَبِّيهِمْ، وَكَيْفَ يَقُودُهُمْ بِالْوَحْيِ
إِلَى الْمُوَاجَهَةِ، ثُمَّ إِلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ.

وَلَعَلَّ الْآيَةَ الَّتِي تَخْتَصِرُ رُوحَ السُّورَةِ كُلَّهَا هِيَ: {وَلِئْصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}. [طه: ٣٩]
فَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: إِنَّ حَامِلَ الرِّسَالَةِ لَا يُولَدُ جَاهِزًا، بَلْ يَصْنَعُهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْأَقْدَارِ
وَالْإِبْتِلَاءَاتِ وَالْوَحْيِ، حَتَّى يُصْبِحَ أَهْلًا لِحَمْلِ كَلِمَتِهِ.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ:

ما الفرقُ بينَ سُورَةِ هُودٍ، وَسُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ؟ عَلِمَا أَنَّ سُورَةَ هُودٍ ذَكَرَتْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ، وَسُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ أَيْضًا ذَكَرَتْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعْضُهُمْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي كِلْتَا السُّورَتَيْنِ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ؟

أَوَّلًا: قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ هُودٍ جَاءَتْ لِلْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالٍ: كَيْفَ يَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ إِذَا طَالَ الصَّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؟ وَلِذَلِكَ كَانَتْ كُلُّ قِصَّةٍ تَنْتَهِي بِحُكْمٍ وَاحِدٍ: نُوحٌ: نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكُ الْمُكَذِّبِينَ.

هُودٌ: نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكُ عَادٍ.
صَالِحٌ: نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكُ ثَمُودَ.
لُوطٌ: نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكُ قَوْمِهِ.
شُعَيْبٌ: نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكُ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي نَهَايَةِ السُّورَةِ:
﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. [سُورَةُ هُودٍ: ١٢٠].
إِذْ، مَخَوَّرَ سُورَةَ هُودٍ هُوَ:

الْتِّبَاتُ أَثْنَاءَ الصَّرَاعِ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّ الْمُكَذِّبِينَ سَيَهْلِكُونَ.
فَالْتَّزَكُّيزُ هُنَاكَ عَلَى الْأُمَمِ، وَعَلَى الْمَوَاجِهَةِ، وَعَلَى الْعُقُوبَاتِ.
أَمَّا سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَشَيْءٌ آخَرُ تَمَامًا.

لَا حِظَّ أَنَّهَا لَا تَكَادُ تَتَحَدَّثُ عَنْ هَلَاكِ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ رَفَضُوا دَعْوَةَ الْأَنْبِيَاءِ، بَلْ تَتَحَدَّثُ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ أَنْفُسِهِمْ، انْظُرْ:

إِبْرَاهِيمُ... كَيْفَ نَجَّاهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.
أَيُّوبُ... كَيْفَ كَشَفَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ضُرَّهُ.
يُونُسُ... كَيْفَ اسْتَجَابَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ.
زَكَرِيَّا... كَيْفَ وَهَبَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ يَحْيَى.
مَرْيَمُ... كَيْفَ اصْطَفَاهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.
سُلَيْمَانُ... كَيْفَ سَخَّرَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ الْمَلِكَ.
دَاوُدُ... كَيْفَ عَلَّمَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

إِذْنِ، فَالْتَّرَكِيزُ لَيْسَ عَلَى هَلَاكِ الْأَعْدَاءِ، بَلْ عَلَى عِنَايَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَوْلِيَائِهِ.
وَهَذَا فَرْقٌ جَوْهَرِيٌّ.

الْفَرْقُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ... فِي سُورَةِ هُودٍ... مَاذَا فَعَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْمُكَذِّبِينَ؟
وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ... مَاذَا فَعَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَنْبِيَائِهِ؟

فَرْقٌ آخَرٌ أَدَقُّ:

فِي سُورَةِ هُودٍ... كُلُّ قِصَّةٍ مُسْتَقِلَّةٌ، كُلُّ نَبِيٍّ مَعَ قَوْمِهِ.
أَمَّا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ... فَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ كَأَنَّهُمْ قِصَّةٌ وَاحِدَةٌ.

وَلِهَذَا يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِسُرْعَةٍ:
إِبْرَاهِيمُ... ثُمَّ لُوطٌ... ثُمَّ نُوحٌ... ثُمَّ دَاوُودُ... ثُمَّ سُلَيْمَانُ... ثُمَّ أَيُّوبُ... ثُمَّ يُوسُفُ... ثُمَّ زَكَرِيَّا...
وَكَأَنَّ السُّورَةَ تَقُولُ: لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَشْخَاصِ... وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى سُنَّةِ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ.

لِمَاذَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا؟

لِأَنَّا خَرَجْنَا مِنْ سُورَةِ طه... وَسُورَةِ طه رَكَزَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ، وَقَدْ يَتَوَهَّمُ
الْقَارِئُ أَنَّ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَالَةٌ خَاصَّةٌ.
فَجَاءَتْ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ لَتَقُولَ: ...لَا... هَذِهِ السُّنَّةُ لَيْسَتْ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ، بَلْ هَذِهِ
سُنَّةُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَعَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ.

إِذْنِ، لِمَاذَا يَتَأَخَّرُ النَّصْرُ؟

هَلِ الطَّرِيقُ الَّذِي أُسِيرَ فِيهِ هُوَ نَفْسُ طَرِيقِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ؟ وَهَلِ سُنَّةُ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، مَعَ
النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ نَفْسُهَا سُنَّتُهُ مَعَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ؟
وَجَوَابُ السُّورَةِ: نَعَمْ، وَلِهَذَا جَمَعَ اللَّهُ، جَلَّ جَلَالُهُ، هَذَا الْعَدَدَ الْكَبِيرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةٍ
وَاحِدَةٍ... لَيْسَ لِعَرْضِ سِيرِهِمْ... بَلْ لِإثْبَاتِ أَنَّ:
الرِّسَالَةَ وَاحِدَةً... وَالْإِبْتِلَاءَ وَاحِدًا... وَالرَّبَّ وَاحِدًا... وَالْعَاقِبَةَ وَاحِدَةً.

📌 الْمَخَوَّرُ الْأَوَّلُ: لَا تَسْتَعْجَلْ:

{اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ١].

📌 الْمَخَوَّرُ الثَّانِي: وَهُوَ قَلْبُ السُّورَةِ... عَرَضُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ لِإثْبَاتِ وَحْدَةِ السُّنَّةِ الْإِلَهِيَّةِ

مَعَهُمْ، وَلِهَذَا تَتَكَرَّرُ عِبَارَاتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مِنْهَا:

{فَاسْتَجِبْنَا لَهُ}... {فَنَجِّينَاهُ}... {فَكَشَفْنَا}... {وَنَصْرَنَاهُ}...

حَتَّى يَشْعُرَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، أَنَّ مَا يَمُرُّ بِهِ لَيْسَ اسْتِثْنَاءً.

📌 **المَحَوْرُ الثَّالِثُ:** رَبُّ هَذَا الْكَوْنِ، الَّذِي يُدَبِّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي يُدَبِّرُ مَسِيرَةَ الدَّعْوَةِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ عَرَضُ آيَاتِ الْقُدْرَةِ فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ؛ لِيُزَبِّطَ بَيْنَ سُلْطَانِ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، فِي الْكَوْنِ وَسُلْطَانِهِ فِي التَّارِيخِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^١ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ^٢ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٣٠].
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٣١].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا^٣ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٣٢].

ثَانِيًا: قُدْرَةُ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، فِي تَدْبِيرِ الزَّمَانِ وَالْكَوْنِ.
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ^٤ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٣٣].
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ^٥ أَقَانِ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٣٤]... أَي: إِنَّ الَّذِي يُدَبِّرُ حَرَكَةَ الْأَفْلَاقِ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ أَجَالَ الْبَشَرِ.

ثَالِثًا: قُدْرَةُ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، فِي إِحْيَاءِ الْحَقِّ وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ.
قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ^٦ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ١٨].
فَهَذِهِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ قَاعِدَةٍ اخْتِلَافِيَّةٍ، بَلْ إِعْلَانٌ عَنْ سُنَّةٍ كَوْنِيَّةٍ؛ فَكَمَا أَنَّ الْكَوْنَ قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، فَكَذَلِكَ التَّارِيخُ يَسِيرُ بِأَمْرِهِ، وَالْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَغْلِبُ فِي النَّهَايَةِ.

📌 **المَحَوْرُ الرَّابِعُ...** خُلَاصَةُ التَّارِيخِ كُلِّهِ:
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٩٢].
فَالْأَنْبِيَاءُ كَتَبُوا... لَكِنَّ الدَّعْوَةَ وَاحِدَةً.

النَّهَايَةُ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ^٧ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ١١٢].
أَي: بَعْدَ أَنْ رَأَيْتَ سُنَّةَ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، مَعَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَمُضِيَ فِي طَرِيقِكَ، وَتُقَوِّضَ الْحُكْمَ إِلَى اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ.

سورة الحج:

إِنَّهَا لَيْسَتْ سُورَةً تَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَجِّ فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ سُورَةٌ انْتِقَالَ الرِّسَالَةِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ، إِنَّهَا أُمَّةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الْوَارِثُ الْحَقِيقِيُّ لِمَلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَالْحَامِلَةُ لِرِسَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

✂️ آخِرُ مَا سَمِعْنَاهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. [الأنبياء: ٩٢]... أَي: إِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً، وَرِسَالَةٌ وَاحِدَةً.

ثُمَّ خَتَمَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾. [الأنبياء: ١١٢].
وَكَأَنَّ السُّتَارَ قَدْ أُسْدِلَ عَلَى عَصْرِ التُّبُوتِ... فَمَنْ سَيُوَصِلُ الْمَسِيرَةَ إِذَنْ؟

فَتُحْبِبُنَا سُورَةُ الْحَجِّ فِي خَاتِمَتِهَا: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. [الحج: ٧٨].

أَي: لَقَدْ انْتَهَى مَوْكِبُ الْأَنْبِيَاءِ... وَبَدَأَ مَوْكِبُ أُمَّةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

✂️ مَا عَلاَقَةُ سُورَةِ الْحَجِّ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ؟

هُنَا يَظْهَرُ جَمَالُ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ...

كَانَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُؤَسِّسُ الْأُمَّةَ، فَأَنْزَلَ:

الْقِبْلَةَ... وَالصَّلَاةَ... وَالصِّيَامَ... وَالزَّكَاةَ... وَالْحَجَّ... وَأَحْكَامَ الْهَدْيِ... وَأَحْكَامَ الْبَيْتِ.

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَرَحَلَةً التَّأْسِيسِ التَّشْرِيعِيِّ.

أَمَّا فِي سُورَةِ الْحَجِّ... فَعَادَتِ الشَّعَائِرُ نَفْسُهَا... لَكِنْ لَيْسَ لِتَعْلِيمِ أَحْكَامِهَا.

بَلْ لِتَبْيِينِ مَعْنَاهَا وَرِسَالَتِهَا.

فَسُورَةُ الْبَقَرَةِ تُعَلِّمُكَ: كَيْفَ تُؤَدِّي الْحَجَّ؟

أَمَّا سُورَةُ الْحَجِّ فَتُعَلِّمُكَ: لِمَاذَا تُؤَدِّي الْحَجَّ؟ وَمَا الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَصْنَعَهُ الْحَجُّ فِيكَ؟

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. [الحج: ٣٢].

وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾. [الحج: ٣٧].

فَانْتَقَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ فِقهِ الشَّعَائِرِ إِلَى رُوحِ الشَّعَائِرِ.

وَأَرَى -وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ- أَنَّ سُورَةَ الْحَجِّ تَسِيرُ فِي سِتَّةِ مَحَاوِرَ مُتْرَابِطَةٍ.

📌 **المَحَوْرُ الْأَوَّلُ:** بِنَاء الدَّافِع، افْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}. [الحج: ١].
لَا يُمْكِنُ لِأُمَّةٍ أَنْ تَحْمِلَ رِسَالَةَ السَّمَاءِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ تَرَى الْآخِرَةَ أَمَامَهَا؛ وَلِهَذَا بَدَأَتِ السُّورَةُ
بِیَوْمِ الْقِيَامَةِ.

📌 **المَحَوْرُ الثَّانِي:** تَرْسِيخُ الْيَقِينِ، ثُمَّ عَرَضَتِ السُّورَةُ دَلَائِلَ الْقُدْرَةِ:
خَلَقَ الْإِنْسَانَ... أَطْوَارَ الْجَنِينِ... إَحْيَاءَ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ... الْبَعْثَ.
ثُمَّ جَمَعَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى}. [الحج: ٦].
فَالَّذِي سَيَحْمِلُ الرِّسَالَةَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ يَقِينُهُ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ رَاسِخًا.

📌 **المَحَوْرُ الثَّلَاثُ:** تَرْبِيَةُ الشَّخْصِيَّةِ:
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}. [الحج: ١١].
فَالرِّسَالَةُ لَا يَحْمِلُهَا الْمُتَرَدِّدُ، وَلَا مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ، بَلِ الثَّابِتُ عِنْدَ الْفِتْنَةِ.

📌 **المَحَوْرُ الرَّابِعُ:** إِقَامَةُ الدِّينِ فِي الْأَرْضِ.
ثُمَّ جَاءَ أَوَّلُ إِذْنٍ بِالْقِتَالِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}. [الحج: ٣٩].
بَعْدَ أَنْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ وَخَدَهُمْ يَحْمِلُونَ الرِّسَالَةَ، أَصْبَحَتْ هُنَاكَ أُمَّةٌ كَامِلَةٌ مَسْئُولَةٌ عَنْ حِمَايَتِهَا.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ صِفَاتِ الْأُمَّةِ الْمُمَكَّنَةِ، فَقَالَ:
{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ}
وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}. [الحج: ٤١].
فَالْعَايَةُ مِنَ التَّمْكِينِ لَيْسَتْ السُّلْطَانُ، وَإِنَّمَا إِقَامَةُ الدِّينِ.

📌 **المَحَوْرُ الْخَامِسُ:** الْعَوْدَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا قَلْبُ السُّورَةِ.
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ}. [الحج: ٢٦].
ثُمَّ قَالَ: {وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}. [الحج: ٢٧].
ثُمَّ قَالَ: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}. [الحج: ٢٨].
ثُمَّ قَالَ: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ}. [الحج: ٣٢].

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾. [الحج: ٣٧].
وَهُنَا تَتَضَحُّ الْعَلَاقَةُ مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ دَعَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾. [البقرة: ١٢٨].
وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ نَرَى هَذِهِ الْمَنَاسِكَ حَيَّةً تُؤَدِّي، لِكِنَّهَا لَمْ تَعُدْ مُجَرَّدَ أَحْكَامٍ، بَلْ صَارَتْ إِعْلَانًا
عَنِ الْإِنْتِمَاءِ إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَارَتْ شَعِيرَةً الْحَجِّ هِيَ الْعَلَامَةُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذِهِ
الْأُمَّةِ.

📌 الْمَخَوْرُ السَّادِسُ: تَسْلِيمُ الْأَمَانَةِ، ثُمَّ تُخْتَمُ السُّورَةُ بِأَعْظَمِ إِعْلَانٍ فِي نَظَرِي.
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. [الحج: ٧٨].
ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾. [الحج: ٧٨].
ثُمَّ قَالَ: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾. [الحج: ٧٨].
ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾. [الحج: ٧٨].
ثُمَّ قَالَ: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. [الحج: ٧٨].

هَذِهِ لَيْسَتْ خَاتِمَةً لِسُورَةٍ فَحَسَبْ، بَلْ إِعْلَانٌ رَسْمِيٌّ بِأَنَّ أُمَّةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَصْبَحَتْ وَارِثَةً
لِرِسَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

📌 الْحَيْطُ الَّذِي يَرْبِطُ أَوَّلَ السُّورَةِ بِآخِرِهَا:
افْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِدَعَاءٍ عَامٍّ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾. [الحج: ١].

وُخْتُمَتْ بِدَعَاءٍ خَاصٍّ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُوا وَاسْجُدُوا... وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. [الحج: ٧٧-٧٨].

فَالنَّاسُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مَدْعُوءُونَ إِلَى النِّجَاةِ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي آخِرِهَا
مُكَلَّفُونَ بِأَنْ يَكُونُوا سَبَبًا فِي نَجَاةِ النَّاسِ، عَبْرَ عِبَادَتِهِمْ، وَجِهَادِهِمْ، وَشَهَادَتِهِمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الرَّسَالَةُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ بِهَا قَارِئُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: 

لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُلْخَصَ سُورَةُ الْحَجِّ كُلُّهَا فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، بَعْدَ رَبِّطِهَا بِسُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ، لَقُلْتُ:

لَقَدْ بُنِيََتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِالتَّشْرِيعِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَرُبِّيَتْ عَلَى الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ، ثُمَّ شَهِدَتْ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ مَوْكِبَ الرُّسُلِ وَسُنَّةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَعَهُمْ، وَهَا هِيَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ تُسْتَدْعَى لِتَتَسَلَّمَ الرَّايَةَ:

اغْبُدُوا اللَّهَ بِرُوحِ الشَّعَائِرِ لَا بِصُورَتِهَا فَقَطْ، وَسِيرُوا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاحْمِلُوا رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ كَمَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ شُهَدَاءَ قَبْلَكُمْ.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ:



إِنْتَهَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾. [الْحَجِّ: ٧٨]
فَبَعْدَ أَنْ قَرَرَتْ السُّورَةُ هُويَّةَ الْأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَأَرْسَتْ شَعَائِرَهَا، وَدَعَتْهَا إِلَى الْعِبَادَةِ وَالْجِهَادِ
وَفِعْلِ الْخَيْرِ، بَقِيَ سَوَالٌ مُهِمٌّ:
كَيْفَ يَظْهَرُ أَثَرُ هَذَا الْإِسْلَامِ فِي الْإِنْسَانِ؟ وَكَيْفَ نَعْرِفُ أَنَّ أَوَامِرَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أُتِمِرَتْ
فِي النَّفْسِ ثَمَرَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ؟
هُنَا تَأْتِي سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ لِتُجِيبَ عَنْ هَذَا السُّوَالِ.

افْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. [الْمُؤْمِنُونَ: ١]
وَلَمْ تَبْدَأْ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا بَدَأَتْ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ، ثُمَّ بَيَّنَّتْ
صِفَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةَ:
﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.
﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.
﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَافِظُونَ﴾.
﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. [الْمُؤْمِنُونَ: ٢-٩]

فَالسُّورَةُ لَا تَكْتَفِي بِالِانْتِسَابِ إِلَى الْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا تَعْرِضُ صِفَاتِ الْإِيمَانِ الَّتِي يَظْهَرُ أَثَرُهَا فِي
الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ.

 الْعَلَاقَةُ بَيْنَ سُورَتَيْ الْحَجِّ وَالْمُؤْمِنُونَ:
تَقُولُ سُورَةُ الْحَجِّ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾... فَتَقَرَّرُ هُويَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ.
ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ لِتُبَيِّنَ صِفَاتِ الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ الَّذِي يَقُودُ إِلَى الْفَلَاحِ، فَتَقُولُ:
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾... فَلَيْسَتْ السُّورَةُ بِصَدَدٍ تَعْرِيفِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا تَصِفُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ اسْتَقَرَّتْ مَعَانِي الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَظَهَرَتْ آثَارُهَا فِي أَعْمَالِهِمْ.

 الْفَرْقُ الدَّقِيقُ:
سُورَةُ الْحَجِّ تُعَلِّنُ هُويَّةَ الْأُمَّةِ وَتَكْلِفُهَا.
أَمَّا سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ فَتُبَيِّنُ الصِّفَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا مَنْ يَحْمِلُ هَذَا التَّكْلِيفَ.

فَالْهُوِيَّةُ وَحَدَهَا لَا تَكْفِي، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ يَظْهَرُ فِي الصَّلَاةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْعَقَّةِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ اللَّغْوِ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي ذَكَرَتْهَا السُّورَةُ.

📌 ثُمَّ تُبَيِّنُ السُّورَةُ جَزَاءَ هَؤُلَاءِ... بَعْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
{أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} ١٠ [الْمُؤْمِنُونَ: ١١-١٠]
فَالسُّورَةُ تُبَيِّنُ صِفَاتِ أَهْلِ الْفَلَاحِ، وَأَنَّ وِرَاثَةَ الْفِرْدَوْسِ تَكُونُ لِمَنْ حَقَّقَ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

📌 ثُمَّ تَكْشِفُ السُّورَةُ سَبَبَ ضَلَالِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا} [الْمُؤْمِنُونَ: ٦٣]
فَتَرُدُّ السُّورَةُ أَصْلَ الدَّاءِ إِلَى غَفْلَةِ الْقَلْبِ وَانْشِغَالِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَلِذَلِكَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْآيَاتُ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ مِنْ هُدَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

📌 ثُمَّ تَعْرِضُ السُّورَةُ الْعَاقِبَةَ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:
{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ: ١١٧]
وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ: ١١١] فَتُخْتِمُ
السُّورَةُ بِبَيَانِ الْعَاقِبَةِ: فَلَاحٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّابِرِينَ، وَخُسْرَانٌ لِمَنْ أُغْرِضَ عَنْ هُدَى اللَّهِ جَلَّ
جَلَالُهُ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

📌 الرِّبْطُ بَيْنَ نِهَايَةِ سُورَةِ الْحَجِّ وَبِدَايَةِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ
قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ٧٧ [الْحَجِّ: ٧٨-٧٧].
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ... هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ} [الْحَجِّ: ٧٧-٧٨].

ثُمَّ افْتَتَحَتْ سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ:
{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}... وَكَأَنَّ السُّورَةَ التَّالِيَةَ تُبَيِّنُ كَيْفَ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ الْفَلَاحُ الَّذِي وَعَدَتْ بِهِ
سُورَةُ الْحَجِّ.

أَوَّلًا: الْعِبَادَةُ... قَالَتْ سُورَةُ الْحَجِّ:
{ازْكُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ}..
وَجَاءَتْ سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ لِتُبَيِّنَ أَثَرَ هَذِهِ الْعِبَادَةِ فِي النَّفْسِ:
{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}..

ثَانِيًا: فِعْلُ الْخَيْرِ... قَالَتْ سُورَةُ الْحَجِّ:
{وَافْعَلُوا الْخَيْرَ}..

وَجَاءَتْ سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ لِتَذَكَّرَ نَمَازِجَ عَمَلِيَّةٍ لِهَذَا الْخَيْرِ:
{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}...{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}.

ثَالِثًا: الْجِهَاد... قَالَتْ سُورَةُ الْحَجِّ:

{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}.

وَجَاءَتْ سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ لِتُبَيِّنِيَ الشَّخْصِيَّةَ الْمُؤْمِنَةَ الْمُنْضَبِطَةَ الَّتِي تُؤَهِّلُ صَاحِبَهَا لِحَمْلِ
تَكَالِيفِ الدِّينِ كُلِّهَا، وَمِنْهَا الْجِهَادُ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْزُوجِهِمْ حَافِظُونَ}.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}.

رَابِعًا: الْفَلَاح... قَالَتْ سُورَةُ الْحَجِّ:

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

وَجَاءَ مَطْلَعُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ بِإِعْلَانِ تَحَقُّقِ هَذَا الْفَلَاحِ لِمَنْ اسْتَجْمَعَ صِفَاتِ الْإِيمَانِ:
{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}.

ثُمَّ خَتَمَ هَذَا الْمَقْطَعَ بِبَيَانِ ثَمَرَةِ ذَلِكَ:

{أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} ﴿١٠﴾ {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ}.

الْخُلَاصَةُ 

إِذَا كَانَتْ سُورَةُ الْحَجِّ قَدْ أَسَسَتْ الْأُمَّةَ، وَحَدَّدَتْ هُوِيَّتَهَا، وَشَعَائِرَهَا، وَرِسَالَاتَهَا فِي الْأَرْضِ،

فَإِنَّ سُورَةَ الْمُؤْمِنُونَ بَدَأَتْ بِتَأْسِيسِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْمِلُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ.

فَالْهُوِيَّةُ وَحَدَهَا لَا تَكْفِي، وَإِنَّمَا لَا بُدَّ مِنْ بِنَاءِ الْقَلْبِ، وَاسْتِقَامَةِ السُّلُوكِ، وَصِدْقِ الْعِبَادَةِ،

حَتَّى يَتَحَقَّقَ وَعْدُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْفَلَاحِ، وَيَكُونُ صَاحِبُهُ مِنَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ.

- خَاتِمَةُ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ -

وَهُنَا نَصِلُ إِلَى نِهَآيَةِ -الْجُزْءِ الْأَوَّلِ- مِنْ «الْخَارِطَةِ الْكُبْرَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ».

لَقَدْ سِرْنَا فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، وَتَتَبَعْنَا خُيُوطَ السُّورِ وَآيَاتِهَا وَقِصَصَهَا وَأَحْكَامَهَا، فَوَجَدْنَا أَنَّهَا تَلْتَقِي جَمِيعًا عِنْدَ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كُبْرَى:

أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُرْسِلِ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ لِيُقَرِّرَ النَّاسَ بِوُجُودِهِ فَحَسْبُ، بَلْ أَرْسَلَهُمْ لِيُفَرِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ.

وَأَنَّ الْعِبَادَةَ فِي حَقِيقَتِهَا هِيَ الطَّاعَةُ الْمُطْلَقَةُ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَلَا يُطَاعُ أَحَدٌ طَاعَةً مُطْلَقَةً إِلَّا هُوَ، وَلَا يُجْعَلُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ حَقُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ دُونِهِ.

وَلَعَلَّ مِنْ أَجْمَلِ مَا يَكْشِفُهُ التَّأَمُّلُ فِي هَذَا الْجُزْءِ أَنَّ الرَّحْلَةَ بَدَأَتْ مِنْ قَوْلِ الْمُؤْمِنِينَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

ثُمَّ جَاءَتْ السُّورُ كُلُّهَا لِتُبَيِّنَ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِتُكْشِفَ كَيْفَ خَاصَّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْرَكَتَهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِهَا، وَكَيْفَ انْخَرَفَتِ الْأُمَمُ عَنْهَا حِينَ صَرَفَتْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الطَّاعَةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ نَصِلُ فِي نِهَآيَةِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ إِلَى سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، فَنَجِدُهَا تُعْلِنُ النَّتِيجَةَ: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}... فَكَأَنَّ الْخَارِطَةَ بَدَأَتْ بِالْعَهْدِ، وَانْتَهَى جُزُؤُهَا الْأَوَّلُ بِثَمَرَةِ الْوَفَاءِ بِذَلِكَ الْعَهْدِ.

بَدَأَتْ بِقَوْلِ الْعِبَادِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}... وَانْتَهَتْ بِشَهَادَةِ اللَّهِ لَهُمْ:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}... وَبَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَمْتَدُّ رِحْلَةُ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ كُلِّهَا، لِتُبَيِّنَ أَنَّ الْفَلَاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ أَفَرَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَحَقَّقَ مَعْنَى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} حَقَّ التَّحْقِيقِ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي - بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى - سَنُواصلُ السَّيْرَ فِي هَذِهِ الْخَارِطَةِ؛
لِنَرَى كَيْفَ تَتَكاملُ بَقِيَّةُ السُّورِ فِي بَيانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَظِيمَةِ، وَكَيْفَ
تُنْكَشِفُ مَعَالِمُ جَدِيدَةٍ مِنْ وَحْدَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ
يَنْفَعَ بِهِ كَاتِبَهُ وَقَارِئَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ رِبِيعَ قُلُوبِنَا وَهَادِيَنَا إِلَى
صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} ○ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ○ وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○. [الصافات ١٨٠ - ١٨٣]